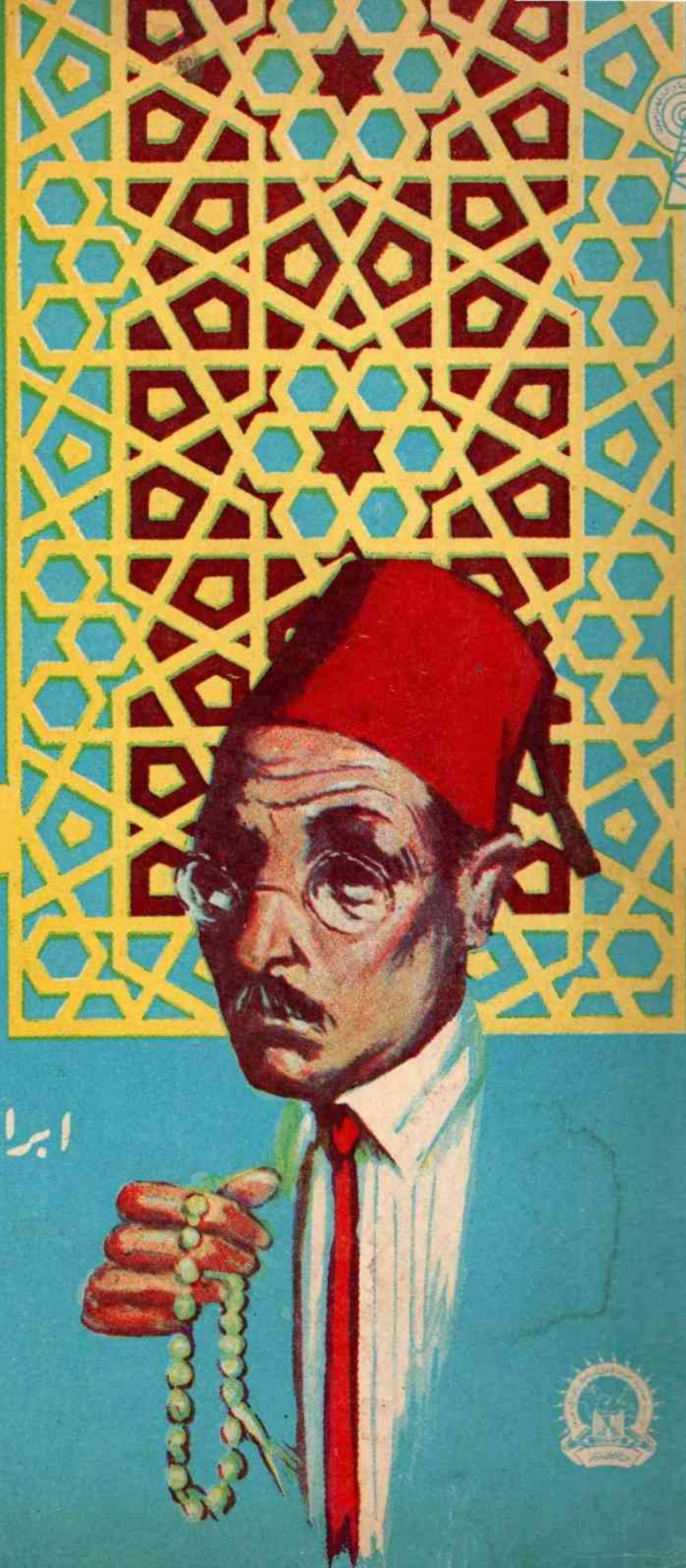
الكتاب الماسى

الباب الذهبى



بقلم

ابراهيم المصرى

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 20 /جمادى الأولى/ 1445 هـ
الموافق 22 / 11 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر

الكتاب الماسى

الباب الذهبى

مجموعة من قصص الوجدان والعاطفة

بقلم
ابراهيم المصرى

اسم المؤلف: إبراهيم سليمان حداد (١٩٠٠-١٩٧٩م): قاصّ مصري من الجيل الأول لروّاد القصة القصيرة، وفاته في ١٣/١٠/١٩٧٩م
أكتوبر

القسم الأول

الباب الذهبى



تزوج عبد المقصود افندى الموظف بوزارة المالية « درجة سادسة » ابنة عمه الست جميلة ، وعاش معها نحو عشر سنوات دون أن يعقب منها خلفا . فلما توفيت حزن عليها حزنا شديدا ، وطابت له حياة العزوبة ، وعقد العزم على أن يظل وفيا لامراته أطول مدة ممكنة كى تحـل بركتها عليه ، فيما لو شاءت الاقدار وتزوج مرة ثانية .

واستقدم أخته العانس الحاجة فهيمة من بيت شقيقه عبد العظيم أفندى حيث كانت تعيش فى صحبة امراته وأولاده ، والتمس اليها أن ترعى شئون بيته ، وتحل فى داره سيدة آمرة ناهية .

وهكذا ظل عبد المقصود أفندى عزبا أربع سـنوات حتى جاوز الخامسة والاربعين ، وأرهقته حياة العزلة ، فأشفق على نفسه ، وعز عليه شبابه ، وبدأ يفكر فى المرأة من جديد .

وكان عبد المقصود أفندى رجلا متوسط القامة ، غـائر العينين ، متكرش البطن ، قصير الذراعين ، يرتدى الردنجوت على الدوام ، ويمشي مشية متباطئة ثقيلة ، ويهز رأسه أمام الاشخاص والاشياء كأنه لا يزال يتفرج بالعالم ، وسبحته فى يده ، وجريدة الاهرام تحت ابطه ، والسيجارة التى لفها بنفسه تتراقص بين شفتيه ، ونظارته مثبتة فوق أنفه الكبير يتطلع بها الى الناس كأنه يراهم لاول مرة .

وكان طيب القلب ، ساذج النفس ، محبا للسكينة ، وديعا ، مسالما ، لايضمر شرا لانسان ، ولا يغتاب أحدا ، ولا يلحق الاذى بأحد .

بيد أنه كان يحب الضحك ، ويميل الى « الفرفشة » ويسـتمرىء النكت الطريفة ، ويبرع فى تصيدها ، ويؤثر أن ينتقم من عدوه بنكتة لاذعة على أن يصيبه فى شخصه أو ماله أو سمعته .

ومع ذلك فقد كان مغلق العقل ، بليد الذهن ، فيما عـدا ابتكار النكت، كان خامد عاطفة الفضول، يشوب أخلاقه نوع من الانانية الصافية، يحب نفسه ، ويعيش مع نفسه ، ويكتفى بنفسه فقط ، لايتكلف النظر فى

جوهر الاشياء ، ولا تسترعيه غرائبها ، ولا يحفل منها بغير النظرة المبتهجة العابرة ، خشية أن ينغص حياته بيده ، ويخلق لنفسه المشاكل والاضطرابات ، ويجهد ذهنه بأفكار وشواغل لاتستحق أن يضحى العاقل من أجلها بصحته وراحته ومتاع هذه الدنيا .

ولقد عرفت فيه المرحومة الست جميلة هذا الخلق فأقرته عليه مختارة ، وحرصت على راحته ، وتجنبت معارضته ، وأطاعته طاعة عمياء ، ولم ترغمه قط على اعتناق مايكره من الاخلاق والعادات .

والواقع أن حياتهما فى منزلهما الصغير فى حى السيدة ، كانت عذبة هادئة رقيقة .

كانت حياة بلدية بسيطة ، تنقضي فى السمر البيتى اللطيف ، وتهيئة الاطعمة الشهية ، والتسلى بشرب المغات والقرفة شتاء ، وعصير البرتقال أو قمر الدين صيفا ، وزيارة بعض الاقارب والجيران ، واعداد العدة للأعياد والمواسم ، ومجاملة الاصدقاء فى المآتم والافراح .

أما الحياة العصرية المضطربة فلم تكن قد ألفتها الست جميلة ، ولم تكن لتصادف أى هوى من نفس عبد المقصود أفندى ، فالمسرح مثلا كان يضطره الى التفكير ويضجره ، والسينما كانت « تزغلل » عينيه وتحرق جفنيه ، وصالات الرقص كانت تثير نخوته الشرقية وتلهب فى صدره عوامل الاستنكار والسخط .

وأما ألذ ساعات حياته فتلك التى كان يقضيها فى مندرة بيته ، بين جمع من صفوة أصدقائه ، يلاعبهم الورق ، أو يطارحهم النكت ، أو يحدثهم عن مآثره فى الوزارة ، أو يستمع الى بعض أصحاب الاصوات الرخيمة منهم ، وهم يغنون البشارف التركية أو المواويل البلدية ، أو ادوار (سي عبده) المفضلة عنده المحببة اليه .

وكان يخرج عصر كل يوم لابسا طاقيته البيضاء ، مرتديا جلابيته الحريرية ، منتعلا شبشبه ، ملقيا عباءته البنية على كتفه ، ويجلس فترة أمام صالون الاسطى حسنين الحلاق ، ثم يغادره الى القهوة البلدية ، ثم يترك القهوة ويتجه صوب حانوت المعلم أحمد الشربتلى ، فيتخذ له مجلسا هناك على رأس الشارع ، ويظل ينقل أبصاره فى المارة ، فرحا بهم ، مغتبطا باختلاف وجوههم ، مبتهجا بتنوع أزيائهم ، يتفرج عليهم دون أن يراهم ، مكتفيا باللذة العميقة التى يحدثها فى نفسه الفارق المحسوس بين

سكونه وحركتهم ، بين حلمه ويقظتهم ، بين راحته وتعبهم ، بين غناه وفقرهم ، بين كسله الفاتر الثمين وبين ماقدر الله عليهم من وجوب الكدح المتواصل فى سبيل الرغيف .

وكان يستسلم لهذه اللذة بجميع كيانه ، ويمضي فى ترشفها ساعات ، حتى اذا ما أقبل المساء ، هرع الى مندرة بيته ، والتقى فيها بصقوة أصدقائه ، واقام فى جوها العائلى الحميم ، تلك السهرات التى كانت اشبه بحفلات يومية ، تملؤه زهوا وخيلاء ، وتلقى فى روعه أنه سيد . بل أمير . بل ملك تحف به حاشية ويتخطر فى بلاط .

فالديوان كان يستغرقه صباحا ، والحياة عصرا ، والمندرة ليلا ، وبين الديوان والحياة والمندرة ، كان يحظى بقرب امرأته ، ويستمتع بعذب حديثها ، ورقة شمائلها ، ودماثة أخلاقها ، وحلاوة ذلك الانكسار النفسي الذى كان يخيم عليها كلما تحدثت عن الاطفال ، وتحسرت على نفسها ، وذكرت فى لهجة بائسة مستغفرة ، خيبتها وعقمها .

على أن عبد المقصود أفندى لم يحقد على امرأته قط لانها كانت عاقرا ، ولم يحملها قط ذنب الطبيعة ، ولم يخطر على باله لحظة واحدة أن يطلقها أو يتزوج عليها ، ليعقب نسلا يحيى ذكراه ، ويرث البيت الذى يملكه فى حى السيدة ، والاربعين فدانا التى خلفها له والده فى المنوفية .

كان قانعا بحظه ، راضيا بقسمته ، مكتفيا بنفسه وامرأته ، ولكن الشيء الوحيد الذى كان يحز فى صدره ، هو أن الست جميلة كانت سمراء وكانت نحيفة ، وكانت قصيرة ، وكان هو فى صميم نفسه يحب « البيض السمان » ، ويهوى البدن المربرب ، ويعشق القامة المديدة ، ويجن جنونا بالشعور الشقراء .

تلك كانت نزعته الخفية ، ومع ذلك فقد كتمها عن نفسه ، وأحب ابنة عمه ، وأخلص لها الاخلاص كله ، وما زال يذكرها بالخير وان كان قد أصبح يحن الى المرأة ، ويصبو الى الانثى ، ويتطلع الى الزواج .

بيد أن فكرة الزواج مرة ثانية كانت تخيفه ، وتصور الحياة مع امرأة جديدة كان يقلقه . والحق أن أفكاره وعواطفه وعاداته كانت قد اندمجت كل الاندماج فى شخص الست جميلة ، بحيث أصبح من المتعذر عليه أن يتمثل الحياة مع امرأة سواها .

فلو غامر الآن وتزوج ، اتراه يفوز بمثل الست جميلة ؟ .. اتراه يعود الى مثل حياته الهادئة الساكنة معها ؟ .

وبعد ، فهل ستفهمه امرأته الجديدة وتطيعه ؟ وهل ستقدر فيه طيبته وكرم أخلاقه ؟ وهل ستحترم عاداته ؟ ، وهل ستعرف مثل الست جميلة كيف تطهو له الطعام « المسبك » ، وتصنع له أطايب الحلوى ، وتليف له ظهره عند دخوله الحمام ، وتغسل قدميه عند عودته مجهدا من الديوان أيام الصيف ؟ ..

هذا ماكان يقلقه ، وهذا ماكان يجعله يقدم رجلا ويؤخر أخرى كلما لج به الشوق الى المرأة وساورته فكرة الزواج .

ولبث على هذا الحال أياما طويلة ، يتروى ويتأمل ويطيل التفكير .

وفى ذات ليلة رأى حلما رائعا غريبا ، رأى كأنه يمشي مع جمع من أصدقائه متخبطا فى نفق مظلم طويل ، ثم أحس كأن النفق يسلمه فجأة الى عالم من نور ، فتلفت حوله واذا بأصدقائه يحيطون به وفى يد كل منهم باقة ورد رشقت فى وسطها شمعة مضاءة ، فاضطرب وذعر وهم بالرجوع ، ولكنهم دفعوه الى الامام دفعا وهم يصيحون ويهللون ، وعندئذ رأى عبد المقصود أفندى وقد تولاه العجب والدهش ، أنه يجتاز عتبة باب عظيم ، باب ذهبى كبير ، مفتوح المصراعين ، مجلل بالازهار ، وأنه يدخل رحبة فسيحة قد ازدحمت بالناس وغمر أرجاءها النور ، فاختلجت أعضاؤه ، وصعد نفسا مستطيلا ، واستيقظ وصيحات أصدقائه تكاد تصم أذنيه !

ولم يكد يهب من فراشه حتى أسرع الى أخته الحاجة فهيمة وقص عليها حلمه ، فاستمعت اليه فى انتباه شديد ، ثم رمقته بنظرة جانبية وهى تبتسم ، ثم هزت رأسها وقالت بلهجة العارف المتيقن :

« والنبى دى جوازة ياسي عبده ، والا ما اكنش أعرف حاجة ، دا انت انكتب لك عمر جديد وحتخش دنيا يا اخويه وتتمتع »

فأطرق برأسه لحظة ، وفكر فى كلامها مليا ، وتملكه العجب بذكائها ، فآمن بحظه ، وتبددت وساوسه ، وأيقن أنه سيدخل الدنيا مرة ثانية ومن بابها الذهبى أيضا .

ومنذ ذلك اليوم تناسي عبد المقصود افندى الست جميلة ، وشرع يبحث عن زوجة أخرى

وانقضت أيام تبعتها أيام ، الى أن حدث ذات مساء وعبد المقصود أفندى فى مكتب صديقه المحـــامى الأستاذ جلال يتحدث اليه فى شـــأن قضية جديدة أقامها على فريق من مستأجرى أرضـــه ، أن لمح لأول مرة سيدة باهرة الحسن تدخل المكتب وتطلب استشارة المحامى .

وكانت السيدة فى نحو الخامسة والثلاثين ، متحفظة متباعدة أنيقة ، ترتدى ثوبا أزرق مرصعا بورود كبيرة بيضاء ، يكسوه معطف أسود حليت أطرافه بالفراء .

وكانت ممتلئة البدن فى رخاوة ساحرة ، مديدة القامة فى عزة مهيبة ، ذات وجه أبيض مستدير ، وعينين سوداوين متوثبتين ، وصـــــدر ناهد عريض ، وشعر أشقر تتماوج أضواؤه على رأسها الشامخ الجميل .

راعته منها صورة خياله ممثلة فيها .

أحس وهو يلهث ويرتجف أنها ضالته المنشودة .

قارن بينها وبين الست جميلة ، فلم يستطع الا أن يسلم بأنها شيء آخر ، شيء رائع مهذب ، شيء ناعم مصقول ، تحفة عصرية بديعة الصنع نادرة المثال !

وطفق يبحث ويتحرى مستعينا بالمحامى صديقه ، حتى علم أنها من أسرة كريمة ، وأن والدها كان موظفا كبيرا ، وأنها تدعى « عواطف » هانم . وأنها أرملة مهندس مات فقيرا ، وأن أحد أشقائها طبيب معروف ، والثانى موظف ملحوظ المكانة ، والثالث من طلبة الجامعة ، وأنها ما جاءت مكتب المحامى الا لتقيم دعوى على شخص ينازعها ملكية جزء من قطعة أرض صغيرة خلفها لها زوجها .

وفرح عبد المقصود أفندى باسم « عواطف » وتفاءل به خيرا . وأخذته هزة كبرياء عند ما فكر فى أنه قد « يناسب » هذه الأسرة الكريمة ، وقد يتزوج هذه المرأة الفاتنة ، وقد يعيش مع هذه السيدة الانيقة العريقة التى لا وجه للشبه على الاطلاق بينها وبين الست جميلة ، المرأة البلدية الجاهلة المتأخرة بنت عمه الأمى الشيخ مبروك تاجر الغلال

وتاقت نفسه الى التخلص من ماضيه ، وتجديد شبابه ، واقتحام هذا العالم المبهم البراق الذى لا عهد له به ، فتردد على مكتب المحامى ، وتمكن من رؤية عواطف مرات ، وكان فى كل مرة يزداد اعجابا بها ، وشـــوقا اليها ، ورغبة فيها ، وخوفا غامضا منها .

ولما ضاق بأمله وصبره ذرعا ، تشجع وحزم امره ، وكاشف صديقه المحامى برغبته ، ثم كلفه أن يتصل بأسرة السيدة ويطلب له يد الهانم .

وظل ينتظر على أحر من الجمر نتيجة المسعى ، ويفكر فى الشقاء الذى لابد أن يحل به لو قوبل طلبه بالرفض ، ولكن عواطف هانم كان قد طال أمد ترملها ، وكانت تعيش عبئا على اخوتها ، وكان هو موظفا متواضعا ولكن ميسور الحال ، فأجابوه الى طلبه ، واشعروه لاول مرة بقيمته الاجتماعية ، فسر وازدهى ولم تسعه الدنيا .

وبعد أخذ ورد طويل ، اتفقوا على أن يكون المهر مائتى جنيه فنقدهم عبد المقصود افندى مقدم الصداق ، ودخل بعروسه فى حفلة شائقة أطربت فيها النساء « عالمة » مشهورة ، وشنف أسماع الرجال مطرب كبير .

وبدأت الحياة ..

بدأت الحياة ساكنة فاترة شبه ناعمة ، ولكن سرعان ما تسربت اليها نزعة التسلط وروح الخوف .

كانت عواطف هانم قد تزوجت لانه كان لابد لها أن تتزوج ، فلم تشعر من نحو زوجها الكهل الساذج البسيط بأى عطف او ميل .

ولم يكد يمضي على قرانهما أسبوع حتى استغربت كيف تزوجته ، وتولتها الحسرة ، وانتابها ذهول محنق اليم .

ومع ذلك حاولت أن تحتمله ، حاولت أن تحبه ، حاولت أن ترضي به على علاته ، ولكن بلادته كانت تغيظها ، ودردشته كانت تثيرها ، وأخلاقه القديمة كانت تضجرها،وعاداته البلدية كانت تخدش احساسها العصرى ، وتشيع فى نفسها ضربا من السخط المشوب بالاشمئزاز .

كانت تكره ردنجوته الابدى ، وسبحته الكهرمانية ، والسيجارة التى يلفها بيده ، والنكت التى لا تصدر عنه الا لتزيده هزءا ، وتجعل منه فى نظرها شبه مهرج أو مسخ .

كانت تكره عقله واحساسه ومظهره ، وكانت تجاهد كى لاتعاف قربه ودعابته وملمسه . ولما لم تجد اية سعادة معه ، ثأرت لنفسها بالغطرسة والترفع ومحاولة التسلط المطلق عليه .

اما عبد المقصود افندى فكان قد أصبح كتلة من الهلع والخوف تملكه خوف شديد على نفسه ، وخوف اشد على راحته ، وخوف أخطر على اخلاقه الثمينة وعاداته الغالية .

كان يحس تبرم زوجته فيعجب ، ويشعر باستيائها فيذهل ، ويلمس حنقها فيبهت ، ويتلقى ثورة غضـــبها فيرتعد فرقا ، ويحاور ويداور ، ويتجاوز ويصفح ، ثم يعتذر ويندم ليقر الطمأنينة فى نفســه والسلام فى البيت .

وكاد يلعن الزواج ، ويلعن أخته ، ويلعن الباب الذهبى ، ولكنه برغم سخطه كان يحب عواطف .. كان يحب عواطف بكل ما تجمع فى دمه من رجولة مكبوتة ، وبكل ما استيقظ فى نفسه من تلهف الكهولة وتحرقهــا والتذاذها العبودية للمرأة والعبودية للحب .

فتنته عواطف بمحاسنها ، سحرته بأناقتها ، غزته بدلالها الشامخ ، وكبرها البارد ، وهيبة قامتها ، وبياض بشرتها ، وشقرة شعرها ، فنسي المرحومة الست جميلة ولم يعد يأسف عليها ، وبات يجد متعــة جديدة عجيبة فى الطاعة والاستسلام والذل .

وأحست عواطف منه هذا الخضوع ، فازدادت خيلاء وعجبا ، وعظمت ثقتها بنفسها ، واشتد ايمانها بسلطانها ، وعولت أن تقتحم شــخصية زوجها ، وتروضها ، وتبدلها ، وتصبها آخر الامر فى القالب الذى تهوى .

وبدأت فأمرته بخلع الردنجوت ، والكف عن لف السجائر بيده ، فاعترض وتأبى ، فتمنعت عليه ، فهدر وزمجر ، ثم رضخ وأطاع .

ولما استوثقت من ضعفه ، استجمعت قواها ، وحملت عليه حملة هائلة شعواء .

رفضت بعزة واباء أن تليف له ظهره عند دخوله الحمام ، وأن تغسل تدميه عند عودته من الديوان . وكان يلبس الجلابية فى البيت، فأرغمته على ارتداء البيجامة . وكان يلبس الطربوش بلا خوصة ، فحرمت ذلك عليه أيضا . وكان يستعمل نظارة معدنية بيضاء ، فاضطرته أن يستبدل بها نظارة من الباغة الجميلة السوداء .

وكانت جواربه تتساقط وتبدو ثناياها من تحت بنطلونه الضـــيق القصير ، فأمرته بوضع حمالة للجوارب ، وتفصيل أثواب ذات بنطلونات فضفاضة على أحدث طراز .

وكان ينتعل حذاء غليظا برقبة من القماش المطاط ، يدس فيه قدميه دسا ، فنهته عن استعماله ، واجبرته على انتعال حذاء أنيق مكشوف .

وكان عند مايأكل تتهدل خيوط الملوخية على شاربيه ، وتظل «الدمعة» عالقة بشفتيه ، وتتملص قطع اللحم من بين أصابعه ، فعلمته كيف يستخدم الملعقة والشوكة والسكين ، وكيف يأكل فى هدوء وحذر ، وكيف يطبق فكيه على الطعام فلا يحدث صوتا كريها فى أثناء المضغ .

وحرمت عليه فوق ذلك أن يتجشأ خلال الطعام ، وأن يشرب من القلة ، وأن يمص الماء مصا ، وأن يتمخط فى المناديل المحلاوى المخططة الكبيرة ، وأن يبصق على الارض أو من النافذة ، وأن يتلهى ، وهو جالس فى البيت ، باللعب بأصابع قدميه العاريتين .

وراضته على حلاقة ذقنه كل صباح ، وتسريح شعره وتصفيفه ، وتنظيف أسنانه بالفرشاة والمعجون ، والاعتناء بعقد ربطة عنقه كى يبدو موفور الاناقة ، كامل الهندام .

وكان عبد المقصود أفندى يقاوم فى بعض الاحيان ويثور ، ولكن حبه لامرأته كان يطوعه ، وميله الى كسب احترامها كان يخضعه ، وشدة اهتمامها به كانت ترضي كبرياءه وتلطف من احساسه بالاهانة والذل .

على أنه عند ماخرج لاول مرة فى زيه الجديد ، كان خجلا من نفسه ، متبرما بحمله ، مستغربا أمره ، يحس كأنما هو قد تنكر وتشوه ، وكأن جميع الابصار تصوب اليه . فكان يتنكب الشوارع العامة ، ويضرب فى الطرقات الضيقة ، ويتوارى ما استطاع عن أعين الناس .

ولم يلبث أن استمرأ الوجاهة ، وألف الاناقة ، فانقلب ارتباكه على مر الزمن الى ثبات ، وقلقه الى اتزان ، وحياؤه الى جراة بل الى تحد . فكان يصعر خديه كبرا واعتزازا ، ويسخر من كل من يصادفه ، ويضحك من اضطرابه ، ويجد لذة عميقة غريبة فى الاندماج فى دوره الجديد واتقان تمثيله الى أبعد حد مستطاع ..

وانتقلت به عواطف هانم من منزلهما بحى السيدة الى عمارة فخمة جديدة بحى الذوات فى الزمالك .

وشرع يخرج فى صحبتها الى المسرح والسينما ، ويغشي برفقتها المجتمع الراقى ، ويدخل معها صالونات صديقاتها ، ويتعرف الى الهوانم العصريات الجميلات الثريات .

وبدأ يرتاد أماكن اللهو الممتازة ويتردد على المقاهى الكبيرة ، ويمرح فى شارع فؤاد وعماد الدين وسليمان باشا ، سعيدا بجو الاناقة والنظافة المحيط به ، منتشيا برؤية الجرسونات يتهافتون علىخدمته ، ممتعا أبصاره بالتفرج على أسراب الغادات الأجنبيات ذوات الشعور الذهبية والبشرة الناصعة البياض .

وكان فى أثناء تطوره الطويل ، يستيقظ شيئا فشيئا كطفل يكتشف العالم يوما بعد يوم .

كان يتهيب كل جديد ، ثم لايكاد يألفه حتى يستأنس به ، ويرحب بغيره ، ويهلل ، مخفيا نشوته العميقة وفرحه العظيم .

كان خائفا ولكنه كان مع ذلك مطمئنا ، كان مذهولا ولكنه كان مع ذلك سعيدا .

وكما ساقه حبه الشديد لامرأته ، الى الطاعة والتسليم والاحتمال كذلك ولد فيه الحب نفسه رغبة فى التحول ، وميلا الى التطور ، ونزوعا قويا مفاجئا الى النظر والمعرفة والادراك .

وتحرك ذكاؤه وتنبه ، وخرج متثاقلا متباطئا من ظلمة كيانه الساذج الفطرى .

وتحت وهج حبه ، استفاق على مر الأيام عقله ، وبدأت تتفتح مغاليق ذهنه ، وأخذت تنجاب عنه تلك السحب الثقيلة ، سحب البلادة الخانقة التى كانت تباعد بينه وبين العالم .

وبعد أن كان لايهتم الا بنفسه فقط ، ولا يحفل الا بشخصه فقط ، بدأ ينظر الى سواه ، ويفطن لوجود غيره ، ويتأمل ويتفرس فى كل ما تقع عليه عيناه .

وسحرته هذه العلاقة الجديدة التى قامت بينه وبين الدنيا . فاستحوذ عليه الفضول ، وملكه حب الاستطلاع ، فكان لا يقر له قرار حتى يحاول أن يستبطن كل شيء بنفسه ، ويحاول أن يعالج كل مسألة بصبره ، ويحاول أن يتغلغل فى كل أمر وينفذ اليه حتى الصميم .

ومن مخلوق لزج دهنى ثقيل ، استحال عبد المقصود أفندى ، على مضي الزمن ، الى انسان متوثب ذكى خفيف .

أشرق فكره ، وتطلق طبعه ، وتجددت نضـــارته ، واخفت الاثواب العصرية كرشه ، واضفت عليه حلة من اناقة وشباب وجمال .

وذهب به الفضول الى أبعد مما كانت تقدر عواطف هانم ، ولانه كان يجهل كل شيء فقد تطلع فى نهم الى معرفة كل شيء ، أراد ان يفهم على وجه التحقيق ما هذا التمدين الذى فرضته عليه زوجته فرضا ، وما هذا المجتمع العصرى الذى كلفت به امرأته الى حد الجنون ، فطفق ينظر ويلاحظ ، ويبحث وينقب ، ويفكر ويقـــرأ ، ويقارن ويفاضــــــل ، ويتأمل ويدرس .

تأمل الحياة العصرية وكيف تجرى فى عالمه الجديد ، فى العمارات العظيمة الشاهقة ، فى الشوارع الساحرة الزاخرة ، فى الملاهى الفاتنة العامرة ، وقارن بينها وبين الحياة التى كان يعيشها بالأمس فى حى السيدة . وكان بسيط القلب والروح فرأى الأشياء على حقيقتها ، وبدا له الفارق العظيم بين العالمين .

أجل ، هناك ، هناك فى حى السيدة ، تنساب الحياة انسيابا ، وهنا يعيش الانسان فى شبه حمى .

هناك تنقضي الحياة فى ضباب حلم دائم ، ناعمــــــة فاترة بليدة ، لاتحفل بقانون الزمن . وهنـــا تعين الجهود ، وتحدد المواقيت ، وتقطع الأزمنة ، ويحرص المرء على انتهاب كل دقيقة من عمره كما لو كان موقنا بأنه سيموت فى الغد .

هناك يرقد العقل ، وتهجع الأعصــــــاب ، ولا يعيش غير بعض الحواس . وهنا يجن العقل ، وتختبل الأعصاب . وتضطرم الحواس ، وتدب النار فى الانسان برمته .

هناك اغراء الراحة والحلم ، وهنا اغراء السعى والطمع .

هناك اغراء الكسل وعدم الاكتراث ، وهنا اغراء الحركة والتمتع .

هناك يقنع الانسان بأى شيء ، وهنا لا يمكنه أن يقنع أبدا بشيء .

ومضي عبد المقصود افندى يتأمل أيضا فيما يرى ، يتأمل حياة هذه الطبقة المترفة التى أصبح يغشي مجتمعاتها برفقة امراته ، فرأى اشياء جديدة ، اشياء غريبة ، اشياء استهوته واستنكرها وهزت فؤاده من الأعماق .

راى الهوانم المتمدينات المصقولات الرائعات ، صديقات إمرأته يعشن خاملات عاطلات قاسيات الأفئدة ، غليظات الأكباد ، أنانيات متكبرات متغطرسات ، عرائس مجلوة لاقلب لها ولا حواس ، يخشعن أمام المودة ويقدسن الترف ، ويعبدن المال ، ويتهالكن على أطايب الطعام ، ويحتقرن الفقير ، ويخشين الأمومة ، ويكرهن الفكر ، وتتقضي حياتهن فى حفلات وولائم وزيارات ، يغتاب فيهـــا بعضهن البعض وتمج أفواههن العذبة الجميلة السم الزعاف .

وراى الرجال أزواجهن ، أشباه رجال مســلوبى الارادة ، مخنثين طيعين ، تستبد بهم الرذائل نفسها ، ويلذ لهم أن تحركهم نساؤهم كالدمى وتبتز أموالهم وتعتصرهم كالأبقار !

وتنبه عبد المقصود أفندى واستفاق . استفاق تماما . وأدرك أن بيجامته الحريرية الناعمـــــة ، وبدلته العصرية الأنيقة ، وربطة عنقه المشوقة ، ونظارته الوجيهة السوداء ، وحذاءه اللامع المكشوف ، وحمالة جواربه المشـــــدودة ، وجلسته المهيبة الى المائدة وهو يتناول الطعام بالشوكة والسكين ، كل ذلك قشور ، قشور جميلة ولطيفة ، قشور لابد من توافرها ، ولكن متى انتفى منها اللباب ، متى فقدت هدوء النفس ، وراحة الضمير ، واعتدال الرغبات ، وسمو الخلق ، وروعة الفضيلة ، وشعلة الفكر والروح ، تصبح ألاعيب قردة وشعوذة مهرجين .

وعندما جال ببصره الثاقب الى زوجته ، الى عواطف هانم ، الى المرأة التى أرادت أن تهذبه وتمدينه ، تبين له والأسي يملأ قلبه . انهـــا تشبه صديقاتها الهوانم شبها مثيرا منكرا لم يفطن اليه من قبل .

هى أيضا متغطرسة متكبرة قاسية لا تعرف الرحمة .

هى أيضا واشية نمامة لا تصون للغير حرمة .

هى أيضا مبذرة متلاف لا تقدر قيمة النعمة .

هى أيضا خاملة تكره الفكر وحياته الرحبة .

لم تهتم قط بأية مسألة خطيرة عامة ، ولم يرها يوما تقرأ فى كتاب ، التبرج غايتها ، والتمتع قبلتها ، ومحاكاة الهوانم الثريات هدفهـــا الأول والأخير .

رأى فى امراته كل هذا ، واماط عن جوهر نفسها النقاب ، وانطلق خياله يمعن فيها طعنا وتجريحا بالسلاح الذى هدته اليه وسلمته اياه .

ولكنه كان يطعن لأنه كان يحب ، وكان يمعن فى الطعن ، لانه كان يخشي أن يحتقر ويكره .

وبدل أن يفضي به الاستنكار والسخط الى تقلص حبه ، ضاعف امعانه فى الطعن والتجريحقوة هذا الحب ، وزادته المرارة والحسرة عنفا واضطراما .

وكانت عواطف هانم قد أصبحت معجبة به ، فخورا بتحوله ، مباهية بانقلابه . بيد أنها كانت معجبة بمظهره الوجيه فقط ، وفخورا بنفسها أكثر مما كانت فخورا بما استطاع هو أن يحققه لنفسه بنفسه .

كانت مزهوة بسلطانها الذى بدل الرجل وغيره ، وصاغ حياته كلها من جديد . ولأن لذة السلطان والنصر كانت قد تمكنت منها ، فقد طغى عليها شعور بالتفوق حال بينها وبين أن تفهم حقا زوجها ، وأن تعجب حقا به ، وأن تدع اعجابها يلطف منحدة كبريائها ، ويتطور بها شيئا فشيئا وينتهى الى عطف وميل وحب .

أجل . لقد أصبح عبد المقصود أفندى كما شاءت امراته ، واكثر ولكنها مع ذلك لم تحبه ! .. لم يفز بقلبها وان كان قد فاز مظهره باعجابها . لم يظفر بعطفها الغالى وحبها المنشود ، لأنها كانت دائما هى القوية ، ودائما هى المسيطرة ، وكان دائما هو الخاضع . ودائما هو الضعيف ، برغم جهاده وتحوله وتجدده !

واستحوذت عليه هذه الفكرة ، وأمضه احساس الهوان ، وكبر عليه أن يكافح ويناضل ، ويتطور ويرقى ، ليبقى آخر الأمر مستضعفا جامدا فاشلا حيث هو . فثارت نفسه ، وثارت كرامته ، وأزكت فيه خيبة الأمل وكبرياء العقل وعزة التجدد شعلة الحب والرجولة والعزم ، فأبى الا أن يتسلط بدوره ، ويفرض ارادته . ويؤكد سلطانه ، ويحاول ، متوسلا بحبه وذكائه وحكمته وأدبه ، أن يبدل شخصية امراته ، ويهذب اخلاقها ، ويلطف ميولها ، ويصقل غرائزها ، ويستكمل فيها نقص أترابها ليربح آخر الأمر حبها ، ويبدع منها الزوجة الرشيدة الفاضلة الكاملة ، الخليقة بحبه ، الجدير بالنهوض الى المستوى النفسي الرفيع الذى وصل اليه .

ولبث يتحين الفرص وقد شاعت فى نفسه جراة لا عهد له بها .

وفى عصر يوم من الأيام ، استفاق من نومه مذعورا على صوت جدل محتدم يشوبه صراخ ، فأنصت قليلا ، واذا به يسمع امرأته تنهر الخياطة وتوسعها زجرا وتأنيبا لانهـــا جاءت تلح فى طلب أجرة تفصيل فستانين تأخرت عواطف هانم فى دفعها شهرا كاملا .

وكان صوت الخياطة المتهدج يشف عن لوعة صادقة . وكانت تلتمس وتتوسل وهى تكاد تبكى ، وتقسم أنها فتاة مسكينة يتيمة الأبوين تعول ثلاث أخوات احداهن مصابة بمرض عضـــال فى حاجة دائمـــة الى طبيب ودواء .

وكانت عواطف هانم وقد أثار كبرياءها الحاح الفتاة ، تهم بطردها دون رحمة . فنهض عبد المقصود أفندى من فراشه ، وأسرع فأخذ بضع أوراق مالية من حافظة نقوده ، وخرج الى البهو الـــكبير ، وهو مكفهر السحنة مقطب الجبين .

ولم تكد تبصره الفتاة حتى لاذت به متوسلة . ولكنه لم ينظر اليها ولم يخاطبها ، بل دس فى يدها الأوراق المالية ودفعها فى رفق نحو الباب فامتقع وجه عواطف هانم ، وتمهلت قليلا حتى اختفت الفتاة ، ثم صاحت وقد انفجر غضبها :

ــ كيف تهيننى على هذه الصورة ؟ أى دخل لك فى شئونى ؟ ــ قلت انى لن أعطيها اليوم شيئا ، وكان يجب ألا تأخذ اليوم شيئا .

فرفع اليها عبد المقصود أفنـــدى بصره الصارم ، ثم تمالك نفسه وقال فى هدوء :

ــ أليس هذا حقها ؟

فرمت عواطف هانم برأسها الى الوراء ، وأجابت وقد اهتزت جدائل شعرها اللامع .

ــ أنا لم أقل انى سآكل حقها .

فابتسم عبد المقصود أفندى وقال : اذن كان يجب أن تدفعى !

فضربت الأرض بقدمها وقالت : كنت أريد أن أربيها .

فتفرس فيها مستغربا وقال : وماذا فعلت ؟ هل سرقت ؟ هل طلبت

اكثر من حقها ؟ لقد اتفقتما امامى على اجرة الفستانين ، ولقد اعطيتك المبلغ ، ولعلك تذكرين ، فأين ذهب ؟

فارتبكت لحظة واحمر وجهها ، ثم هزت منكبيها غير مكترثة ، واجابت وهى تنطرح على مقعد :

— رأيت زينب هانم حرم محمود بك تلبس فستانا من « الكريب جورجيت » الأزرق ، فأعجبنى ، فابتمت بالمبلغ قطعة من القماش نفسه .

فجلس عبد المقصود افندى على مقعد تجاهها ، وتناول يدها بين يديه ، وقال معاتبا وهو يتأملها : وهل أنت ياعواطف فى مستوى زينب هانم ؟ ...

وتبدل صوته فجأة وأردف وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجد :

— على انى لا أعتقد أن سيدة مثل زينب هانم تماطل فى دفع حقوق الناس .

فقهقهت عواطف قهقهة مدوية وقالت .

— هى ؟ وماذا تعرف أنت عنها ؟ أنها لاتماطل . بالتأكيد ، لاتماطل أبدا فى دفع الحقوق ، ولكنها تأكلها أكلا .ولو استطاعت لأكلت مال النبى ، لقد طردت السفرجى وأكلت عليه عشرة أيام لأنه كسر لها طبقين . فهل أنا فعلت مثلها ؟ ..

فهز عبد المقصود افندى رأسه وقال : هو ذاك . يجب أن تكونى دائما أفضل منها .

فصاحت معتدة بنفسها : ولكنى لا أسمح أبدا بأن ترفع مثل تلك الفتاة الصوت فى وجهى وتسجل على سوء النية فى حين أنى سأدفع .

فقال عبد المقصود افندى بلهجة جافية : الفقير لايستطيع أن ينتظر .

فعاجلته بقولها : بل يجب أن ينتظر ، ويشكرنا أيضا نحن الأسياد ، لأننا نحسن اليه ونعطيه عملا ..

فقال مستنكرا وقد روعته قسوتها : ولكنك فى حاجة الى عمل الفقير ، ولا يمكن أن تكونى متفضلة عليه حتى لو عاملته كانسان كان يجب أن تدفعى وفى الموعد المحدود أيضا .

واردف بصوت قاطع : هذه هى الأصول !

فبهتت لهذه اللهجة التى لم تالفها ، وحملقت فى زوجها لحظة ، ثم وثبت من مقعدها ، وارسلت ضحكة كبيرة رنانة ساخرة ، وقالت وهى تتخلع ويداها على خاصرتيها : اصول ؟ اى اصول ياسي عبده ؟ أنت تريد اليوم ان تعلمنى الأصول ؟ .. انا ؟ ..

ولم تمهله ، بل رشقته توا بالمثل العامى وهى تتمايل وتتثنى : « قال من امتى طلعت القصر قال من امبارح العصر » .

ومضت تضحك فى غل ، وتضرب كفا على كف وتردد : يعلمنى الأصول ؟ .. هو ؟ يعلمنى الأصول ؟ والله طيب يا زمن .

فثبت عبد المقصود أفندى أمامها ، وأغضي عن سخرياتها .

وقال متعاليا متأبيا ، مؤكدا سلطانه لأول مَرة فى نبرة حاسمة آمرة :

ـــ عواطف هانم ، أنا لا أحب أبدا أن أسمعك تتكلمين بمثل هذه اللهجة !

فحدقت اليه وفغرت فاها كبلهاء ، ثم لوحت بيديها ذاهلة متعجبة ثم ابتسمت وعادت تضحك ، ثم اربد وجهها ، وتقلصت تقاطيعه ، وقالت وهى تهدر : هل هو درس تلقيه على ؟ .

فأجاب : وما المانع ؟

فصرت على أسنانها وقالت مستكبرة وهى تصعد فيه بصرها فى حنق وازدراء :

ـــ أظنك قد نسيت انك مدين لى بكل شيء ، وانى انا ، أنا التى علمتك ونظفتك ومدينتك ، يا عبد المقصود أفندى . استغر الله يا عبد المقصود بك .

فحنى راسه أمامها فى احترام ، وقال فى رقة بالغة :

ـــ وهل يمكن أن أنسي فضلك يا عواطف هانم ؟

ودنا منها ، وانحنى عليها ، واوشك أن يطوقها بذراعه ، وهمس فى اذنها متوددا متلطفا كمن يستعطف ويرجو :

ـــ انت أردت ان اكون رجلا متمدينا كريم الأخلاق ، فكيف تلومينني اليوم لاستمساكى بمسائل تتعلق بصميم الأخلاق ؟

فدفعته عنها ، وصاحت فى رعونة ساذجة يشوبها دهاء عجيب :

ـــ أخلاقى أشرف أخلاق ، وسلوكى أحسن سلوك ، ولا عيب فى على الاطلاق .. هل تستطيع أن تقول انى ارتكبت عملا شائنا ؟ هل نظرت الى سواك ؟ هل كنت متزوجا فاختطفتك من امرأتك ؟ هكـــذا أنتم معشر الرجال ، لا أمان لكم ، لا امان لكم بالمرة ، ولا سيما أنت ، أنت الـــذى كنت بالأمس تعرف قدرى وتعتز بزواجك منى ، وتفخر أمام الناس بى .

وتحشرج صوتها كأنها على وشك أن تبكى ، فانتهز عبـــد المقصود أفندى هذه الفرصة ، واندفع نحوها ، وطوقها بذراعه ، وضمهـــا الى صدره فى عطف عميق وقال متدفقا وهو يهدهدها ويصب فى أذنها أمن روحه ، وصفوة قلبه ، وعصارة فكره وتصوره وهواه :

ـــ أريد أن أفخر بك أكثر وأكثر يا عواطف ، يجب ، يجب أن تغيرى بعض أخلاقك من أجلى ، من أجل سعادتنا ، فى وسعك أن تجربى ، أن تحاولى . لا تغضبى منى . اسمعى . كبرياؤك مثـــلا تسيء الى جمالك وتجردك من سحر انوثتك ، تشبهك بمن هن أغنى منك يتعبك ويتعبنى ، ويجعلك تعتقدين على الدوام أنك تعسة فى زواجك ، اهتمامك الشديد بالزينة والمظاهر يجعلك تحتقرين العواطف وتتعلقين فقـــــط بالماديات ، لا تنظرى الى هكذا ، لقـــد رأيت بعينك ، رأيت كيف أن الفستان الجديد الذى اشتريته ولم تكونى فى حاجة اليه قد خنق ضميرك وانتزع منـــك عاطفة الواجب وقتل فى صدرك احساس الرحمة !. .لا لا . ياعواطف .. انت لم تشعرى بأى الم نحو تلك الفتاة المسكينة . ولقد بت لا تشعرين بآلام اى كان حتى أقرب الناس اليك .. فكيف لا أتعذب عند ما أراك على هذه الصورة ؟ كيف لا اتعذب عندما أراك ملكا لأهواء ونزعات غريبة عنى ؟ ولكن اين انت ؟ وهل انا أصبحت أراك ؟ هل أنت لى ؟ هل فى مقدورى الجلوس اليك والتمتع بقربك ولو ساعة واحدة ؟ لقـــد أصبحت كأختك الصغيرة عطيات . أصبحت مثلها تماما اشبه بنحلة مفتونة لا يمكن ترويها جميع الأزهار ، دائما مشغولة ، دائما حائرة ، دائما منهمكـــة ، زيارات . ملاه ، سينما ، تياترو ، حفلات ، ولائم ، متى ؟ متى جلسنا الواحد منا الى الآخر كزوجين سعيدين ؟ متى ســــــهرنا معا فى بيتنا كالفين متحابين ؟ ، متى كنت فرحةمبتهجة معى كما أراك فرحة مبتهجةفى سهراتنا

عند النـــاس ؟ ، الحقيقة يا عواطف أنك لا تحبين بيتك ولا زوجك ، أنت تحبين الدنيا ، دنيا المرح ، دنيا الحركة واللهو .. تريدين أن تشربيها ، أن تلتهميها ، أن تفنى فيها ، ومع ذلك يا حبيبتى فهذه الدنيا لانهاية لها ، وهذا البحر لا حد له ، وأنت برغم هذا كله امرأة ذكية ونبيلة ومن عنصر طيب وفى وسعك أن تراجعى نفسك ، أن تفكرى ، أن تجربى ، أن تحاولى تبديل أخلاقك ولو بعض الشيء ، من أجلى ، لا ، بل من أجل راحتك أنت ومن أجل سعادتك !

وهفت بأعصابه نشوة كلماته وعواطفه ، فهم بتقبيلها . ولكنه لم يكد يحاول ، حتى راغت منه ، وانفجر غيظها المكظوم فى قهقهة مجلجلة أخزاه وروعه ما تبين فيهـــا من عبث صريح ، ومجون وقح ، وهزء ملؤه العجرفة والتحدى :

ــ يا روحى ، يا روحى ، ما كل هذه الفلسفة وهذا الشعر ؟ . أين كنت مخبئا كل هذا يا سي عبده ؟ كمان ، الله يا سيدى ، كمان كمان !

تجمد فى مكانه وظل شاخصا اليها وهى تقهقه وتؤرجح فى عزة وملاحة رأسها الشامخ فوق بدنها المديد وتقول :

ــ لا ياحبيبى ، أنا لا أستطيع أن أعيش كمـــا كانت تعيش الست جميلة ، لا أستطيع أن أغير لا أخلاقى ولا حياتى ، ولقـــــد غيرتك لتكون مثلى ، لا لأصبح أنا مثلك ..

وكفت عن الضحك بغتة ثم قالت بعد فترة وهى تتفحصه : ــ أواثق أنت أن حبك لى لن يزول اذا ما تغيرت ؟ .

فهتف : هو حبى الذى يطلب اليك أن تتغيرى ! .

فقالت : ولكنك أحببتنى لانى أنا ، أنا عواطف ، فلو تغـــيرت فمن يضمن لى أنك تثبت على هـــذا الحب ؟ قد تزهد فى وتســـأمنى لا ، ان شخصيتى الراهنة هى التى اجتذبتك ، ولن أكون حمقاء فأبدلها بعد أن لمست قوتها فيك !

فحاول أن يصيح ، أن يصرخ ، أن يعترض ، ولكنها ردته باشـــارة كاسرة ، وقالت :

ــ لن أغير لا أخلاقى ولا حياتى !

ووقفت تجاهه منصوبة القامة ، مرفوعة الرأس ، ثابتة النظــرة ،

وزايلتها خفتها ، وشملتها مظاهر التحفظ القديم ، وسكب عليهـا الجد والعناد سحرا مقلقا غريبا ، فبدت فى تلك اللحظة عظيمة وفاتنة ، فاتنة بجلال مظهرها ، فاتنة بقامتها المديدة ، فاتنة بصدرها الناهد ، ورأسها الشامخ ، وكيانها الـذى انسجم فى امتلائه الرائع مع تلك العظمـة وذلك الجلال .

فتأملها عبد المقصود أفندى ، واضطرب حبه فى صدره ، وجاش واصطخب وعلا ، ولكن هذا الحب نفسه قوى عزيمته ، وثبت جنانه ، وحمله على تياره ، ومده بالقوة نفسها والعناد نفسه والتحدى نفسه ،فخطا نحو امرأته وقال فى صوت غائر أجش باتر النبرات :

ــ عواطف . سنبدأ منذ الغد حياة جديدة . سننتقل غدا صباحا الى بيتنا فى حى السيدة !

فحملقت فيه مذهولة ولم تصدق سمعهـا ، ثم صرخت على الفور : لن أذهب !

فقال فى هدوء : ستذهبين !

فأمسكت بذراعه ، وواجهت عينيه ، وقالت وهى ترتعد من فرعها الى قدمها :

ــ لو خرجت من هنا فلن أذهب الا الى بيت أخى !

فألقى عليها عبد المقصود أفندى نظرة ، ثم هز كتفيه وقال : انت وشأنك .

واستدار وخرج من الغرفة .

واجتازت الشارع سيارة نقل كبيرة محملة بالأحجار فارتجت النوافذ واهتزت جدران المنزل ، فأجفل عبـد المقصود افندى وأفاق من سباته التأملى الطويل ، وأجال الطرف فيما يكتنفه ، فألفى البيت سـاكنا موحشا كعهده به منذ ايام ، والفى نفسه فريسة القلق والحيرة تنهشه الوحدة ويفرى قلبه عذاب الانتظار ...

وأحاطت به افكاره وهواجسه ، فخيل اليه أن سكون البيت يزفر من حوله ، وأن فراغ الصمت يزخر ويموج ، وأن طنين الليل قد اشتد

على غير عادة ، وأن الظلمة المنتشرة فى جوانب الدار قد احلولكت فجأة وامتلأ جوفها بالخيالات والأشباح .

وارتمى فى جوف هذه الظلمة دون خوف ، وغيب نفسه فيها وراح يطوف بغرف البيت ، مستطردا تأمله ، متحدثا الى أفكاره ، مخاطبا هواجسه ، يحاول ان يملأ البيت بشخصه ، وأن يروض عقله وأعصابه على احتمال الوحدة الغادرة فلا يستطيع .

وبالرغم منه امتدت يده الى زر النجفة الكبيرة وضغطت ، فانبثق البيت كله يرفل فى حلة من نور . فمد الرجل بصره الزائغ الى مخدع النوم ، واندفق الدم الى قلبه ولم يجسر على الدخول .

رأى الحجرة هادئة منظمة كما تركتها عواطف آخر مرة ورأى الفراش نضرا مرتبا كما نسقته يداها . ولمح صورة لها مثبتة فى الحائط ، وبعض أثوابها معلقا على المشجب ، ومرآتها الكبيرة تسطع فوق خوان زينتها ، وينصب عليها وهج النور انصبابا ، فيعكس أمامه طيفها ، ويلقى فى روعه أنها هنا جالسة هنا ، وانه يبصرها .. وانها على وشك أن تلتفت اليه ، وتبتسم له ، وتدعوه للخروج معا !

وأحس أن هبة حارة تأخذ بمخنقه . وأن الدموع تكاد تطفر من عينيه، فأطفأ النور ، وأسرع ففتح احدى النوافذ ، وأطل منها ، وتنفس ملء رئتيه .

ولاح له عن بعد فى ضباب الليل المرصع بزهرات كبيرة من الأضواء المتألقة المتباعدة ، صالون الاسطى حسنين الحلاق حيث كان يتجمل ويتعطر ويلتقى بصفوة أهل الحى ، والقهوة البلدية حيث كان يقبع هانئا ويترشف الشاى أو الزنجبيل أو القرفة يطفو عليها البندق المحمص الشهى ، وحانوت المعلم أحمد الشربتلى حيث كان يجلس على رأس الشارع يرقب المارة ويستمتع بلذة كسله الفاتر الثمين .

وتجلى له عالمه الوادع الاصيل ، وغمره سكونه الحالم ، وهدوءه الشارد ، ومرحه الساذج ، وبلادته المستعصية ، وعدم اكتراثه العميق ، فتأثر ولكنه لم يتحسر . أخذ ولكنه لم يعجب . ارتاح ولكنه لم يستقر ، لا ، لم يشعر بأية رغبة فى العودة الى هذا العالم ، بل استبد به فقط شوق طارىء وحنين ، حنين الى زوجته الاولى ، الى الست جميلة ، الى المراة التى تزوجها هنا ، وأحبته هنا ، وفهمته وقدرته وأطاعته ، وملأت البيت حوله راحة وبهجة ونعيما .

ولم يكد يذكرها حتى اكتوى قلبه بالنار ، النار الآكلة التى أضرمتها الاخرى ، نار الحب ونار العقل ونار المذلة ، خمسة عشر يوما وهو ينتظرها ، لم تحفل به ، لم تأبه له ، لم تكترث لعذابه ، وخلفته وحيدا مشردا منبوذا ، يلعق همه ، ويمضغ ذله ويتغذى من الامل الطائش كما يتغذى المريض من وقدة الحمى .

وأهاجته صور السعادة تبدعها نفس امرأة جاهلة ، فى حين كان الاخلق والاجدر أن يفيض بها عقل امرأة متعلمة .

وأثاره وخبله أنه عجز عن تحقيق هذا الحلم ، واستحوذت عليه هذه الفكرة كما لم تستحوذ عليه قط ، وزادها طول انتظاره ونفاد صبره ولوعة رجولته تمكنا وتأثيرا ، فأحس أن لاقبل له باحتمال أكثر مما احتمل ، وأن العار بات يجلله ، والمذلة تبريه ، والاحتقار يكاد يقتله ، فأغلق النافذة فى عنف واعتزم ، اعتزم كعادته أن يبتر ، أن يقطع ، أن ينتهى ، ولكنه تريث أيضا كعادته ، تريث وراح يفكر ويتخيل ويداعب الامل نفسه .

وفجأة ، وعلى دهش منه ، تمثل له الباب ، الباب العظيم ، الباب الذهبى ، وقد أوصد فجأة فى وجهه واستحال الى شبه جدار هائل موئس عنيد ، احس أنه لن يستطيع اختراقه مهما حاول ، فضاق صدره وشل فكره ، واحتوته مع ذلك ارادة طارئة عاتية ، فانطلق الى حجرته وارتدى على عجل ثيابه ، وخرج .

وكانت الساعة نحو الثامنة مساء ، والجو باردا ، والشتاء فى مستهله ، والمطر قد بدأ يتساقط رذاذا متقطعا مضجرا ، فحث عبد المقصود افندى خطاه ، واجتاز العطفة الضيقة ، ويمم وجهه شطر بيت المأذون ، وقد انتوى هذه المرة أن يتنفس ، أن يتخلص ، أن يطلقها ويستريح . بيد انه ما كاد يتوغل فى العطفة المظلمة ، حتى استشعر ما ستكون عليه حياته ، فهلع قلبه ، وتخاذلت ساقاه ، وناءت عليه دفعة واحدة وطأة الموت اليومى الذى سيقضي به على نفسه ، فتوقف لحظة وعاد يفكر.

وكما يحدث فى بعض الاحيان أن يذهب الانسان فجأة من أقصي القوة الى اقصي الضعف ، كى يذهب فى الواقع من أقصي الضعف الى أقصي القوة ، ومن اقصي البغض الى أقصي الحب ، ومن أقصي الذل الى اقصي الكبرياء ، فقد تراجع عبد المقصود أفندى ، وأراد أن يكون متسامحا ، أن يكون نبيلا ، أن يكون عظيما ، وأن يبرىء ذمته ويرضي ضميره ويذهب

بنفسه الى امرأته ، ويمنحها فرصة أخرى ، ولو عد الناس هذا التصرف منه نزولا عن كرامته ورجولته .

وملكته هذه الفكرة ، وأشعرته بضرب من التفوق ، فكر راجعا واستقل سيارة انطلقت به الى حى (جاردن سيتى) حيث كان يسكن الدكتور فهيم بك شقيق امرأته الاكبر .

وتغلغلت السيارة فى شوارع ضيقة معتمة ، ثم مرقت منها مروق السهم ، ثم مرت متهادية فى الشوارع الكبيرة ، فى الشوارع المتلألئة الساحرة ، فى عالمه الجديد ، فى عالم الجمال الباهر ، والحركة المطردة ، والانانية المروعة ، واللهو المجنون ، فزفر عبد المقصود أفندى زفرة حرى ، واستبد به حنين أعمق وأشد ، وتمنى لو ارتدت اليه امرأته ، لو فهمته ، لو أدركت أنه هو نفسه يحب هذا العالم العصرى حبا طاغيا ، يحبه بقدر مايكرهه ، وأنه لم يشأ أن يحرمها الحياة فيه ، الا ليعود بها يوما اليه ، ولكن يعود محتفظا براحته ، ضنينا بحبه ، حريصا على شعلة قلبه وروحه وانسانيته ..

وعول أن يقول لها كل هذا ، أن يصارحها الآن به ، أن يستعطفها ويستميلها ويترضاها ويرجع بها الليلة ، بل الساعة ، لو تعقلت ، الى الحى الذى ألفته والبيت الوجيه الذى اعتادت أن تعيش فيه .

وترجل من السيارة ، ولم يستخدم المصعد ، وارتقى الدرج مسرعا وهو يلهث .

وما ان بلغ الطابق الثانى وأشرف على البيت ، حتى طرقت مسمعه أنغام موسيقية حادة ، وضحكات رنانة ، وجلبة وصخب وضوضاء . فاضطرب وبهت ثم تشجع وطرق الباب ، ففتح له الخادم مبتسما ، فاستفسر عن الامر ، فأنهى اليه أنهم يحتفلون بعيد ميلاد السيدة الصغيرة عطيات هانم ، ثم أفسح له طرف (البارافان) قليلا ودعاه للدخول .

فوجم عبد المقصود أفندى وحز فى صدره أنهم أهملوه ، كبر عليه أن يدخل ، وعز عليه أن يرحل ، ولبث واقفا ينتظر كالدخيل المحروم .

وعلى حين فجأة دوت فى الجو نغمة جديدة أرسلها الحاكى ، واشتدت الجلبة والضوضاء فحانت من عبد المقصود أفندى التفاتة ، فأبصر فى مثل لمح البرق ، أبصر من خصاص البارافان ، زوجته ، زوجته نفسها ، تلوح فى الغرفة المواجهة ثم تبرز فى ثوب السهرة المكشوف ، متألقة

العينين ، مضطرمة الوجنتين ، محمومة البدن ، تضحك وتقهقه وهى فى احضان شاب وسيم ، يحملها بين ذراعيه نصف عارية ، ويدور بها فى شبه اعصار ، ويلقى بها فى حلبة الرقص بين تصفيق المعجبين وهتاف الهاتفين .

ما ان رأى عبد المقصود أفندى هذا المنظر ، ما ان لمس اندفاع امرأته المتأصل الوحشي فى غمرة اللهو ، وتهالكها الجبار على التمتع ، وقدرتها على أن تهزأ بكل شيء ، وتنسي كل شيء ، وتبدو فى مثل هذه السعادة الشاملة الغامرة وهو بعيد عنها يتألم ويجأر حتى أحس قلبه يتمزق ، وكيانه كله ينخلع ويسحق سحقا ، فاستجمع قواه ، ولم يلق الى الخادم بكلمة ، بل استدار ، وهبط الدرج وثبا ، واستقل سيارة أخرى ، ثم قصد من فوره الي بيت المأذون ، وهناك أمام شاهدين من أهل الحى ، طلق امرأته ، طلق عواطف ، طلقها بعد ثلاثة أعوام من زواجه طلاقا باتا قاطعا لارجوع فيه !

ولما أتم كل شيء وخرج ، بكى ، بكى طويلا ، ولم يستطع أن يعود الى بيته فى حى السيدة ولا الى بيته فى حى الزمالك ، لم يشأ أن يعود الى عالمه القديم ولا الى عالمه الجديد ، بل سلك طريقا آخر ، وانطلق يمشي كمن يبحث عن شيء آخر .

وظل هكذا طول الليل يمشي على غير هدى

مائدة الشيطان



كنت قانعا بحظى ، سعيدا بزوجتى ، منصرفا الى بيتى وأولادى ، راضيا بوظيفتى الحكومية المتواضعة ، حتى دخلت عالما غير عالمى ، واتصلت بطبقة غير طبقتى ، وتعرفت الى نفر من الشـــــباب الاثرياء العاطلين .

ومنذ ذلك اليوم تبدل كل شيء فى حياتى !

وكنت ومازلت انسانا مرح الروح ، فكه الحديث ، حاضر النكتة ، سريع البادرة ، فراق طبعى لاولئك الشباب ، وطابت لهم صحبتى ، وتوثقت بيننا على مر الزمن أواصر ود خالص حميم . والحق أنهم كانوا يتهافتون على ، ويستعذبون حديثى ، ويستملحون نكتى ونوادرى ، ولكنى لفرط اغتباطى بصحبتهم ، وزهوى بالاندماج فى بيئة راقية ووسط رفيع ، لم أشعر بالتحول الذى طرأ على شخصيتى ، ولا بنشوء تلك الرذيلة المروعة التى سرت على مهل فى دمى ، وبثها ذلك الوسط البغيض فى صميم قلبى وروحى .

كان كل صديق من أولئك الاصدقاء رب عائلة ملحوظ المكانة ، وسيد بيت كريم عريق . ومع ذلك فبيوتهم جميعا كانت شبه أوكار للميسر وأندية للقمار !

وكنت أزورهم فى كل ليلة تقريبا ، فلا يكاد يستقر بى المقام فى بيت واحد منهم ، حتى أرى المائدة الكبيرة تفتح ، وأوراق اللعب تظهر ، والرجال والنساء يتخذون مجالسهم حول المائدة ، وقد التمعت عيونهم ، وتوترت أعصابهم ، وتهيئوا فى لهفة وحماسة لاستقبال الحدث العظيم .

وكانوا يكرهون كل اسراف فى المباسطة ، وكل اسراف فى الحديث، وكل اسراف فى الفكر والجدل العقلى . وكانت لا تلذ لهم الحياة الا فى سورة التحفز ، وحمى التوتر ، ولوعة الخسارة ، ونشوة الربح ، وهم جلوس حول المائدة المستطيلة ، يضرب الصـــمت رواقه عليهم ، كأنهم يستحضرون أرواحا أو يبتهلون الى اله جبار عنيد ! .

وكانت نساؤهم اشد منهم لهفة ، وابلغ منهم حماسة ، واصلب عند الشدائد عودا ، واقدر على احتمال تقلبات الحظ ووطأة السهر الطويل .

وكانوا يسهرون الى ما بعد منتصف الليل بكثير ، ولا ينفض اجتماعهم الا بعد أن تخور قواهم ، وتلوح أمامهم تباشير الصباح !

وكنت أستغرب منهم هذا الضرب التافه من الحياة ، وأعجب لهم وهم نخبة مختارة من أهل الثقافة والجاه ، كيف لا يستطيعون السمو بغرائزهم ، والارتفاع بأهوائهم ، بحيث لا تستحوذ عليهم لذة واحدة ، تختم على أبصارهم ، وتستحيل فى نفوسهم الى رذيلة شائنة نكراء .

على أن هذه الرذيلة كانت تحمل فى نظرى ، أنا الفقير ، صورة العظمة ، ومعنى التفوق ، ورمز المال والسلطان والجاه العريض .

وكنت على استنكارى لها وخوفى منها ، أشعر فى ذلك الوسط أنى مأخوذ بها ، منجذب اليها ، نزاع الى تجربة سحرها المتقلب الغامض العميق .

وكانت رغبة التشبه بأصدقائى العظماء تغرينى بها ، ورغبة التخلص من فقرى تدفعنى اليها ، ورغبة امتلاك المال من أيسر السبل تزينها لى ، وتخلع عليها حلة شائقة من وهم وخيال .

وهكذا تركت نفسي أنساق اليها وأنا أزعم ، كما زعم الجميع من قبلى ، أن تلك الرذيلة لن تخضعنى ، ولن تأسرنى ، وأن فى وسعى متى شئت أن أتحرر منها قبل أن تصرعنى وتقضي على !

وبدات اتعلم شتى فنون اللعب فى فضول يمازجه العبث واللهو .

بدات العب فى حيطة ، واقامر فى حذر ، وأتشجع فى بعض الاحيان واغامر بمبالغ كبيرة ، مداعبا حظى ، مراودا طالعى ، ساخرا بهواجسي ، متحديا غدر الزمن !

وكنت أربح فأهزأ بالربح ، وأخسر فأهزأ بالخسارة . فلما اتفق أن ازداد ربحى وابتسم لى الحظ مرات ، عظمت ثقتى بنفسي ، فضاعفت المبالغ جهدى ، وعندئذ شعرت بالنشوة المروعة واختبلت .

رايت مالى العزيز يفرمنى ، وحظى يتنكر ويعاندنى ، فأبيت الا ان اذلل الحظ واخضعه ، واروضه واطوعه ، فجرفتنى نشوة هذا الكفاح ،

وانطلقت أقامر فى جنون لاسترد ثقتى بنفسي ، وأغامر فى عناد لأعوض خسارتى ، وأمعن فى النضال والكفاح ضد قوة لا أراها ولا تنفك تحاورنى.

وبت اذا حملنى تيار من الربح ، تقاذفتنى على الفور تيارات من الخسارة ، وألقت بى فى خضم مائج صاخب ، أستعذب العيش فى غمراته، مسلوب الحول ، شاردا ، مذهولا .

وشرعت أقتر على نفسي ، وعلى زوجتى ، وعلى أولادى ، حرمت أولادى وأشبعت رذيلتى ، واشتدت حاجتى الى المال فرهنت يوما ساعتى الذهبية وخاتم زواجى ، ثم بعت الساعة ، ثم بعت كتبى وبعض أثاث بيتى ، وقامرت بكل هذا المال وأنا لا أعى ، وتورطت فاجترأت ، وحاولت أن أسطو أيضا على امرأتى ، حاولت أن أجردها من متاعها ، أن أنتزع منها حليها ، أن أرهن أو أبيع تلك الحلى لاقامر بها ، ولكن بؤس المرأة هالنى ، وشقاؤها أخجلنى فتهيبت وتراجعت .

وشيئا فشيئا ، وتحت وطأة الخسارة ، وفى وهم الامل فى الربح ، اضطررت أن أمد يدى ! كان لا بد أن أقترض فاقترضت ، ولم أكد أفعل حتى أحسست أن تحولا خارقا جديدا قد طرأ على حياتى !

وكنت قد ألفت دعوة أصدقائى مرة فى الاسبوع للمقامرة فى بيتى . وكنت أجبر امرأتى على الظهور أمامهم ، والترحيب بهم ، والسهر طول الليل فى خدمتهم . ففى ذات مساء وقد روعنى مبلغ خسارتى ، وضاقت فى وجهى السبل ولم أعد أدرى من أين أحصل على نقود ، حزمت أمرى ، ولاول مرة فى حياتى ، أذللت نفسي وطلبت الى رءوف بك أن يقرضنى شيئا من المال .

وكان رءوف هذا شابا فى مقتبل العمر ، وهبت له الحياة المال والصحة والجمال ، فجفت عواطفه ، وقسا قلبه ، وبات لايحفل بغير اللهو ولا ينشد غير التمتع . وكان مستهترا وسخيا . وكنت أحبه لهذه الظاهرة وأرى فيها دليلا على ارستقراطيته . فلما لجأت اليه ، وكشفت له عن حاجتى ، لم يتردد وأقرضنى على الفور فوق ما كنت أطلب . أعطانى المال فى لهفة وبساطة وعدم اكتراث . أعطانى المال دون أى تفضل . أعطانى المال كما لو لم يكن ينتظر أبدا أن أرده . وهذا الاستهتار منه هو الذى شجعنى !

ومضيت أقامر — وملء نفسي الفرح والامل — ولكنى كنت لا أكاد أربح حتى أخسر ، ولا أكاد أخسر حتى ألجأ الى رءوف ، فيطيب خـــــاطرى ، ويقرضنى أيضا !

وتعاقبت خسائرى ، وتضخم دينى ، وعجزت عن الســـداد ، فاستمهلت رءوفا فأمهلنى ، ثم عدت فاستمهلته ، فســخر من وساوسي ، فعظم فضل الرجل عندى ، ولم أستطع الا ان اشكره لاهجا واطأطىء امامه هامتى !

أجل . أيئسنى حظى ، وأذلتنى رذيلتى ، فبت شبه عبد لرءوف ، أتأثره وأتبعه ، وأسليه واضحكه ، وأداهنه وأتملقه ، وأرعاه وأخدمه ، عساى أن أفى له بعض دينى ، وأحتفظ ما استطعت بصداقته .

وكان يصاحبنى وكنت أفخر به . وكان يدخل بيتى وكنت أهلل له . وكان يحوم حول امرأتى وكنت لا أراه ! اعمانى فضله ، وأضلنى وده ، فلم أستشعر نواياه ، وطفق يجامل زوجتى وأنا مغتبط ، ويباسطها وأنا مبتهج، ويلاطفها ويمازحها ويطريها ، وأنا سليم النية من نحوه ، لا يتطرق الى الشك .

وظل ردحا من الزمن يسعى فى هدوء ، وينساب فى حذر ، ويمعن فى مجاملة زوجتى ، فى عبارات مريبة ، ومغامز نابية ، يلطفها جهده بالنكات كى لا ألقى اليها بالى ولا أحملها على محمل الجد .

وكان اذا لمح فى بعض التوجس ، تظاهر بالتبرم بى ، ثم قبض يده عنى ، حتى أعود كما كنت فيبسطها لى ، مغرقا شرفى وكرامتى فى فيض معروفه الغامر العظيم !

ولم أفطن أول الامر لكل هذا ، كان تضخم الدين يزعجنى وواجب سداده يؤرقنى ، فاستغرقت فى المقامرة ولم أتنبه ، لم أتنبه من سباتى حتى أيقظتنى زوجتى ! رأيتها فجأة كما لم أعهدها قط ، رأيتها ترحب جذلانة بصديقى ثم تسرع فتتجهم له ، تقبل عليه ملهوفة ثم تسرع فتعرض عنه . تنطلق معه فى الحديث ، ثم تتحفظ وتصمت وتنكمش ، كأن هناك اغراء قويا يعذبها ، اغراء تقاومه وتأبى أن يتغلب عليها ، وهذا الاغراء الذى كان ماثلا فى حركاتها ، هو الذى أيقظنى ، هو الذى أرشدنى الى حقيقة نفس صديقى ، فأدركت وقد انخلع قلبى ، أن رءوفا يخدعنى ، وأنه يشـــتهى امراتى ، وأنه يريد أن يتقاضي دين الميسر من دمى ! .

هالنى غدره ، وروعنى نفاقه ، وخشيته على امرأتى ، وقام فى نفسي ان اصارحه وأطرده . ولكنى لم اكد أفكر فى هذا حتى ذعرت ، تمثلت فضله الذى يغمرنى ، ودينه الذى يطوق عنقى ، فارتعدت فرائصي ، ومزقنى عجزى ، وشعرت بذل عميق لم اشعر به قط ! .

رأيت نفسي مشدودا الى هذا الرجل ، مندمجـــا فيه اندماجي فى رذيلتى ، فأردت ان أستعين بهذه الرذيلة نفسها لاتخلص منه ، فقامرت يوما بنصف مرتبى ، فخسرت ، فتاه فكرى ، ولم أعد أدرى الى من الجأ ، واى السبل أسلك للتحرر والنجاة ؟

وكان الضعف قد بدأ يلوح على زوجتى ! كانت شبه منتشـــية ومذهولة ، مفتونة ومأخوذة ، كانت كأنها على وشك أن تترنح أمام سلطان الجاه والمال ، فجن جنونى ، وعزمت أن أوقظها كما أيقظتنى ! عزمت ثم ترددت ، قلت فى نفسي : ما الفائدة فى أن أصارحها ؟ سيظل الدين فى عنقى ، والرجل فى بيتى ، والغواية نصب عين امرأتى ! ان واجبى أن أسدد ، أن أدفع ، أن أحصل على المال من طريق غير طريق المقامرة ، ومتى فعلت ، ومتى دفعت ، فقد أنقذت حقا زوجتى ، وأنقذت نفسي ، وتمكنت من طرد ذلك الرجل الذى استخدم رذيلتى ليذلنى ويلوثنى !

واستبدت بى الفكرة ، فلم أجد أمامى غير منفذ واحد ، خطة واحدة لا مفر من اتباعها ولو أثارت العاصفة فى بيتى ، وأغرقتنى أعواما طويلة فى لجة من البؤس .

ولم أتردد وأقدمت .

وفى عصر يوم من أيام الشتاء ، وقد بدأ أصدقائى يتوافدون على بيتى ، ويتخذون أماكنهم حول المائدة استعدادا للمقامرة حتى الصباح ، غافلتهم وغافلت زوجتى ، ثم انسللت الى مخدعها ، وفتحت خزانتها ، وطفقت أبعثر البياضات ، وأنبش الادراج ، باحثا عن «الصرة» التى جمعت فيها حليها .

ولما كاد اليأس يذهلنى ويسحقنى ، تألق فجأة وجهى ، وارتعشت يدى ، وأحسست بالصرة الغالية مطمورة فى جوف درج جانبى ، تهتز متثاقلة تحت لمس أصابعى .

وحملنى الفرح فأخذتها ، سرقتها ! وقبل أن يتنبه أحد لامرى ، عدوت نحو الباب وغادرت البيت . وفى أقل من نصف ساعة كنت قد رهنت الحلى وعدت بالمال .

عدت بالمال وانا أختلج عزما وقوة ، ولم أكد أدخل الصالون حيث اجتمع أصدقائى ، حتى لمحت « رءوف بك » واقفا بمعزل عنهم تجـاه امرأتى ، يهم بتقبيل يدها ، وهى تتملص منه شامخة الرأس ساخطة .

واذ راتنى اقبلت على ملهوفة وهتفت : « اين كنت ؟ » فجذبتها من يدها الى اقصي الصالون وهمست : « كنت فى مخدعك ! سرقت الحلى ثم رهنتها ! وها هو ذا المال معى ! فى جيبى ! » فجحظت عيناها وندت عنها صرخة وهدرت : « اعطنى ما معك ! انه مالى ! مال اولادى ! كل ما بقى لك ولى ! » فقلت وانا ازجرها : « لا بد ان ادفع دينى لهذا الرجل ! »

ونحيتها وتقدمت ! تقدمت صوب رءوف ! ... تقدمت فى اتجاه المائدة المستطيلة حيث كان الاصدقاءمستغرقين فىاللعب وهم كالشخوص، وما كدت أنظر اليهم ، ما كدت اتأملهم ، ما كدت أرى النقود مكدسة أمامهم ، حتى خفق قلبى ، وخار عزمى ، واحتوتنى فى لحظة نشوة رذيلتى ، فدسست يدى فى جيبى ، وبالرغم منى ، أخرجت المال وهممت بأن القيه على مائدة اللعب متحديا أيضا حظى ! وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى لن انساها ما حييت ، شعرت بيد قوية تفاغلنى وتقبض على يدى ، فأجفلت والتفت ، فرأيت امرأتى وقد نفد صبرها ، وأمضها عذابها ، وثارت فضيلتها، وأحنقها الذل والبؤس وخوف التدهور والعار ، تنتهز الفرصة السانحة ، وتختطف الاوراق المالية من يدى ، وتلوح بالبعض منها فى وجه رءوف ثم تصيح صيحة باترة مدوية وتقول : « خذ ! هذا دينك على زوجى ! اليك هو ! خذه واخرج ! »

وأجالت طرفها فى الحضور ، وضربت المائدة بقبضتها وأردفت : « وأنتم أيضا ! اخرجوا ! اخرجوا جميعا ! ليس بيتى ناديا للقمار . اخرجوا من هنا حالا ! »

واومأت بذراعها نحو الباب وهى ترعد ، فاضطرب الحاضرون وماجوا ، وتطلعوا الى مبهوتين مستفسرين . ولما لم اتحرك ، ولم أتدخل ، جمدوا فى أماكنهم لحظة ، ثم رشقونى بنظرات شزراء،ثم أطرقوا برءوسهم حيارى ، ثم تحاملوا على انفسهم ، وجمعوا نقودهم ، وانصرفوا الواحد تلو الآخر مستنكرين ساخطين .

وعندما عادت زوجتى بعد ان اوصدت خلفهم الباب ، نظرت اليها طويلا وأدركت ، ادركت انى وقد وفيت دينى لرءوف ، اصبحت وعلى دين أعظم منه لامراتى واولادى !

وانهمر الدمع من عينى ، وآليت ان اقف على سداد هذا الدين الجديد حياتى !

وفى تلك اللحظة فقط احسست انى قد شفيت !

بعد سبع سنوات



لم يعد فى وسع عبد الرحمن ان يحتمل ! العالم أصبح ضـــيقا كصدره ، حالكا كحظه ، عابسا متجهما كالحسرة المرة التى يحملها بين جنبيه !

اين شبابه الزاهر ، وحسنه الباهر ، وظرفه الساحر ، وما كان يضطرم فى قلبه من فرح زاخر بالحياة ؟ ... لقد هزل بدنه ، وجف عوده، وامتصت عصارته ، وأشرف على الكهولة وهو بعد فى مقتبل العمر لم يبلغ الثلاثين ! ســبع ســنوات ، ســبع سنوات طويلة قضاها فى شر ذل واقسي عذاب ! لماذا تزوج ؟ ... لماذا اقترن بشكرية هانم ؟ لماذا باع شبابه وجماله لتلك المرأة العاتية الغليظة التى لا قلب لها ؟

كان رجلا فقيرا ، كان موظفا فى الدرجة السابعة ، قانعا متواضعا سعيدا ، ولكنه أراد أن يعيش ! أن يعيش بلا عمل ، . أن يعيش كأبناء الذوات ، فأذل قلبه ، وامتهن بدنه ، وأسلم نفسه طائعا مختارا لتلك الارملة الثرية التى التهمته !

أجل ، رفعته من الحضيض . حررته من قيد الوظيفة . أغدقت عليه المال بلا حساب . وبعد أن أطعمته وعلفته وسمنته ، ضربت عليه رواقا من حبها ، وشرعت تلتهم كل شريحة فيه !

هو ذاك ، انه ملكها ، متاعها ، حيوانهــا القــوى الخرافى الجميل الذى لا تنفك تأكل منه ، وهى تعلم علم اليقين أنه لو هزل وضمر ، ففى مقدورها بما لها من مال وسلطان ، أن ترده أوفر لحما ، وأغزر شحما ، وأمتع نضارة ، وألذ طعما !

وهو ، هو الحيوان ، بات يســتمرىء أن يؤسر ، ويســتعذب أن يعلف ، ويستطيب أن يؤكل ، مادام يعيش فى مذود من ذهب ! ، ولكنه اليوم ، اليوم فقط . ، وبعد سبع ســنوات طويلة ، أحس فجأة انه انسان ! زهد قلبه فى كل ما كان يطمح اليه . سئمت نفسه حياة الاسر والهوان . احتقر شخصه ، وأبغض ذاته ، وضاق ذرعا بامرأته التى جن

جنونها لانها جاوزت حد الشباب وبلغت سن الاربعين ، لا ، لم يعد يحتمل عصبيتها المروعة ، وكبرياءها الساخطة ، وعجرفتها المثيرة ، وغيرتها الطائشة التى اتخذت مظهر حيازة شائنة منكرة !

لشد ما اصبح اليوم يكرهها ويتمنى من صميم فؤاده لو استطاع ان يطلقها ! . يطلقها ؟ ولكن هل هو رجل ؟ افى وسعه أن يشتغل ؟ الا تزال فيه بقية من كرامة وارادة ؟ لقد طالما فكر فأحجم ، وحاول ففشل !

هذا النعيم ، هذا الثراء ، . هذا الترف السابح فى جو من الكسل الفاتر ، يبهره ويضنيه ، ويصب فى أعصابه المنهوكة شبه خمر غادرة تزين له متعة الراحة ، وتغريه بالتواكل والتسليم ! لا ، لن يستطيع أن يطلق ولكنه يستطيع اذا شاء أن يتنفس ! واذا كان لم يشعر اليوم أنه رجل ، فقد شعر شعورا عميقا بأنه على الاقل انسان ! أجل ، يجب أن يتحرك ، أن يخرج ، أن يفر من هذه المرأة ولو ساعات ، ولو لحظات ، الى حيث يمكن أن يمرح ويتنفس ويعيش !

ولقد خطرت له فكرة ! فكرة غريبة ، فكرة عجيبة ، تنم عن خلقه ، وتدل على قلقه ، وتمثل مبلغ ما انتهى اليه قلبه من فراغ ! لم يفكر في علاقة أثيمة ، أو فى متعة محرمة ، أو فى لهو جارف صاخب عنيف ، بل فكر على النقيض فى العاطفة ، فى الاحساس ، فى الشعور ، فى كل ما حرمته اياه امرأته العاتية الغليظة ، المادية الفكر والقلب والروح !

أراد أن ينهض من حمأته ، أن ينطلق من حيوانيته ، أن يفتح مغاليق وجدانه ، أن يوقظ قلبه ، ويلهب خياله ، ويحس أنه قد أصبح بالفعل انسانا !

وهكذا فكر على دهش منه فى نادية ! ، نادية ، أهذا ممكن ؟ كيف خطرت على باله ، وأى قوة مجهولة بعثتها فجأة من أغوار الماضي السحيق؟ لقد أحبها ولم يحب سواها ! ، أحبها منذ سنين ! أحبها قبل أن يعرف شكرية ! أحبها وعاهدها على الزواج ثم أغراه المال والجاه فغدر بها من أجل شكرية ! فكيف ؟ كيف يفكر فيها الآن ؟ انه لم يرها منذ تزوج ! لم يرها منذ سبع سنوات ! لقد فصلت بينهما شكرية كما تفصل الحياة بين الغنى والفقر . ولقد تزوجت نادية ، تزوجت صديقه المدرس ممدوح وأعقبت منه ثلاثة أطفال ، وعاشت بمعزل عن العالم فى منزل متواضع بضاحية المطرية ، فماذا يريد الآن منها عبد الرحمن ، وكيف يجسر على

التفكير فيها ؟ الم يقتلها فى نفسه حب المال ؟ ألم تستحل فى خياله على مر الزمن الى هيكل من ضباب ؟ ألم ينس كل شيء فيها ؟ وحتى ضحكتها الصافية الرنانة التى كانت تهز قلبه من الاعماق ؟ بلى . انه لم ينس ! العجيب فى الأمر أنه برغم تعاقب السنين لم ينس ! لم ينس شيئا ولا سيما تلك الضحكة ! كان يعيش فى شبه حياتين متباينتين وهو لا يدرى ، كان جسمه ملكا لشكرية ، وكانت أصداء روحه البعيدة ما تنفك تتجاوب بذكر نادية ! كان بعقله زوجا لشكرية ، وكان بحلمه عاشقا متلهفا على طيف نادية ! وكان هذا العشق يرقد فى أطواء نفسه كنار مستكنة تحت رماد . فلما عصفت الكهولة بامرأته ، واشتد سلطانها ، واتقدت غيرتها ، وتفاقم استبدادها ، وبات العيش معها لا يطاق ، تأججت النار فى قلب عبد الرحمن، وتضرمت فجأة واندلعت ، وبرز فى ضوئها الوهاج طيف نادية ! وها هو ذا الآن يتمثل حبه الأول ويرتجف !

ها هو ذا الآن ، والحسرة تمزقه ، يقارن ويفاضل بين حياته اليوم ، وبين ما كان يمكن أن تكون عليه لو اقترن بنادية .

وذكر صفاء نادية ، ورقتها ، وحنانها ، وضحكتها ، وذلك الخفر القلق البديع الذى كان ينسكب كيقظة الفجر عليها ، وذكر كيف كان يزورها ؟ وكيف كان يحييها ؟ وكيف كانت ترحب به وتبتسم له ، وتدعوه فى ليالى الشتاء ليشترك معها ومع أهلها فى لعبة « البصرة » ؟

وكانت هذه اللعبة تفتنه ، وترفع كل كلفة بينه وبين حبيبته ، وتدمجه فيها ، وتسلكه فى أسرتها ، وتملأ الجو حوله بهجة عائلية مشرقة !

وتصور نادية وهى تلعب وتضحك ، ثم تسرع وتنهض ، ثم تقبل عليه مختالة وفى يدها قدح الشاى أو القرفة أو المغات ، فجاشت نفسه ، واصطخبت عواطفه ، وذكر امرأته ، وأيقن أنه مهما حاول فلن يستطيع بعد اليوم أن يصبر ويحتمل !

وأخذته الصورة ، وملكته الفكرة ، وخبلته الرغبة ، واحتواه العزم !

وكان جالسا فى حجرة مكتبه ، والوقت عصرا ، وشكرية فى مخدعها تتبرج استعدادا لسهرة المساء . فلم يفكر فى استئذانها بل لم يفكر فيها ، وهب واقفا ، واتجه صوب الباب ، ودفعه فى رفق ، ولم يكد يخرج الى البهو الكبير حتى تراجع ، لمحت عيناه هيكلا ضئيلا عزيزا يعرفه،

ابصر فى اقصي الغرفة المجاورة ، صديقته ، صديقته الوحيدة فى هذا البيت ، الفتاة الصامتة ، الفتاة اليتيمة ، الفتاة المنكسرة ، الفتاة الصغيرة ، محاسن ، بنت شكرية من زوجها الاول ، تنحنى على البيانو وتشرع فى عزف دور كان والدها قد علمها اياه . فنظر اليها عبد الرحمن فى عطف عميق ولم يتحرك . وفجأة وعندما تصاعدت الأنغام ، وجلجلت وتدفقت ، وغابت الفتاة فى غمراتها ، ابتسم عبد الرحمن مطمئنا ، وارسل نفســا مستطيلا ثم انسل من البهو فى حذر ، وفتح الباب الكبير ، وانطلق لأول مرة منذ سبع سنوات يبحث عن الماضي ويطلب نادية !

وكان يعرف اسم الشارع الذى تقيم فيه بضاحية المطرية ، ولكنه كان لا يعلم على وجه التحقيق موقع بيتها ، فاستقل القطار ، وهبط الضاحية ، وظل يستفسر حتى أرشدوه الى البيت ، وما كاد يشرف على الحديقة الصغيرة المحيطة به ، حتى استهول جرأته ، واستغرب مسلكه ، وفكر فى الرجوع من حيث أتى ، وكان الصيف فى عنفوانه ، والجو حارا خانقا ، فاتأد عبد الرحمن ، ومسح بمنديله العرق المتصبب على وجهه ، ولبث يحدق الى البيت حائرا مترددا ، وانه لمستغرق فى حيرته ، واذا به يسمع من جوف الدار جلبة تعقبها ضحكة . فخفق قلبه ، وتوترت عضلاته، وتقدم بخطى ثابتة ، وطرق الباب ، وأطل ممدوح برأسه ، فلم يكد يراه حتى هتف ! هتف هتاف من أبصر عزيزا كان ميتا فبعث ! وضمه الى صدره ، ونادى امرأته ، ودخل به الدار ، وطفق يهلل ويصيح وهو يعانقه ، وكانت نادية تعد فى المطبخ العشاء ، فهرولت لترى الزائر . وما ان وقعت عيناها على عبد الرحمن حتى اختلجت وفغرت فاها كبلهاء !

وصاح ممدوح ناهرا صديقه ، معاتبا اياه على احتجابه الطويل ، فانطلق عبد الرحمن يحاور ويداور ، ويستغفر ويعتذر ، ويتملص ويروغ ، ولما سئل عن امرأته ، أجاب فى تأفف أنها مريضة ، وأنها ســافرت الى الاسكندرية تستشفى ، وأنه هو قد تنفس الصعداء يوم فارقته ، وانتهز هذه الفرصة لزيارة أصدقائه القدماء جميعا .

وهدأت العاصفة ، ومدت المائدة فى الحديقة ، وأبى ممدوح الا أن يدعو صديقه لتناول العشاء .

وجلس عبد الرحمن تجاه نادية ، ورفع بصره الزائغ وبدأ يتفرس فيها ، هذه هى ! انها هنا ! أمامه ! على مرمى اليد منه ! هى بعينهــا نادية ! ولكنها هى وليست هى ! سبع سنوات حطت عليها ! سبع سنوات

عبثت بها ! ما هذا ؟ ما هذا الفراغ الذى اصاب عينيها ؟ وما هـــذا الهمود الذى انقض بغتة عليها ؟ وما هذه السكينة العجيبة التى تثقل حركاتها ولا تمت بصلة اليها ؟ لقد ترهلت ! تزوجت وترهلت واستراحت وأصبحت اما منذ سنين ! الا تراها ؟ الا تلحظها ؟ انظر اليها ، انها تتحرك وتتلفت وتتكلم مثل زوجها تماما ! انها تحاكيه فى كل شيء ! تشبهه فى كل شيء ! انها امرأته ورجع صداه ! لقد طبعها ممدوح بطابعه فأصبحت على مر الزمن صورة حية منه ! ومع ذلك ، مع ذلك فهى لم تزل هى ! هى بعينها نادية ! ابتسامتها الناضرة لم تتبدل ، نظراتها العذبة لم تتحول ، روحها الوادعة الطيبة لم يطرأ عليها اى تغيير ! هى نفســـها فتاة الأمس ، هى نفسها يقظة الفجر ، وعبد الرحمن يحبها ، يحبها ، ولا يمكنه الا أن يحبها مهما اعتورها من نقص وأصابها من تبديل !

ونظرت اليه فى سكونها المطمئن الحالم كأنها لم تعرفه قط . فتفطر قلبه وأوشك أن يبكى . ولكن نكتة ظريفة بدرت من ممدوح أثارت ضحكتها. فلم تكد ترسل تلك الضحكة التى ألفها عبد الرحمن ، حتى انبســـطت أساريره ، وأشرق وجهه ، وخيل اليه أنها تضحك من أجله كأنما هى توقد على الرغم منها جميع أضواء ماضيها الجميل !

واستولى هذا الماضي على خيال عبد الرحمن ، فأراد أن يوقظه ، أن يحييه ، أن يلوذ به من عسف امرأته ، أن يجد فيه متعة لقلبه ، وبعثا لشبابه ، وتوكيدا لحريته ، فاحتال على شكرية ، وافتن فى خداعها ، وطفق يزور « ممدوح » كل أسبوع مرة ، حتى توثقت بينهما الصداقة وانتهت الى ود حميم .

وكان يقبل مشرق الطلعة ، ضاحك السن ، مثقلا بالهدايا ، فيرحب به ممدوح ، وتستقبله نادية فى بساطة وصراحة كأنه أخ لها أو قريب .

وكانت نادية لا تزال تهوى لعبة « البصرة » فكانوا بعد أن يرقد الأطفال ، وتهدأ ضجة البيت ، يجتمع ثلاثتهم فى الحديقة حول المائدة . ويتهيئون للعب ، مقترعين على أيهم يكون « الطيشة » وهم يضحكون ، وكان عبد الرحمن لا يلبث أن يحس بهجة اللعب تعصف به ، ولا يلبث أن يشعر بالدفء العائلى يسرى فى عروقه ، ولا يلبث أن يخالس نادية النظر وهى تجمع بيدها الرخصة خصلات شعرها ، وتعقد حوله كعادتها القديمة شريطا من الحرير الازرق ، ثم تضحك وتنهمك فى اللعب ، حتى يخيل اليه أن ماضيه أصبح حاضرا ، وحلمه أصبح حقيقة ، وجو سعادته

القديم أصبح ماثلا امام عينيه ، يلتمع ويتالق ، كالواحة الزاهرة انبثقت فجأة من جوف صحراء ! .

وهذا الجو ، هذا الجو المسكر المنقذ اللذيذ هو الذى كان عبد الرحمن يهواه فى الحقيقة وينشده ! كان يعلم علم اليقين ان نادية لن تكون ابدا له . وكان هو فى أعماق نفسه لا يشتهيها ، بل كان يشتهى الحياة فى ذلك الجو المسكر الذى أحبها فيه وبات يحبه فيها ! ...

واغرق على مدى الايام عقله وقلبه فى هذا الجو ، فى جـــوها المترقرق من وجودها كالماء ، الزافر من حديثها كالهواء ، الصـــادح من ضحكتها كالموسيقى ، اللامع من عينيها كالنقاهة ، السارى فى صوتها الخافت العذب كهمس الخواطر ، أو غمغمة الجداول ، أو وسوســة الحلى .

وأصبحت سعادته فى أن يعيش فى هذا الجو الرائع ، كاتما حبه ، خانقا قلبه ، حابسا أنفاسه ، متناسيا ذله وهمه فى فرحة هذا الشـــباب المجدد وهذا الهوى الصامت الخالص العميق .

ولم يكن يتمنى على الله الا أن تدوم عليه هذه النعمة ، فلا يبرم الزوج به ، ولا تزهد المرأة فيه ، ولا يحدث حادث يعكر صفوه ، ويبدد حلمه ، ويرده فى لحظة الى ظلمة الواقع البغيض .

ولكن الزمن الغاشم الذى يلوح للناس أنه متربص بهم ، لا يصدر فى الحقيقة الا عنهم ولا يأخذهم الا بأعمالهم ، وهذا ما حدث لعبد الرحمن ، أبطرته النعمة ، وأذهلته النشوة ، وخدعه الاطمئنان ، فطفق يزور «ممدوح» كل ليلة ، ويسرف فى السهر ، ويسرف فى جلب الهدايا ، ويسرف فى ملاطفة الزوجة ، ومجاملة الزوج ، والتودد الى الاطفال ، حتى تفتحت العيون ، وتهامس الجيران ، وشاع فى الضاحية كلها أن زوجة المدرس الفقير ممدوح قد اتخذت لنفسها من أحد البهوات عشيقا !

وعندئذ تبدل فى نظر عبد الرحمن كل شيء ! تكاثف الجو حوله بغتة ، واغبر وتلبد ، وانعقدت فيه السحب ، رأى الزوج حائرا ساهما يضطرب ويتخبط . وأحس أن نادية قلقة واجمة تنفر وتتحفظ ، فبدل أن ينتبه ويعتدل خيل اليه أنه تهاون وقصر ، فراح يغرق فى التودد ، ويغرق فى التلطف ، ويغرق فى المجاملات الفاضحة دون وعى أو حساب .

وختم الوهم على بصره ، فلم يعد يرى غير نفســه ، وعالم الفرح والبهجة الذى احتواه كاعصار !

وظل هكذا فترة طويلة حتى تشجع ممدوح وأسر اليه بضع كلمات فأفاق ! أفاق متمنعا مترنحا مبهوتا ولم يفهم ! لم يشأ أن يفهم ! لم يشأ أن يصدق ! تجاهل وتعامى واصطنع الغباء ، تبلد وتشبث وتزود بالرياء ، توسل وتذلل ولم يمنعه حياء ، فما كان من نادية ، نادية نفسها ، نادية الرقيقة الوديعة التى يجلها الا أن صارحته برأيها ذات مساء ، وطلبت اليه أن يصون سمعتها ويرحل !

واذ ذاك ، اذ ذاك فقط ، تنبه عقله ، وتقطع قلبه ، وتمزق حلمه ، فنهض ، نهض لساعته ، وأحس أنه يجب أن يغادر هذا البيت كى لا يعود !

وكان ثلاثتهم جالسين فى الحديقة حول مائدة اللعب ، فلما نهض عبد الرحمن ، كان ضائعا ، كان تائها . كان منسحقا . فلم يستبقياه ، وأوصلاه حتى الباب ، وودعاه فى أسف وخجل وارتباك ، ولكنه لم ينظر الى نادية ، ولم ينظر الى ممدوح ، بل أطرق برأسه ، وصافح اليدين الممدتين اليه ، كأنه منكوب يتلقى العزاء فى فقد حبيب .

ولم يكد يختفى الزوجان ، حتى ناءت عليه الوحدة،وصرعته الحسرة، فلبث فى مكانه جامدا يدير الطرف حوله كمخبول .

وفجأة لمعت عيناه ، واختلج بدنه . فاستدار ، وكر راجعا ، وفتح باب الحديقة . وفى مثل لمح البرق ، اتجه نحو المائدة ، ومد ذراعه ، وسرق العلبة ، علبة ورق اللعب ، ثم دسها فى جيبه وأوصــــد خلفه الباب ، واندفع يركض فى طريق المحطة وهو يلهث .

ولما بلغ البيت وقيل له : ان شكرية لا تزال فى السينما ، تنفس مستريحا ، ودخل حجرة مكتبه ، وارتمى على مقعد ، وأغمض عينيه .

وبعد لحظة ، بعد لحظة قصيرة ، هزه الفزع من سباته ، وحانت منه التفاتة فجمد ، أبصر هناك ، هناك فى أقصى الحجرة ، بعض ربطات العنق متدلية أمامه على المشجب ، فاستضاء محياه ، وهب واقفا ، واتجه اليها ، ثم تخير منها ربطة حريرية زرقاء كذلك الشريط الذى كان يزين الساعة رأس نادية ثم فتح الباب فى لهفة وصاح :

ــ محاسن ! محاسن !

فأقبلت الفتاة ، الفتاة الصغيرة ، الفتاة اليتيمة ، الفتاة الصامتة المنكسرة ، صديقته بالامس ، وابنته الوحيدة الحبيبة منذ اليوم . فما ان رآها حتى هلل لها ، ثم عانقها ، ثم غافلها وهى مذهولة ، وعقد الرباط الازرق الحريرى حول شعرها .

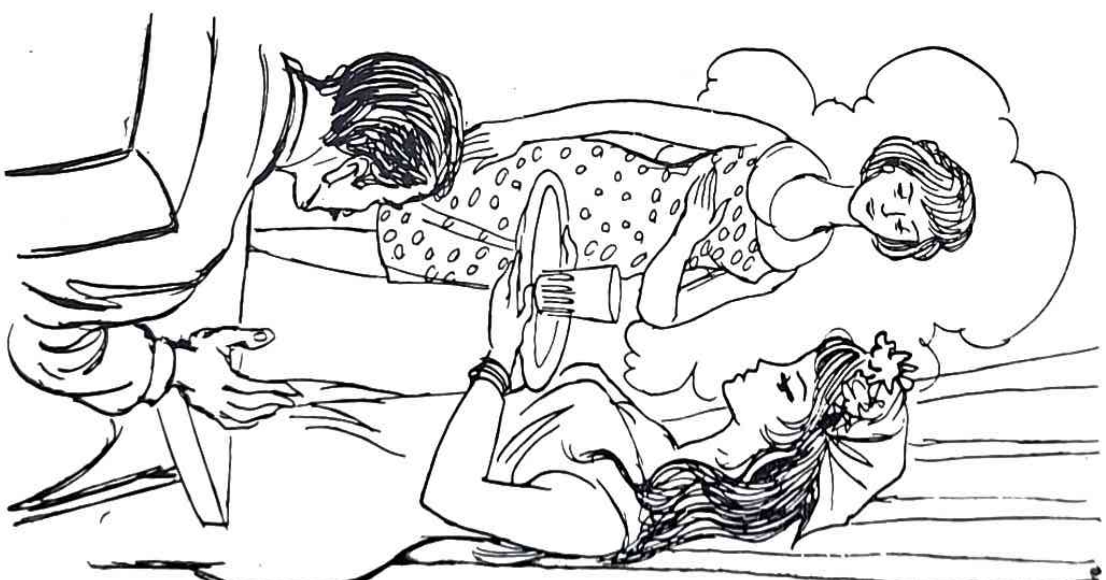
ولما أجلسها تجاهه ، وجلس تجاهها ، أخــــرج من جيبه العلبة المسروقة ، ونثر منها الورق على المكتب ، وغمغم :

— محاسن ، أنا حاعلمك الليلة لعبة البصرة !

وتأملها طويلا ، وشرع « يفنط » الورق .

وتحدرت على خده الشاحب دمعة !

سناء واعتدال



لم يكد يستيقظ الموظف الكبير صلاح « بك » من نومه حتى تسلم هذا الخطاب من صديقه المهندس الاديب مصـــطفى حمدى . المريض فى المستشفى . فأخذ يقرأ وقد استولى عليه الدهش والذهول :

« كان لا بد أن أكتب اليك هذا الخطاب يا صلاح . لانه قد أصبح من المستحيل على بعد أن عشت فريسة العذاب فى دنيا الحذر والخوف والوحدة أشهرا طويلة ، وبعد أن اعتزمت المضي الى عالم الســكون والصمت الابدى الا أن أتكلم ولو ميقات ساعة ، وأفضي بدخيلة نفسي الى صديق أعلم علم اليقين أنه رجل وأنه انسان .

أجل . فى هذا الحديث آخر لذة أتذوقها ، وأبلغ تعــزية أتقوى بها ، وأعمق راحة تشجعنى على استقبال الموت بثغر باسم وعزم وطيد .

لا تضطرب يا صلاح ولا تفزع ، واياك أن تفاتحنى فى موضــوع هذا الخطاب فى أثناء زياراتك لى فى المستشفى . لن ينفع النصح ولن تجدى المواعظ فقد حم القضاء ودنا الاجل . فكن حذرا كتوما مثلى ، واذا كنت حقا تحبنى ، فدعنى أسترح ولا تقلق نفوس من حولى ، واطو قلبك على السر الفظيع كما طويت عليه منذ أشهر قلبى .

على أننى لم أكتب اليك الا وأنا واثق منك . فاستمع لقصتى التى كتمتها عن الجميع ، وجاهدت لاخفائها حتى عن نفسي . ثم انظر اليهــا بعقلك الثاقب ، وفكرك النزيه ، وقلبك الكبير ، وسوف ترثى ولا شــك لحالى ، وتلتمس ولا ريب عذرا لى ، وتقرنى فى النهاية على تضحيتى ، وتدرك آخر الامر أنى ، وان كنت انسانا ضعيفا عبثت به المقادير ، لم أستسلم قط لضعفى ، ولم أبح قط بسرى ، وآثرت أن أموت خليقـــا بتقديرى لنفسي على أن ألحق الشر والاذى بمن هم أعز الناس على ! .. فاسمع الآن وتأمل واحكم :

« كنت منذ نحو عام أزور لأول مرة جارنا المحامى الأستاذ (جلال) وكان من واجبى وقد استأجر الشقة المواجهة لبيتنا فى العمارة التى نسكنها ، أن أتعرف اليه وأرحب بجيرته ، بعد أن تعرفت زوجتى الى امرأته وتوثقت بينهما عرى الصداقة والود .

لم يكد يستقبلنى واجلس اليه بضع لحظات ، حتى اقبلت روحية هانم زوجته تحيينى ، ثم دخلت فى اثرها فتاة تحمل فى يد صينية القهوة ، وفى الاخرى طبقا عليه قطع من البسكويت .

خلت الفتاة اول وهلة خادمة البيت فلم احفل بها ، ولكنى عند ما رفعت اليها بصرى ، ومددت يدى اتناول قدح القهوة ، رأيتها تبتسم لى ، فأدركت أنها هى ابنة صاحب الدار ، وانها تحيينى ، فابتسمت لها ودعوتها الى الجلوس ، ومضيت فى حديثى متعجبا حائرا ، أخالسها النظر بالرغم منى ، وأجهد فكرى عساى اذكر اين عرفتها ؟ وأين رأيتها قبل الآن ؟

وكانت « سناء » كما صورتها لى زوجتى ، وكما خيل الى انى أعرفها من قبل أن تعرفها زوجتى ، فتاة ساكنة المظهر ، وئيدة الحركة ، لينة الاشارة ، ساجية النظرة ، خافتة الصوت ، غريبة الفتنة ، ذات قامة مديدة هيفاء ، وصدر ناهد مكتمل ، وجبهة مشرقة عالية ، وعينين سوداوين حزينتين تكمن فيهما حسرة كليلة يضاعفها الهدوء الجسمانى العميق سحرا وروعة .

وكانت جالسة على طرف مقعدها منصوبة القامة ، محنية الرأس بعض الشيء ، تغض من أبصارها الوجلة فى شبه خفر يمازجه انكسار وبؤس .

ولاحظت فى أثناء الحديث أنها كانت شديدة الاحترام لروحية هانم ، لا تخطئها فى أية فكرة ، ولا تعترضها فى أى رأى ، بل تسلم بكل ما تقوله وتطيعها طاعة عمياء ، وتنكر شخصيتها أمامها ، وتجتهد ما استطاعت فى أن تفسح لها مجال الصدر فى الحديث باعتبارها ربة العائلة وسيدة البيت .

وأما روحية فكانت لا تأبه لها ولا تكترث لوجودها ، ولا تحفل بمظاهر اجلالها واحترامها ، وتكتفى الوقت بعد الآخر ، باصدار الأوامر اليها ، وهى ترشقها من طرف خفى بنظرات سريعـــــة حادة ملؤها الأنفة والزراية والاحتقار .

كان يبدو على روحية أنها لاتستطيع أن تغفر لسناء أنها ابنة زوجها من امراته الاولى ، وأن زوجها قد فرض عليها الحياة معها ، وانه يريد فوق ذلك أن تحبها زوجته ، كى يسود السلام بيته فلا يؤنبه ضميره ولا يندم على زواجه الجديد .

وكانت سناء بلطفها ووداعتها ودماثة أخلاقها ورقة حديثها وفرط

أدبها ، تكافح كفاح اليائس لتوحى الحب والعطف الى المرأة الجامدة القاسية المتعجرفة زوجة أبيها . وكان منظرها وهى تبذل عبثا من كرامتها، وتبذل عبثا من عقلها ، مروعا ممزقا يثير السخط فى النفس ويستدر الحنان والشفقة من أقسي القلوب .

هذه الشفقة ياصلاح ، مقرونة بتأثير ماض بعيد كنت لا أزال أسبح فى ظلماته محاولا استجلاء غوامضه ، تملكت منى واستحوذت على ، فطفقت أرقب سناء وأحدق اليها وأتفرس فيها .

وفجأة نهضت من مقعدها واتجهت صوب الباب لتأتى بكوب ماء طلبته روحية هانم .

وعندئذ ، عندئذ فقط رأيتها .. رأيتها تنبثق من جوف المرآة الكبيرة المواجهة ، صورة جانبية دقيقة التقاطيع واضحة القسمات نابضة الملامح بمعرفتها ...

أجل ياصلاح كانت هى « اعتدال » .. اعتدال بنفسها ! ..

أتذكر اعتدال ياصلاح ؟ .. تلك الفتاة الهادئة الصافية ذات الصدر الناهد المكتمل والعينين السوداوين الحزينتين .. الفتاة التى كانت تسكن بجوارنا فى حى المنيرة أيام كنا تلاميذ ... الفتاة التى كانت فجر حياتى ومطلع شبابى وأول حبى ... الفتاة التى نافستنى أنت فى هواها ، فتربصت بك ذات مساء ، وتضاربنا من أجلها ثم أحببناها معا ، ولما تزوجت وغادرت حينا بكيناها معا ؟ ...

لابد أنك تذكرها يا صلاح . أما أنا فقد رأيتها . رأيتها رأى العين لم يمسسها الزمن . ولم تبدلها الأعوام ... رأيتها فى شخص سناء . سناء التى أشفقت عليها لحظة ، فلما أضفى الماضي العزيز الثمين على شقائها حلة من جمال الذكرى ، مازج خيالى بينها وبين اعتدال ، فهفت نفسي بغتة اليها ، واضطرمت شفقتى ، وشعرت نحوها بحنان أبوى غريب ، فتأملت فى مصيرها ، وفكرت فى مستقبلها ، وعقدت النية على انقاذها .

العجب يا صلاح أنك وقد عرفت سناء . وجلست اليها وحادثتها مرات ولم تفطن قط الى الشبه العظيم بينها وبين اعتدال . ذلك أنك لم تحب اعتدال كما كنت أحبها أنا .. لقد مرت تلك الفتاة بحداثتك مرور البرق الخاطف ، أما أنا فقد كانت كل حياتى .

« لم أحب غيرها ، ولم اوفق الى مثلها ، ولم اتحسر الا عليها . ولقد تزوجت كما يتزوج الجميع لاقر النظام فى حياتى ، فاصبحت والدا ، وبلغت الخمسين من عمرى ، وانا لا ازال ملك المراة الأولى التى ايقظت شبابى وهدتنى الى عالم القلب والفكر والروح .

فكيف تريد ياصلاح الا اغتبط وابتهج وافرح ، وقد وجدت ضالتى ، وعثرت على حلمى ، والتقيت بمثلى الأعلى بعد طول الصبر والعناء ؟ ..

« أجل . ولكن كيف يمكن أن أستمتع بهذه الضالة ، وأنعم بهـــذا الحلم ، وأحقق ذلك المثل الأعلى ، وأنا زوج ووالد ، وكهل متعب مريض يقوض بدنى داء السكر ، وأعيش عبئا على نفسي وعلى الحياة ؟ .

« تلك كانت مأساتى ! ...

« لم أسعد باعتدال فأردت أن يسعد بها أعز الناس واقربهم الى أردت أن أحقق لسواى مالم أستطع تحقيقه لنفسي . أردت أن أبصر غيرى يرتع فى بحبوحة تلك الحياة المجيدة التى افلتت منى .

« أردت أن أدمج ابنى الوحيد « رشاد » فى روحى وخيالى وقلبى ، أن أزوجه اعتدال ممثلة فى شخص سناء ! .

« وما زلت به أنصحه وأقنعه وأحتال عليه حتى تم هذا الزواج .

« ودخلت سناء بيتنا كما تعلم ، وعاشت معنا ، وكنت أراها كل يوم وأسمعها ، وأجلس اليها ، وأنا لا أصدق أنها سناء ..

« وكانت نظرتها الحزينة نظرة اعتدال نفسها وجبهتهـــا المشرقة الجبهة نفسها ، وقوامها ... القوام نفسه ، وصفاء هدوئها ... ذلك الصفاء عينه واما ابتسامتها الخفيفة ، ابتسامتها الوديعة الحلوة ، فكانت الضوء الساطع الغامر الذى أحيانى ، وبعث فجأة أمام عينى ميت الأمل وميت الشباب .

« وكنت سعيدا سعيدا بابنى وابنتى . كنت أسعد الناس ياصلاح كنت أسعد من ولدى . أسعد ممـــا لو كانت سناء زوجتى انا . فكنت أرعاها ، وأتعهدها وأعنى بشئونها وأحرص على راحتها ، وأفتن جهدى كى أرى ابتسامتها العذبة دائمة التألق على شفتيها الناضرتين .

« واستعرت فى ارادة الحياة ، فأخذت أعنى أيضا بنفسي ، وأهتم بصحتى وأتبع فى دقة وصرامة تنظيمات الطبيب . وشعـــرت كأن دمى

بتطهر من لوثة الداء ويصفو ، وكأن قلبى الكليل ينتعش ، وصدرى الضيق يتفتح ، وعصبى المرهق يشتد ، وشبـــابى الزائل يتجـــدد ويعود . الى أن تبين لى على مر الايام ، أن شـــــيئا غريبا طارئا ، شـــيئا لم أكن اتوقعه ، يجرى حولى ، ويحدث بمشهد منى ، ويثير فى بالرغم عنى شعورا خفيفا لا أستطيع ان أعبر عنه الا بأنه مزيج من الخيبة والكمد .

« تبين لى أن عاطفة قوية نشأت بين سناء ورشاد » .

« تبين لى أن هناك عالما أجهله ، عالما شائق الحسن ، رائع الجمال يتكون على مهل بقربى ، وليس من حقى أن أدخله .

« لاحظت أن سناء كلفت برشاد ، وأنها تبتعد شيئا فشيئا عنى ، وتتملص منى ، وتستغنى عن خدماتى ، ولا تحفل بعطفى ، وتنصرف بجميع كيانها الى رشاد . فخيل الى أن فاجعة الماضي توشك أن تتجدد ، وأن اعتدال ستفلت منى مرة ثانية ، فتملكنى ضرب من الســـــوداء الذاهلة ، سرعان ما استحال الى غيظ وحنق ولوعة .

« وعلى دهش منى أحسست أنى بدأت أنفر من سناء وأكاد أكرهها » .

« وكنت كلما أبصرتها تخرج فى صحبة زوجها أتألم . وكلما لمحته يقبلها أتعذب . وكلما رأيتهما سعيدين يضـــحكان أبتئس وأتجهم .

« لم أكن أدرى على وجه التحقيق لماذا أتعذب . لم يدع لى الالم مجالا للتفكير . لم أستطع أن أصارح نفسي . كنت مستسلما لعواطفى . كان يتقاذفنى شبه اعصار . وكنت أستغرب لحنانى الابوى كيف يمكن أن يجف هكذا ويجمد . وكيف يمكن أن يتقلص هكذا ويتبدد ، وكيف يمكن أن يحل محله هذا الحنق وهذه الحسرة وهذا الالم الفظيع .

« كنت أريد ولا شك أن أرى ابنى سعيدا وكذلك سناء ، ولكنى لم أكن لاقدر أنهما سيكونان سعيدين على هذه الصورة ، سعادة أبلغ وأروع مما كنت أحلم به لنفسي حتى فى أينع أيام شبابى .

« ولم أقو على الصبر ، ولم أستطع الاحتمال ، عزت على نفسي ، كبر على أن أطرد بمثل هذه القسوة من عرس الحيـــاة ، كبر على أن تهملنى سناء ، أن أنقذها فتردينى ، وأغدق عليها فتجحد فضلى ، وأهب لها كل شيء فتنسي ، ولا تكاد تذكر أنى هنا ... بجوارها ... أتحرك وأتنفس وأعيش .

« ولما ناء على الهم ، وبرح بى العـــذاب ، عذاب الحسرة والذلة

والخوف والحذر والمداراة والكتمان ، كبحت جماح قلبى ، واستجمعت قوى بأسي ، ووطنت العزم على التحرر والخلاص .

« وشرعت لفورى اتبرم بابنى ، واتجهم له ، واحاسبه على ابسط هفواته ، واختلق الاسباب لاثارته ، واعارضه واراجعه والومه واعكر عليه صفوه ، ممثلا فى مهارة فائقة دور المريض العصبى الدائم التذمر والسخط ، حتى ضاق الشاب ذرعا بى ، وسئم الحياة معى ، وصارحنى ذات يوم على مسمع من امراتى الذاهلة المبهوتة ، أن فى نيته الانفصال عنا واتخاذ بيت خاص .

« وأزفت الساعة المشئومة ، وماج المنزل وتبدلت أوضاعه ، ورأيت حجرة الزوجين فارغة من كل أثاث ، ثم عانقتنى سناء والدمع يترقرق من عينيها ثم خرجت مطأطئة الرأس ذليلة ، ولكنها لم تكد تختفى ، لم تكد تغادر بيتى ، حتى ارتعدت فرائصي لانى شعرت أن اعتدال بقيت فيه ! ..

« كيف يمكن أن يحدث هذا ... كيف لم أتوقع كل هذا ؟

« كانت عزلتى ملأى بها ، كانت روحى تجد فى أثرها ، كانت أفكارى متجهة صوبها ، كان قلبى يناديها ، كان خيالى لا ينفك يخلقها ويبدع منها صورة أجمل ألف مرة من الحقيقة .

« كنت أراها فى كل شيء ، وأحسها فى كل مكان ، أراها فى عقلى وفى ألمى وفى نظرات امراتى ، وأحسها فى البيت حولى ، تروح وتغدو تتكلم وتضحك ، تقبل ثم تعرض ، فأسرع اليها وأعدو خلفها ، وادخل حجرتها ، فلا أرى الا رقعة من الارض جامدة جمود الرعب ، متهكمة تهكم القدر ، باردة برودة العدم والموت .

« أحسست أن الجنون يوشك أن يعصف بعقلى ! .. خيل الى انى تعريت وافتضحت وأن كل من يدنو منى لابد أن يهبط من عينى الى قرارة نفسي ... هو ذاك .. كان يجب أن أتحفظ أيضا .. وأكتم أيضاً .. وانافق أيضا .. وأحذر قبل كل شيء نظرات امراتى .

« يالذلك الجهد المرهق يضاف الى عذاب التخيل فى ظلمات الوحدة والصمت . !

« لم يعد فى مقدورى احتمال كل هذا .. أردت ان اتنفس .. أردت أن اخرج . أردت أن أرى ضوء الشمس ! .

« وهكذا ذهبت فى اليوم التالى الى بيت سناء .

« لم اتريث ، لم انتظر حتى تتم ترتيب منزلها ، وقصدت لساعتى بائع الأزهار وابتعت منه باقة ورد كبيرة حملتها بيد مرتعشة ومضيت .

« وكانت اللحظة المروعة الهائلة ، اللحظة القاطعة الفاصلة ، التى كشفت لى عن سر نفسي ، وبتت فجأة فى مصير حياتى .

« ما ان فتح الباب ورأيتهـــا ، حتى أحسست فرحا عظيما ، فرحا جنونيا ، فرحا طاغيا ، يغمرنى ويخنقنى ، فتهيبت وتراجعت ، واستضاء بغتة عقلى ، واستنار خيـــــالى ، والمسنى فرط الفرح حقيقة عاطفتى ، فأيقنت فى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة فقط .. ان ماضي قد غرر بى ، وأنى لا أحب اعتدال ممثلة فى شخص سناء ، بل أحب فى الواقع سناء نفسها ، سناء زوجة ولدى ! .

« وقدمت اليها باقة الأزهار ، وتمنيت لها السعادة فى بيتها الخاص فتقبلت شاكرة هديتى . ورغبة منها فى تقدير مجاملتى ، ظهرت بمظهرها الحق ، مظهر السيدة الأريبة الانيسة الكاملة ، فتناست ما كان منى ، ورحبت بى ، وبالغت فى اكرامى ، وزادها الادب والظرف حلاوة ، وزادتها الرقة والكياسة جمالا ، وزادها التسامح والصفح فتنة ، فاكتوى صدرى ، وتمزق فؤادى ، وجاشت حسرتى ، وخشيت أن أضعف فتبوح شفتاى بما يكنه قلبى ، فنهضت من فورى وودعتها وانصرفت .

« ولما أوصدت على باب حجرتى ، وشـــملتنى العزلة ، واحتوانى الصمت ، ولاح لى من جديد شبح اعتدال وقد مازجه واندمج فيه هيكل سناء ، أيقنت مرة أخرى ، يقينا لا يتطرق اليه الشك أنى أحبها ، وأن لاغنى لى عنها ، وأنى لابد ذاهب فى غد وبعد غد اليها ، فاستهولت احساسي ، واشمأززت من نفسي ، وتمثلت لى فظاعة عاطفتى وعنفها وطغيانهـــا ، وأدركت أنى لو عشت فلن أقوى على كبحها ولن أقوى على كتمانها ، ولن يحول بينى وبين المصارحة بها فى يوم من الايام ، علمى بأنى سأهدم كل شيء حولى ، وأدمر حياة جميع من أحب ، وأطعن فى الصميم امرأتى وابنى وحبيبتى !

« ولازمتنى هـــذه الفكرة الثابتة ، واستحوذت على ، وتولانى من جرائها شبه هوس ، أقلقنى وعذبنى واستبد بى ، فلم أستطع مقاومته ، وتقت توقا ملحا عميقا الى التخلص منه .

« وتحت تأثير حسرة المرض والكهولة التى قضت على كل أملى .

« وتحت تأثير اليأس من امكان تحقيق حبى .

« وتحت تأثير الخوف ، خوفى من عاطفتى ، وخوفى من ضعفى ، وخوفى من المستقبل ، وخوفى على سعادة غيرى ، تحاملت على نفسي ، واندفعت نحو باب حجرتى ، ثم فتحته فى حذر وهدوء ورفق .

« وفى غفلة عن زوجتى ، وبخطى وئيدة متلصصة ، اقتحمت البهو الكبير ، واجتزت الدهليز المظـــلم ، وتسللت الى غرفة الحمام ، ومددت أصابعى المرتعشة الى حيث الرف الصغير ، وأخذت شفرة من شفرات الحلاقة مهملة قديمة متسخة علاها الصدأ .

وعدت الى حجرتى ، حابسا أنفاسي ، وأغلقت الباب بالهدوء نفسه وقبل أن يراجعنى فكرى ، ويعاودنى ضعفى ، وتخور قواى ، ارتميت على مقعد ، وكشفت عن احدى قدمى ، ثم دفعت السلاح فيها ، وأحدثت بها جرحا مديدا عميقا كنت أعلم حق العلم أنه سيلهب داء السكر فى جسمى ، ويسمم بعد فترة دمى ، وينقذ الغـــير منى ، وينقذنى من نفسي وعاطفتى الى الأبد .

« واستلقيت على فراشي ، وأغمضت عينى لحظة ثم تاه عقلى فى غياهب الماضي . وذكرتها وفكرت فيها ، فكرت فى اعتدال فقط ، وأبيت أن أفكر فى سناء ! ...

« وعند ما هدأت ثورتى ، نهضت وشرعت أكتب اليك هذا الخطاب يا صلاح ، فاكتم السر كما كتمته أنا ، واطو عليه قلبك كما طويت عليه قلبى ، واذكرنى بالخير أو بالشر كما تشاء ، أما أنا فسأمضي مطمئن النفس مرتاح الضمير ، لأنى احتفظت بشرف رجولتى ، ولم افقد تقديرى لنفسي ، ولم الحق الشر والاذى بمن هم أعز الناس على ! ... »

ولما فرغ صلاح من قراءة هذا الخطاب ، أسرع وارتدى ثيابه وذهب الى المستشفى ، ولكن صديقه المسكين ، كان قد لفظ انفاسه الاخيرة عند مطلع الفجر .

هوى الغانيات



حدثنى صديقى « مجدى » قال :

نشأت فى احدى مدن الصعيد ، وأولعت بالأدب ، فلما توفيت والدتى الأرملة ، وآلت الى ثروة الاسرة ، ودعت مدينتى الصغيرة وسافرت الى القاهرة ..

واستهوتنى فى العاصمة حياة الادباء والفنانين فعشت فى بيئتهم ، وعكفت على التثقف والمطالعة والكتابة ، وبدأت أحس أنى قد أنبغ وأتفوق وأبدع فى يوم من الايام عملا أدبيا عظيما ..

وتعرفت اذ ذاك الى شاعر شاب يدعى « عاطف » لطيف المعشر ، جم الفكاهة ، حلو الحديث . وتوثقت بيننا أواصر الود فأصبحنا لانفترق الا ليذهب كل منا آخر الليل الى بيته ليستريح .

ففى ذات يوم من أيام الشتاء ، وأنا جالس الى صديقى الشاعر أحاوره وأجادله فى مذهب من مذاهب الفن الحديث ، سمعت طرقا على الباب ، وخيل الى أن حفيف ثوب فضفاض قد اختلط بصفير الريح . فنهض صديقى وفتح الباب واذا بامرأة رائعة الجمال ، عليها معطف من الفراء البنى البديع ، تدخل بقدم ثابتة ، وتحيى الشاعر ثم تلقى بنفسها على مقعد وهى تلهث وتضحك فى براءة كبراءة الاطفال ، كانت امرأة صبية ، ذات شعر أسود غزير ، تسترسل ضفائره علىجبهة مشرقة ناصعة ووجه طيب مستدير .

لم أطل التحديق اليها فى مبدأ الأمر ، ولكنى سرعان ما أخذت بها ، ومضيت بالرغم منى أتفرس فيها ، وأرى من خلال محاسنها الفاتنة كل ماكنت أنشده فى المرأة من براءة وصراحة ونزاهة وطيبة وحنان .

وقدمنى الشاعر اليها ، فألقت على نظرة فاحصة ، وأقبلت تحادثنى كأنها تعرفنى من زمن بعيد ثم دعتنى لزيارتها ، والحت فى الدعوة ، وقالت انها ما جاءت الا لتلتمس من الشاعر أن يرافق صديقها « حلمى » المريض الى عيادة طبيب مشهور يعرفه الشاعر ويثق فى كفايته .

ولما اغلق الباب ، وانصرفت المراة ، خيل الى ان الغرفة قد تقلص منها الضياء وشاع فى جنباتها فجاة سكون مخيف .

ولاحظ صديقى اضطرابى وتاثرى واعجابى ، فحمل على المراة حملة شعواء ، وطفق يحذرنى ويقول لى انها غانية قاسية لعوب ، متلونة العواطف متقلبة الاهواء ، أولع ما تكون بتعذيب الرجال ، وابتزاز أموالهم واذلال كبريائهم . ثم قص على كيف أن صديقه حلمى أحبها فخدعته ، فازداد تعلقا بها ، فصدت عنه ، فعاد اليها محقرا مهينا مريضا .

وكنت أسمعه وأنا لا أصدق ، لم أستطع أن أصدق أن تلك الجبهة المشرقة يمكن أن تخدع ، وذلك الوجه السمح يمكن أن يكذب ، وتلك الابتسامة الصافية يمكن أن تخون .

كان خيالى أقوى من عقلى ، فأولعت بتلك المرأة ، وخلعت عليها من آمالى وأحلامى وفضائل نفسي ما أحالها فى نظرى من انسان الى ملك كريم ..

واستبد بى طيفها ، ولازمنى وطاردنى وعكر على صفو حياتى ، فلم أجد بدا من الذهاب اليها ، والاتصال بها ، عساى أن انقع غلتى من محاسنها ولو بالتأمل المجرد والنظر الطاهر البرىء ..

واستجمعت قواى وطرقت بابها ذات صباح . وما أن خفت لتحيتى واستقبالى حتى امتقع لونى ، وجف حلقى ، واختنقت الألفاظ على شفتى كأنى تلميذ فى أول موقف حب .

وابتسمت لى وشجعتنى وهدأت من روعى . فاطمأن قلبى اليها ، وأكبرت أدبها وظرفها ، واستسلمت بجمع كيانى الى حديثها الساحر الجذاب ..

وكانت تجر خلفها هرة جميلة بيضاء تطلعت الى فى دهشة ، ثم جعلت تقفز على حجر سيدتها ، وتمرغ رأسها فى صدرها ، والسيدة تقبلها وتضاحكها وتناغيها ، وتقهقه قهقهة مدوية طويلة ملؤها البهجة والنضارة وحب الفرح والحياة .

وكانت « الهام » تعابث الهرة وتنظر الى ، كانت تتأملنى من قمة رأسي الى أخمص قدمى . فزهانى هذا الاهتمام ، فشرعت أتكلم عن حياتى ومستقبلى وحاجتى الشديدة الى امرأة ممتازة تعطف على وتفهمنى . فابتسمت الهام ، وضمت هرتها الى صدرها ، وحولت مجرى الحديث .

فاغتظت منها ، وحسدت هرتها ، واستأذنت بالانصراف وأنا أكبح جماح عواطفى وأعض على شفتى المرتجفتين كى لا أنفجر وأبكى .

وكدت بالفعل ابكى حسرة على نفسي ، وغيرة من الحيوان البرىء ففطنت الهام الى الى ، وقدمت الى يدها الرخصة الناعمة وتركتنى أقبلها ثم نصحتنى أن أتعقل ، ثم عادت فابتسمت وسألتنى أن أزورها فى أى صباح شئت .

وخرجت مثلوج الصدر مغتبطا ، وبدات أزورها فى غيبة صديقها . بدات أزورها كل اسبوع مرة ، ثم مرتين وثلاثا . فكانت لا تكاد ترانى حتى تقبل مهللة على ، تلاطفنى وتجاملنى ، وتشكو الى مرض صديقها ثم ترخى أبصارها فجأة وتتنهد ، تتنهد فى حيــاء مباغت رقيق لطيف دونه حيــاء العذارى .

وضاق صدرى آخر الأمر ذرعا بصبرى فتكلمت ، كاشــفتها بحبى صارحتها بعذابى ، أعربت لها عما يكنه قلبى من خالص الولاء والود ، فنظرت الى طويلا ثم أعرضت عنى ثم تأوهت وتململت ، وحنت رأسها الكليل على كتفيها المتساقطتين ، ومثلت دور المرأة الضعيفة هاجمها الرجل القوى فسلمت وخضعت بعد كفاح طويل .

عندئذ فقدت صوابى ، فجثوت عند قدميها ، وعرضت عليها كل شيء : حياتى وقلبى وشبــابى وثروتى وكل ما ملكت يداى ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، ودنت منى ثم غافلتنى ، وطبعت على خدى قبلة طويلة عميقة شاكرة .

وكانت فترة خالست فيهــــا النعيم ولكنهــــا سرعان ماتبددت كحلم خادع .

بدأت الهام تقبل ثم تعرض ، تستســـلم ثم تتمنع ، تتواضــع ثم تستكبر ، فى دلال ملحوظ يشوبه المكر والخبث .

وفجأة أظهرت لى رغبة عارضة فى مبلغ من المال ، فأعطيتها مبلغا كبيرا أنفقته لفورها فى شراء معطف وثوب ، ثم طلبت مبلغا آخر فأعطيتها أيضا ، فأسرعت وابتاعت قبعات وجوارب وأحذية ومساحيق وكل ماتشتهيه المرأة من أدوات التبرج ووسائل الترف .

وكان المال ينساب من بين أصابعهــا كالماء (ويتبخر) كالهواء ، ويومض لحظة كالبرق ثم ينطفىء كأن لم يكن .

وكانت لا تلبث ان تبدد النقود حتى تطلب غيرها . فاذا راتنى قد تبرمت ، غضبت ونفرت وأعرضت ، وظلت نافرة معرضـــــة حتى تفوز بكل شيء ..

واحسست أنى أنفق عليها فىسخاء جنونى . فثارت كبــريائى ، والتهبت غيرتى ، وأردت أن تكون الهام لى وحدى ، فطلبت اليها أن تنفصل عن عشيقها ، فامتثلت لرغبتى وطردته .

وما أن طردته حتى أنشبت كل مخالبهــــا فى عنقى . أرادت ان تتقاضانى الثمن غاليا فاغترفت من مالى ، وانفقته على زينتها وعلى حفلاتها وعلى أثاث بيتها وعلى الاصدقاء والصديقات الذين كانت تجمعهم حولها . فذهلت وروعت ، ورأيت مالى بعينى رأسي يتناثر فى الفضـــــاء كالرمل ويتبعثر على الارض كالتراب .

رأيت المرأة التى أحب تبتلع ثروتى . فلم أتعــــذب من أجل مالى الضائع بقدر ما تعذبت ليقينى من أن الهام تتجمل لغيرى ، وتعيش لغيرى ، وترتمى فى غمرة مجتمع فاســـــد زائف يسلبها منى ، ويحول بينى وبين الاستئثار بها لنفسي والتمتع بوجودها وفق الطريقة التى اشتهى .

وكنت أشتهى الهدوء والصفاء ، فاصطدمت بالحركة والصـــخب . فعيل صبرى ، وانفجر حنقى ، واستجمعت قواى وطلبت الى الهام أن تغادر القاهرة وتسافر معى بضعة أشهر الى الصعيد ، الى المدينة النائية التى ولدت فيها والتى شاهدت فجر حياتى ومطلع شبابى وآمالى .

وتوسلت اليها فرفضت . رفضت فى عزة وأنفة واستنكار وسخط . ولكى تعاقبنى على جســـارتى ، بالغت فى الاعراض عنى ، واسرفت فى عدم الاكتراث لى ، وشرعت تخرج الى الاندية والمجتمعات والحفـــلات بمفردها ، وتخلفنى فى البيت وحيدا ذليلا منبوذا ، فى صحبةالهرة البيضاء التى كنت أبغضها من صميم قلبى ، والتى كانت تمثل فى نظرى صورة حية من رذائل التلون والتقلب والعبث والاستهتار المفعم بها قلب حبيبتى .

وهالنى ما انفقت . شعرت والرعب يملأ نفسي أنى لم أعد أملك غير مبلغ ضئيل لن يكفينى أكثر من ثلاثة أشــــهر فاختبلت ، ورحت استعطف الهام ، والتمس اليها أن تكف عنالاسراف والتبذير . ولكنها بدل أنترحمنى أصرت على شراء عقد لؤلئى لمحته فى واجهة أحد المخازن واعجبت به . فخشيت ان أنا صارحتها بضيق ذات يدى أن تغضب منى فابتعت لهـــا العقد وانا ذاهل واجم يكاد اليأس يسحقنى . ولما فازت بالعقد تفضلت

على ببعض القبل ثم لاطفتنى فترة وقربتنى . ولما انقضت فرحتها بحيازة العقد ، صبت نفسها الى مجوهرات اندر وأثمن فطالبتنى بالمال ، فارتعدت فرائصي ، واعترفت لها بالحقيقـــة الفاجعـــة بالرغم منى . اعترفت لها بأنى لم أعد أملك شيئا ، وانى فى سبيل حبها واسعادها ضحيت بمالى وقامرت بمستقبلى وحياتى .

عندئذ تنكرت لى واستحالت فى مثل لمح الطرف الى امرأة أخرى أخذت تحقرنى ، وتزدرينى ، وتعيرنى بفقرى ، وتشعرنى من طرف خفى انى قد اديت مهمتى وأن من واجبى أن أرحل .

ولم تعبأ بى ، واستطردت حياتها تنفق بلا حساب ، وترتدى أبدع الأثواب ، وتتحلى بأغلى الجواهر . فثار ثائرى ونهشت الغيرة قلبى ، فراقبتها . وشد ما ذهلت عندما أبصرتها ذات مساء تدخل دار ثرى وجيه ثم تخرج منها متشحة الوجه بنقاب أسود ، منسلة تحت جنح الظلام ، تتلفت حولها مذعورة كاللص ، وتتجه مسرعة صوب منزلها ، وملء نفسها الامل فى أن تصل اليه قبلى .

رأيتها ، أجل رأيتها ملهوفة محمومة ، تجتاز الشارع ، وتدنو من الباب ، وتنادى الخادمة وتســـألها عنى . فغلى الدم فى عروقى ، وتاه فكرى ، فانقضضت عليها ، وأطبقت على فمها بكفى ، ودفعتها الى بهو البيت وهى تتملص وتقاوم وتحاول أن تصيح . ولما ألفيتها لا تزال تكافح وتجاهد وتهم بالافلات منى ، والثبات فى وجهى ، والتوقح ، جن جنونى ، فطرحتهـــا على الأرض ، وطفقت أضربها ضربا عنيفا مبرحا متداركا ثم مددت أصابعى ، أصابعى التى كانت متوترة محددة كالسهام ، ورشقتها فى عنقها ، وجعلت أضغط وأنا لا أعى . فرت أهدابها ، واندلعت عيناها ، وخيل الى أن صفرة الموت قد تمشت فى وجهها البغيض ، فتركتها تسقط على مقعد ، وأخذت أنادى الخادمة وأردد كمعتوه :

اذهبوا اليها ، لقد ماتت ، لقد ماتت !

وانطلقت أحث الخطى ، ولجأت الى بيت الشاعر عاطف صديقى وزميلى والرجل الوحيد الـــذى كنت أثق فى حبه واخلاصه وأهرع اليه كلما أصابنى ضيق أو ألم ، ومضيت أبكى وأصرخ وأهتف انى قتلتهـــا واسترحت .

ولكن خادمتها اقتحمت الدار فجأة ، وأقبلت على تطمئننى أن الهام لا تزال حية . فانتعش قلبى على دهش منى ، وأحسست كأن القـــدر قد

رد الى روحى . فتحاملت على نفسي وعدت ، اجل ، عدت اليها . عدت محطما ذليلا مهينا . تسحقنى اللوعة ويجللنى العار . عدت واكبر ظنى أنها قد ثابت الى رشدها وعولت أن تبقى معى وتخلص لى . ولكنى بعد ثلاثة أيام ، ثلاثة أيام فقط ، ادركت أنهـــا لم تتغير ولن تتغير . عرضت عليها أن اتزوجها ثم أسعى للحصول على عمـــل . فسخرت منى ولوت عنى ، واندفعت تقهقه وهى تهزأ بى . عندئذ عزت على نفسي ، وعزت على كرامتى ، فخرجت هائما على وجهى . استنهض ميت ارادتى ، وأصيح وأقسم أنى لن أعود . ومع ذلك فقد عدت أيضا ، عدت بعد ساعتين ، عدت كما يعود الكلب الى جحره . بيد انى لم أكد اطرق الباب حتى رأيت الخادمة التى عطفت على بالامس تبرز الى جاحظة العينين ، وتنهرنى ، وتوصد باب البيت فى وجهى ، فأيقنت ، أيقنت أن الهام لم تسالمنى بالامس الا خوفا منى وانهـــا اليوم وقد اطمأنت الى ضعفى ، عزمت عزما ثابتا أكيدا على أن تتخلص منى وتطردنى .

وهالنى أن أطرد على هذه الصورة ، واستقر فى نفسي أن الهام هنا فى البيت مع أحد عشاقها تخوننى وتشمت فى . فاندفق الدم الى رأسي ، وغشي عينى ، فدفعت الخادمة فى عنف ودخلت .. لم ار أحدا .. لم تكن الهام فى البيت ، لم أبصر غير الهرة البيضاء ، تموء مواء متقطعا مثيرا ، وتدور حول نفسها ثم تقفز وتنسل فى الزوايا كما كانت الهام تنسل تحت جنح الظلام .

ودقت الساعة الاولى بعد منتصف الليل ولم تعد الهام ، واحتوانى سكون غامر فاتر كأنى فى مقبرة . فأجلت الطرف حولى ، وحدقت الى اثاث البيت ، الى المقاعد والصور والتحف والتماثيل ، الى الاشياء التى اشتريت معظمها بمالى والتى طالما أحببتها وأحبتنى ، فألفيتها هى الاخرى ترمقنى بالنظر الشزر وتصدف عنى . فغلى الدم فى عروقى ونهضت .. نهضت كمعتوه أبحث فى أرجاء البيت عن شيء يمـــكن أن يستجيب الى عذابى ، فلم أجد غير الهرة التى كانت تحوم حولى ، وتتوقع منى أن أجلس كى تقفز على حجرى فانحنيت عليها ، واخذتها بين يدى ، وهممت بأن اقبلها ، وعندئذ فتح الباب ودخلت الهام .

دخلت شاحبة الوجه ، مشعثة الشعر ، زائغـــة البصر . وما أن رأتنى حتى قطبت حاجبيها وصاحت بالخادمة : كيف دخل هذا الرجل الى هنـــــا ؟ .

وقبل أن أتكلم أو أتحرك ، أومأت بيدها الى الباب ، وأردفت وهى

ترعد : اخرج ، بأى حق تدخل بيتى فى غيبتى ؟ . ليس لك هنا أى شيء ! واذا أبيت أن تخرج فسأملأ البيت صياحا وأعرف كيف أطردك ..

فنظرت اليها مبهوتا وفغرت فمى ، لم أعرفها . لم أعرفها اطلاقا . كان توحشها فى الحقد على أقوى ألف مرة من توحشي فى بغضي لها ، فخشعت أمام هيبتها . ارتجفت وخفت . خفت منها كما يخاف أى شجاع برز اليه فجأة حيوان مفترس . ولـــــكنى تقدمت . تقدمت برغم خوفى وبسطت ، بسطت لها أيضا يدى ... واذا ذاك تعلقت بى الهـــرة البيضاء ، وماءت مواءها المتقطع الحاد وأثارتنى ، فطاش صوابى وركلتها بقدمى ركلة هائلة ألقت بها صوب الجدار وكادت تشج رأسها . فصرخت الهام صرخة مدوية ورفعت كفها وصفعتنى !..

جمدت فى مكانى . لم أر شيئا . غام بصرى . شعرت كأن قلبى قد اختطف منى . ثم شعرت على الفور أنى ضائع شارد ، أجاهد عبثا كى أرد قلبى الى صدرى . فكبر على أن أضعف ، وكبر على أن استخذى . فحاولت أن أرتمى على الهام ، وأن أنشب فى عنقها أظافرى . فرأيتها ثابتة أمامى ، تحدق الى شامخة وتتحدانى ، وفى عينها الصلبة الجاحظة يقين مطلق بأنها قد صرعتنى ، وانى لن أستطيع فى هذه المرة مهما حاولت أن أقتلها ..

فتراجعت منسحقا ، وحنيت رأسي ، ودفعت الباب وخرجت ..

خرجت متباطئا متعجبا ذاهلا مشدوها ، أتفقد نفسي فلا أجـــدها ، وأحاول أن أذكر ماوقع فتختلط الصورة فى ذهنى ، ثم تلفنى فى عبابها المظلم ، وتتقاذفنى صورة فى أثر صورة كأنها الامواج ..

وخارت قواى دفعة واحدة ، وتصبب العرق منى . فتقهقـــرت وارتميت ، على احدى درجات السلم ، وطمرت وجهى بين راحتى وأخذت أفكر ..

ولم أدر كم من الوقت لبثت أفكر .. وفجأة سمعت وقع أقدام.. وترامى الى صوت رجل يرنم لنفسه فى صوت خافت أغنية شائعة وهو مقبل على . فنحيت أصابعى المهزومة عن وجهى ، ورفعت بصرى ، وحدقت الى الرجل فى جوف الظلام .. يالتلك اللحظة القاصمة التى لن انساها ماحييت ! .. عرفت الرجل ! .. كان هو ! .. هو بعينه !.. صديقى ! .. صديقى عاطف الشاعر المخلص الوفى ! ..

وبهت اذ رآنى ، واضطرب وتلعثم ولم يدر ماذا يقول . فتفرست

فيه برهة وتيقنت .. تيقنت انه خانني ، وانه اتصل بالهام ، وانه على موعد معها الليلة . فتمزق قلبي كما لم يتمزق قط في اقسي لحظة من لحظات عذابي الطويل . فانحنيت على عاطف ، وطوقته بذراعي ، وقلت هامسا في اذنه والدمع يكاد يطفر من عيني : اسمع .. اسمع ياصديقي . انا الليلة اشقى واتعس انسان ! ... لاتدخل هذا البيت الليلة ! .. لاتخدعني الليلة ! .. الليلة فقط .. لاتخدعني هكذا امام عيني .. اذهب من حيث أتيت .. يمكنك أن تعود غدا .. ارحمني ! .. ابق على حبي لك وتقديري ! .. افعل هذا من أجلي ياعاطف ! ..

فتردد لحظة ثم قال : ظننتك قد انفصلت عنها ..

وأردف وهو يبتسم : هل تظن من اللائق أن أدعها تنتظر ؟

فأمسكت به وغمغمت : أتوسل اليك أن تذهب !

فصاح وهو يهزني من ذراعي : ألم تعرف بعد من هي ؟ .. انها لحماقة منك أن تغار على غانية كما أنها حماقة مني أن أضيع هذه الفرصة ..

وربت على كتفي وقال وهو يضحك : لاتكن طماعا ودع شيئا لغيرك ..

وتملص مني واستدار ومشي .

ولما رأيته يمشي ، عريض المنكبين ، مفتول الساعدين ، مزهوا بشبابه ووقاحته وعدم اكتراثه ، تصاعدت من أعماق أحشائي موجة هائلة من الاشمئزاز طوقتني وخنقتني . فأتبعته النظر وهو يدخل البيت ، وأتبعته النظر وهو يطرق الباب ، ولبثت أحدق الى الباب العريض الموصد وانا ساكن هادىء متبلد ، أستغرب من نفسي شعور الصفاء الغامر الذى تمكن مني فجأة واستولى على ..

وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة فقط ، أدركت معنى صفائي ، وأيقنت .. أيقنت انى قد شفيت لانى كرهت واحتقرت .. احتقرت.. كل شيء في هذه الدنيا ، الحب والصداقة ، المراة والرجل على السواء !

ذات الزهرة الحمراء



كانت أميرة هانم حرم المحامى الذائع الصيت الاستاذ عاصم بك ، امراة فى نحو الثلاثين من عمرها ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، ممشوقة القد ، فى نظراتها حدة تمازجها طيبة ، وفى حركاتها وسكناتها هيبة تلطفها ابتسامة وديعة تنم عن نفس خيرة وقلب سمح .

وكانت قد انحدرت من أسرة عريقة فى الجاه والعلم ، فجـدها محسن باشا كان طبيبا نابغا ، ووالدها مرشد بك كان قاضيا مشـهورا وشاعرا متفوقا ، وأمها سيدة المانية أولعت بدراسـة الآثار المصرية ، وأعجبت بشخصية مرشد بك ، فتركت بلادها وأهلها واقترنت به .

وحدث بعد أن تخرجت أميرة من أكبر كلية للراهبات فى القاهرة . أن تعرفت فى احدى الحفلات الى الاستاذ عاصم فلم يصرفها عنه فقره وخمول ذكره ، بل راعها منه جماله وطموحه وعزمه الصادق على احراز الشهرة والمجد فأحبته ، كما راعه منها حسنها المهيب ، وخلقها المتين ، وثقافتها الرفيعة ، فأحبها هو الآخر وتزوجها ، وأفرد من بيته جناحا لمكتبه وشرع يعمل ويجاهد وهو بقربها .

والحق أن أميرة هانم كانت لعاصم زوجة وحبيبة وشريكة .

كانت تدير شئون بيته فى دقة وصرامة ونظام ، وتحبه حبا جما وتغار عليه غيرة شديدة ، وتخفى غيرتها ما استطاعت تحت مظاهر العزة والانفة والكبرياء .

ولما اشتهر عاصم ، وأصبح مستشارا لعدة شركات ، وانكب على وضع مختلف الكتب فى القانون ، عاونته فى عمله . فكانت تعـد له مراجعه ، وتنقل بخطها الجميل مسودات كتبه ، وتتلقى يوميا رسائله فتفتحها وتقرؤها وتبوبها ، ثم ترسل العادية منها الى الباشكاتب والهامة الخطيرة الى زوجها .

وكان عاصم بك يحبها ، ويعجب بها ، ولا يعيش الا لمهنته ولها ، أسعد مايكون بجو الراحة والسكينة التى عرفت كيف تنشره حولها ،

وكيف تسكبه على بيتها ، وكيف تغدق منه فيضا زاخرا على زوجها النابغ العظيم .

ولم يكن فيها من عيب سوى غيرتها . ولكن طيبة قلبها المقرونة بكبرياء نفسها كانت تحول بينها وبين محاولة التسلط بغيرتها على حرية زوجها ، كما أن سلوك عاصم بك نفسه كان سلوكا واضحا صريحا مستقيما يبعث الثقة الكاملة والطمأنينة المطلقة .

وهكذا كان الزوجان يعيشان فى وفاق تام وفى غمرة حب رائع خصب ، لا هم للرجل الا عمله ومطامعه واسعاد زوجته ، ولا هم للمراة الا معاونة الرجل وحثه على التقدم ودفعه ما استطاعت الى الامام .

ففى ذات صباح ، وبينما اميرة هانم جالسة الى مكتبها ، تفض الرسائل التي وردت بالامس الى زوجها ، وقع بصرها على غلاف ازرق باهت كئيب ما ان فضته وقرات الخطاب المندس فيه ، حتى امتقع وجهها ، ولمعت عيناها ، وارتجفت .. لم تصدق لاول وهلة .. لم تستطع أن تتصور ، لقد صارحها زوجها بكل شيء ، بكل ما وقع له ايام عزوبته ، بكل مغامراته النسائية . فكيف أخفى عنها هذه العلاقة القديمة ، ولماذا اخفاها ، وهل كانت وثيقة الصلة بقلبه وروحه الى حد أنه آثر كتمانها والاحتفاظ بها لنفسه ؟ ..

وعصفت بأميرة هانم غيرة جامحة طائشة ، هزت كيانها من الاعماق فأكبت على الرسالة ، وشرعت تقرؤها من جديد ، وتنعم النظر فى عباراتها وهى تختلج ..

وهذا ما قراته :

عزيزى عاصم .

لم ازل افكر فيك بعد انقضاء عشر سنوات .. عشر سنوات لم ارك فيها ولم احبب خلالها رجلا سواك .. كنت مؤمنة بك وكنت اود ان اكون امراتك الى الابد كما منيتنى .. ولكنك عبثت بى ثم اعرضت عنى ثم سخرت منى وهجرتنى . ولما تشبثت بك اغلظت لى القول ثم قطعت كل صلة لك بى . هذه الصدمة سحقتنى ثم تلتها صدمات كادت تجهز على . مات والدى وتبعته والدتى ، وانطلقت انا الارملة الفقيرة المسكينة اصارع الحياة بمفردى . ولم أجد فى القاهرة لا عملا ولا زوجا . فسافرت الى الاسكندرية واشتغلت عاملة فى احد المخازن ..

ثم مرضت بداء القلب ففصلونى ، فعدت الى القاهرة انشد عون ابن عمى الثرى البخيل ولكنه تبرم بى وصدعنى وطردنى ..

ولقد حدث أن طرقت باب احدى الشركات منذ اسبوع ، فأشفق على مديرها ووجد لى عملا فى فرع الشركة فى بور سـعيد التى يجب ان اسافر اليها بعد ثلاثة أيام . ولقد ذكرتك ياعاصـم وأنا هنا فى القاهرة ، ذكرتك كما كنت أذكرك فى كل مكان .. هفت نفسي اليك .. وددت أن أراك ولو فترة . أن أبعث ماضينا الجميل ولو لحظة . أن اتملى من النظر اليك قبل أن أودع المدينة الرائعة الغادرة التى شاهدت عذابى وذلى وحبى الاول والاخير .. أنا أعلم أنك تزوجت وأنك اصبحت رجلا عظيما ولكنى لست حاقدة عليك . ومن المحال ان أفكر فى تعكير صفو حياتك . كل ما ألتمس هو أن أراك .. أراك ولو بضع لحظات بل بضع دقائق . يجب ألا توجس خيفة منى . يجب ألا تخاف منى يا عاصم . لقد أصبحت امرأة بائسة دميمة حطمها العمل والمرض والفقر والجوع . وفى يقينى أنك لو رأيتنى فلن يمكنك أن تعرفنى .. فاشفق على ودعنى اراك .. لا تكن قاسيا كما كنت فيما مضي . تعال فسأنتظرك . سأنتظرك فى الساعة الخامسة من مساء الغد فى حديقة الازبكية بجوار الباب البحرى فى المكان الذى كنا نلتقى فيه منذ عشر سنوات . وسـأرتدى ثوبا أسود وأحمل بيدى زهرة حمراء كى تعرفنى .. فأتوسل اليك أن تأتى . أن تمنحنى هذه النعمة قبل رحيلى . أن تكون انسانا طيبا بقدر ما أنت رجل عظيم . فلا تخيب الآن سؤال المرأة المسكينة التى وهبت لك بالامس كل شيء ، والتى لا تطلب منك اليوم الا أن تجود عليها بأقـل شيء .

« اعتماد »

وطوت أميرة هانم الرسالة بيد مرتعشة ودستها فى الغـلاف . ونادت الخادم ، ورجته أن يحملها مع بعض رسائل أخرى الى الغـرفة المجاورة التى يعمل فيها زوجها .

وكانت الغيرة تأكلها ، والقلق يساورها ، والخوف يملأ خيالهـا بالوساوس والشكوك .

اثرت فيها تلك العبارات الحارة الملتهبة . وخشـيت أن تحدث التأثير نفسه فى قلب زوجها . استغربت امر تلك المرأة التى يئسـت دهرا ثم دب فيها على حين فجأة امل صـبيانى أوهى من نسـيج

المنكبوت . ولكن هل هى حقا معذبة ، وهل هى حقا صادقة ، وهل كل ما تطلب هو أن ترى « عاصم » ثم تمضي فى سبيلها ؟

ستقف أميرة على كل شيء . ستصمت وتنتظر حتى يحين الموعد المضروب . ستمتحن وفاء زوجها وترى هل سيلبى النداء او يغفل الرسالة كأن لم تكن .

وكان هذا اليوم هو اليوم الذى عينته اعتماد فى خطابها ، فجاهدت أميرة هانم لتحتمل عبء ساعاته الطويلة الثقيلة الخانقة .

وباغتها المساء وهى تتقلب على مثل جمر النار ، وأوشكت الساعة أن تدق الخامسة فأسرعت أميرة هانم ، واتجهت صوب حجرة زوجها ، ونظرت من ثقب الباب . فألفت الرجل جالسا الى مكتبه . مكبا على عمله ، مستغرقا فى وضع كتابه ، يدون سطوره فى عناية واتئاد وهو يدخن .

وكانت تعلم أنه يقرأ رسائله حال وصولها اليه ، فلما ابصرته منهمكا فى العمل ، أثلج الفرح صدرها ، وهمت بدخول الحجرة ولكنها توقفت .

طاف بذهنها شبح اعتماد ، ذكرت كل كلمة من كلمات خطابها الفاجع .. تمثلت المرأة وهى تتلهف وتتحرق وتنتظر . فاستهولت قسوة زوجها وعدم اكتراثه بعد أن كانت قد استهولت احتمال اقدامه على الخيانة ، وفجأة ، وفى يقظة من يقظات قلبها الطيب ، وفى أخذة من أخذات فضولها النسوى ، أرادت أن تتحرك ، أن تذهب ، أن ترى ، أن تتعرف الى تلك المرأة التى أحبها عاصم ثم غدر بها ، والتى أحبته وما تزال تحبه بعد فراق عشر سنوات ..

وهجس فى روعها أن اعتماد قد تكون كاذبة ، وقد تكون ماكرة ، وقد تكون جميلة ، وقد تحاول العودة الى مطاردة عاصم واستدراجه بأية وسيلة أخرى . فأرادت أن تكشف النقاب عنها ، وان تتبين جلية أمرها ، وان تقف على حقيقة نواياها ، لتهدأ وتطمئن وتستريح .

ولم تتردد ، وارتدت ثيابها مسرعة ، ثم غادرت البيت ، واستقلت سيارة الى حديقة الازبكية ، وشرعت تبحث بجوار الباب البحرى عن المرأة المتشحة بالسواد ذات الزهرة الحمراء .

ولمحتها جالسة على مقعد بمفردها ، ورات الزهـــرة فى يدها ، وتيقنت أنها هى ، فتقدمت نحوها بخطى وئيدة ثم اجفلت وتراجعـت وجمدت .. لم تصدق بصرها .. رات هيكلا لا امراة ، هيكلا عظميا مروعا .. امرأة صغيرة نحيلة ، شاحبة الوجه ، غائرة العينين ، مقوسة الكتفين ، بائسة تاعسة مسكينة ، لا يمكن أن يؤخذ بها اى رجل ، ولا يمكن أن تسترعى اهتمام انسان . فتأثرت أميرة هانم ، وخفق قلبها ، وغمرتها موجة من الشفقة على هذا المخلوق المحطم الذى هو ضـــحية زوجها . فدنت من المرأة وحيتها ، وقالت فى صوت عذب رقيق :

ــ أنا حرم عاصم بك يااعتماد هانم !

فانتفضت اعتماد ، وحملقت فى وجه السيدة وغمغمت : زوجته ؟

ثم هتفت : هل هو مريض ؟ .

فابتسمت أميرة هانم وقالت : كلا .. انه متعب وقد كلفنى أن أعتذر اليك ..

فصاحت اعتماد : أنا التى أعتذر اليك ياست هانم .. !علك قرأت رسالتى ، سامحينى ، أعتقد أنه لا يمكنك أن تخافى على زوجك امرأة مثلى ! ، انه لك ياسيدتى وأنت تستحقينه ! أما أنا فمن أكون بالنسبة له ؟ كل ما كنت أريد هو أن أراه ! .. أن أراه قبل رحيلى .

وسقط رأسها على صدرها وانهمرت من عينيها الدموع . فنظرت اليها أميرة هانم وتفطر قلبها . ماتت الانثى فى نفسها فجأة واستيقظت المرأة . ماتت الغيرة فى فؤادها بغتة واستيقظت الرحمة . مات التردد فى عزيمتها ، واستيقظت الارادة النبيلة الطيبة ، فانحنت على أعتماد ، وأمسكت بذراعها ، وصاحت بها وهى تربت على كتفها : انهضي .. انهضي يابنيتى وتعالى .

فتطلعت اليها المرأة وقالت : الى أين ؟ ..

فأجابت أميرة هانم : الى بيتى .. حيث ترين« عاصم » بك ! ..

فاختلجت اعتماد ، وانخلع قلبها المريض وظل يخفق . فتحسسته باحدى يديها ومضت تضرب الهواء باليد الاخرى لتستطيع ان تتنفس . ولما هدأت أعصابها تحاملت على نفسها ونهضت . نهضت مسـلوبة الحول ، طائرة اللب ، وزهرتها الحمراء تترنح فى يدها ، وتبعت أميرة هانم ، وانطلقت تمشي ساهمة شاردة تائهة .

وطرقت أميرة هانم باب حجرة مكتب زوجها وقالت : اتسمح بالدخول ؟ ...

فأجاب فى صوت عميق جهير : ادخلى يا أميرة ..

ففتحت الزوجة الباب ، ودفعت أمامها اعتماد ، ثم قالت، وهى تبتسم : عفوا اذا كنت قد عكرت عليك صفو عملك ، ولكنى أحمل اليك مفاجأة لابد ان تسرك .. هذه صديقة قديمة ابت الا ان تراك واعتقد انك انت أيضا ستكون مبتهجا برؤيتها .

فنهض عاصم بك ، ونظر الى امراته مستغربا ، وقال وهو يبسط يده الى اعتماد : معذرة ياسيدتى ، . لا . ، لا أذكر أنى تشرفت قبل اليوم بالتعرف اليك ، تفضلى ، تفضلى بالجلوس .

فضحكت أميرة هانم وصاحت : الم تعرفها ؟ ..

فدنا عاصم بك من المرأة ، وتفرس فيها لحظة ، ثم تراجع وهتف : اعتماد ! ...

فرفعت اليه اعتماد بصرها .. رفعت اليه بصرها الزائغ ، وتعلقت عيناها بعينيه السوداوين ، وجبينه العريض ، وأنفه المستقيم ، وفمه الدقيق الجميل جيث تهتز شفتاه الحمراوان الملوعتان .

وطفقت تتأمله وهى ترتجف وقد انعقد لسانها ...

وكان هو أيضا يتأملها ، كان ينظر الى وجهها الشاحب ، وخديها الغائرين ، وزهرتها الحمراء ، وثوبها البالى ، وعينيها اللتين تعبان فيه من فرط الظمأ اليه .

وفجأة اضطرم خياله ، وتحرك ضميره ، وذكر الماضي ؛ وأحس احساسا طاغيا جارفا ان قلبه الغادر هو الذى عبث بهذه المرأة ، وان شبابه الغاشم هو الذى غرر بها ، وان يده القاسية هى التى هصرت غصنها ، وعصفت بحياتها ، واحالتها اليوم الى كومة بائسة من حطام . فانحنى اليها وتناول يدها وصاح :

ــ صفحا يا اعتماد .. لقد قرأت رسالتك وكان يجب .. كان يجب ان أذهب اليك .. ولكنى أصبحت رجلا استغرقه السعى فى طلب الشهرة والمجد والمال فالتهمت الاباطيل حياته وجففت البقية الباقية من

ماء قلبه .. فصفحا عنى يا اعتماد ، وشكرا ، شكرا لزوجتى التى قرأت خطابك ففكرت فى أن تقوم بالواجب نحوك بدلا منى .

وأخذته النخوة . فاندفع الى خزانة حديدية قائمة بجوار مكتبه وفتحها ثم انتزع منها رزمة من الاوراق المالية دفع بها الى اعتماد وهو يردد :

ــ خذى ، خذى ، وكلما احتجت الى مال وجدتنى طوع امرك ! .

فاصفر وجه المرأة ورفعت رأسها وقالت وزهرتها الحمراء التى كانت قد دستها فى صدرها تلمع كالجوهرة فى هذا الصدر ذى العظم الناتىء المخيف : لقد وجدت العمل فما حاجتى الى مزيد من المال ! .. انا ما جئت أطلب مالا انمـــا جئت فقط لأراك ! .. ولقد رأيتك واطمأن قلبى الى السعادة التى عرفت زوجتك المخلصة الطيبة كيف توفرهـــا لك ! .. هذا حسبى ! أما الآن فيجب .. يجب أن أرحل .. انتهت اللحظة التى طالما تضرعت وابتهلت الى الله كى يمن بها على ! .. يجب .. يجب أن أرحل ! ..

فأمسك بها عاصم بك ، وحاول هو وامرأته أن يقنعـــاها بقبول المال ولكنها رفضت . رفضت فى اباء وحزم واصرار ثم مدت يدها الضامرة وصـــــافحت أميرة هانم وهى تشكرها . ثم دنت من عاصـــم بك ، وتوقفت بالرغم منها ، وصوبت اليه بصرها الزائغ ، ثم علقت عينيها الظامئتين بوجهه الجميل ، ثم مدت اليه يدها وهى ترتعش . فتناول اليد الضامرة بين يديه . فحدقت اليه اعتماد فى خشوع ، وانعقد لسانها مرة أخرى وجمدت .. لم تستطع أن تتحرك .. تولتها رعدة كرعدة المحموم عزت عليها هذه اللحظة الفريدة التى كان مقدرا لها أن تومض كالبرق ثم تختفى ، وعزت عليها مفارقة هذه السعادة بعد أن ظلت تحلم بها عشر سنوات . فانهمر الدمع من عينيها ، ولبثت واقفة ، ممســكة بقلبها المريض لا تعرف كيف تكبح خفقانه ، ولا تدرى كيف يمكن أن تذهب والى أين يمكن أن تسير ؟

وشعرت أميرة هانم بعمق عذابها ، وتمزق فؤادها شفقة عليها ، فتقدمت .. تقدمت من تلقاء نفسها .. تقدمت مدفوعة بعاطفة انسانية اقوى منها ، وصاحت وهى تدفع باعتماد نحو عاصم بك : قبليه يا بنيتى قبليه قبلة الوداع ! فهذا حقك بل هذا اقل ما يجب أن تتزودى به قبل رحيلك !

فبهتت اعتماد لحظة وترددت ، ثم لمست عيناها ، وتالق وجهها ، واندفعت بالرغم منها كمعتوهة ، وعانقت « عاصم » بك ثم قبلته بجمع حبها وعذابها وحسرتها ، قبلة متلهفة طويلة زاخرة ..

وتلقى الرجل القبلة والبدن وهو مذهول ، مذهول من تلقى هذه القبلة المفتونة ، ومذهول من اتقاد الحرارة والحياة فى هذا البدن الهزيل المريض ..

وانقضت بضع ثوان .. وارخى عاصم ذراعيه ، وهم بان يدفع عنه اعتماد . ولكنه أحس البدن الهزيل يتشبث به ، ووطأته تثقل بغتة وتنوء عليه ، فاحتضنه خشية ان يسقط . ونظر فيه طويلا ، ثم تحسسه مذعورا فألفاه باردا برودة الثلج فصرخ : لقد اغمى عليها !

فأسرعت أميرة هانم وأسندت البدن بذراعيها المرتجفتين . ولكنها ما أن لمسته ، وتأملته ، ورات التقاطيع الجامدة الناتئة ، والعينين الزجاجيتين الخاويتين ، والفم الملتوى المفغور ، حتى ارسلت بدورها صرخة مدوية ، وقالت : الا ترى ؟ ، انها ميتة ! ميتة ! أصابتها من فرط الفرح بتقبيلك نوبة قلبية قضت عليها !

فجن جنون عاصم بك ، وحمل الجثة بين ذراعيه ، ومددها على مقعد مستطيل . فسقطت الزهرة الحمراء على الارض ، وساد الغرفة صمت عميق رهيب .

وحاولت اميرة هانم ان تتكلم ، ولكن الالفاظ تعثرت على شفتيها واختنقت فى صدرها .

وافاق عاصم بك من غشيته ، والقى على الجثة الممدة نظرة ،فاقشعر بدنه ، وارتعدت فرائصه ، ولم يستطع ان يواجه الجثة خشية ان يواجه نفسه . فتحول عنها . وعض على شفتيه ، وقال لزوجته فى صوت غائر اجش : ان منظرها فظيع ! .. لا ينبغى ان تظل هكذا ! .. فى وسعك ان تأتى بملاءة بيضاء وتغطيها ! .. اما انا فسأخرج ! .. سأسرع من فورى لابلاغ البوليس !

فعدت اميرة هانم صوب مخدعها ، ولبث عاصم بك واقفا ، كأنما هو قد سمر فى الارض ، مطرق الراس ، محدودب الظهر ، متساقط الاعضاء خائر القوى .

وفجأة ، وقبل ان يهم بالخروج حانت منه التفاتة فأبصر الزهرة ،

الزهرة الحمراء القانية ، تلمع كالجوهرة فى ارض الغرفة بجوار المقعد المستطيل ، فانحنى والتقطها ، ثم فاضت نفسه . وجاشت عواطفه ، وطفق يقبلها ، ويجهش بالبكاء .

فى تلك اللحظة عادت أميرة هانم تحمل الملاءة البيضاء . وما ان دخلت الغرفة حتى لمحت زوجها يختلج ، ويقبل الزهرة فى حرقة ويبكى . فتوقفت مبهوتة وحدقت اليه . فاضطرب واستدار ولم ينبس بكلمة . بل القى بالزهرة على المكتب ، ثم صعد نفسا مستطيلا ، وخرج دون ان ينظر الى امرأته ، مطرق الراس ، محدودب الظهر ، متساقط الاعضاء .

وعندئذ . عندئذ فقـــط ، أدركت أميرة هانم أن ماضي زوجها قد استيقظ فيه ، وأن قلبه لم يعد ملكا لها وحدها ، وانه قد بدأ منذ اليوم ؛ بل منذ الساعة ، يكفر عن ذنبه ويحب اعتماد وهى ميتة ، فثارت ثورتها ، واضطرمت غيرتها ، وانقضت على المكتب ، واختطفت الزهرة الحمراء ثم عضتها بأسنانها ، ومزقت أوراقها بأظافرها ، وفتحت النافذة وبعثرت الاوراق فى الفضاء .

ولما تلفتت وأبصرت الجثة ، وتفرست فيها ، فى تقاطيعها الناتئة ، وعينيها الزجاجيتين ، وفمها المفغور ، تمنت لو أن فى وسعها أن تردها الى الحياة لتستطيع أن تقتلها مرة ثانية ! .

الطائر الصريع



نشأ « عاصم » فى أسرة محافظة شديدة التمسك بالتقاليد فوالده المقاول المشـــــهور عبد الرحيم أفندى كان رجـــلا ضيق الأفق ، متزمتا صارما ، يحجب امرأته فى بيته ، ويفرض الطاعة على ولده ، ويكـــــره الحرية والاختلاط .

وكانت زوجته الجاهلة تعجب به ، وترى فيه مثال الرجل الكامل أما عاصم فكان فى البدء يخافه بل كان ينفر منه ويتبرم باستبداده . ولكن شخصية عبد الرحيم أفندى الصلبة المتكبرة العنيدة ، تغلغلت فى نفس عاصم شيئا فشيئا . فتطبع الولد بطباع أبيه ، وألف أن يقلده ، حتى شب وترعرع وأصبح شبه صورة ناطقة منه .

ولما أتم عاصم علومه ، وظفر بشهادة الحقوق واشتغل محاميا كان أبوه قد توفى ، فتقمص هو شخصية عبد الرحيم أفندى وراح يبســـط سلطانه المطلق على أمه وعلى البيت .

وطاب للأم أن ينشأ ابنها الوحيد على غرار والده . فأسلمت له قيادها ، واستعذبت منه أن يعاملها بالشدة التى كان يعاملها بها زوجها .

ولكن « عاصم » لم يكن فى كل شيء صنو أبيه . كان عبد الرحيم أفندى قاسيا على الغير ، وقاسيا فى الوقت ذاته على نفسه . كان يطالب الغير بالحشمة والوقار والتزمت وقهر الشهوات ثم يفرض كل هذا على نفسه أيضا . أما عاصم فكان يقتدى بأبيه فى العرض دون الجوهر ، وفى المظهر دون الخلق . كان ينزع مثله الى العظمة والتحكم والاستبداد وفرض الدقة والنظام وروح الاستقامة والشرف فى بيته . ولكنه كان يفصل كل الفصل بين مسلكه فى البيت ومسلكه فى الحياة . كان فى بيته قاسيا وصارما ، وفى حياته الخاصة مستهترا وعربيدا ، كان يحتم الفضيلة على أهله ويبيح لنفسه هو ماشاء من لذات وشهوات .

وكان يعتقد ان بيته مادام مكفول المطالب ، وعرضه موفور الصيانة والامن ، فمن حقه هو أن يتيه خيلاء وعجبا ، وان يعيش فى الخارج حرا طليقا ، لايسمح لانسان بأن يحاسبه على سلوكه الشخصي . لان مايعيب

الرجل ، فى عرفه هو ، أن يكون بخيلاعلى اهله او ناقص النخوة والرجولة فيدع لوثة العار تمس بيته أو تتطرق شبهة منها الى احد افراد اسرته.

وهكذا كان عاصم يأخذ بجانب واحد من شخصية ابيه ، فيغلو فى التسلط على بيته ، ويسرف فى الغيرة على أمه وعلى أرملة عمه وبناتها الثلاث ، ثم يطلق بعد ذلك العنان لغرائزه مطمئنا على شرف بيته وأهله ، ناعم الفكر رخى البال .

وكان عاصم شابا وجميلا . وكانت الحياة فى عهده غيرها فى عهد أبيه ، فعاش فى بيته رجعيا وفى دنياه عصريا مستمتعا ، يرتاد المقاهى الكبيرة ، ويغشي المسارح ودور السينما وملاهى الليل ، ويشرب الخمر، ويلعب الميسر ، ويتصل بالغانيات ، مكتفيا بالشهادة التى أحرزها وبالمهنة التى يمارسها لايستزيد شيئا على علمه الشائع فيها .

بهذا التناقض الصارخ بين مسلكه فى بيته ومســـلكه فى حياته الخاصة ، بهذه الشخصية الموزعة المفتقرة الى ارادة عاقلة تقــر فيها الوحدة والانسجام ، تطلع عاصم الى المرأة وفكر فى الزواج . وكان قد بلغ الثلاثين من عمره ، وزهد فى حياة اللهو وعاف قرب الغانيات . فهجس فى روعه أن يستريح وان يقترن باحدى بنات عمه . ولكنهن كن فقيرات وانصاف متعلمات وأشباه جميلات . فانصرف عنهن متأبيا ، وشرع يبحث عن فتاة خليقة بأن تكون زوجة محام . فتاة متعلمة وميسورة وجميلة ، يرفع رأسه بها ، ويناسب عن طريقها أسرة طيبة وراقية .

وأسر بهذه الرغبة الى ابن خالته وصديقه الدكتور مختار فأطرق مختار فترة ، وفكر طويلا ، ثم لمعت عيناه وهتف بعاصم قائلا : لماذا لاتتزوج نعيمة بنت زميلنا الطبيب الذائع الصيت الدكتور كمال ؟

فأجفل عاصم وأشرق وجهه .

وكان قد رأى نعيمة فى بيت ابن خالته مرتين وأعجب بها اعجابا شديدا . ولكنه لم يكن قد فكر اذ ذاك فى الزواج فنسيها كما نسي غيرها . فلما ذكره بها مختار انبثقت الفتاة فجأة من أعماق خياله ؛ وتمثلت له بجمالها الرائع وذهنها اللامع وذكائها الوقاد .

وكانت نعيمة فتاة ممتازة فى كل شيء ، تعلمت تعليما عاليا وتخرجت من الجامعة ظافرة بشهادتين فى الآداب والحقوق . فجمعت الى جمالها الباهر ثقافة غزيرة ضاعفت ذلك الجمال سحرا وفتنة . وكانت غلامية

القد فى خفة ورشاقة ، دقيقة التقاطيع فى اتساق وهيبة ، مموجة الشعر فى جراة ، يشع من عينيها السوداوين الواسعتين ضوء خلاب تغمره يقظة الفكر ، وعزة العقل ، وثقة النفس ، وفرط الشعور بقيمة الشخصية .

واستحوذ طيف نعيمة على خيال عاصم لحظات . فاندمج فى الطيف واطرق هو الآخر يفكر ، ثم نهض لفوره مثلج الصدر مبتهجا ، وصافح ابن خالته ، والتمس منه أن يسرع ويتصل بأسرة الدكتور كمال ، ويقيم لها فى بيته حفلا عائليا يتيح لعاصم فرصة التعرف الوثيق الى نعيمة .

واقيم الحفل بعد أسبوع . وأقبلت نعيمة فى صحبة أبيها وأمها واخويها وشقيقتها الصغرى عنايات . فما ان أبصرها عاصم ، وجلس اليها ، واستمع لحديثها ، حتى راعه منها ثقافتها العالية المقترنة بجمالها الساحر . فازداد اعجابا بها ، وراح يفتن فى استمالتها وكسب ود أبيها وأمها . تحفظ وتأدب ما استطاع . ظهر بمظهر الرجل الاجتماعى الكامل .. وطفق يتظرف فى اتزان ، ويتحدث فى روية ، ويثير موضوعات خطيرة وعميقة ، يحشد لها كل ماوسعه ذهنه من معلومات ، ثم يتجه بها الى نعيمة ، ملتمسا منها أن تعرب له عن رأيها فيها ، وان تشاركه فى بحثها وايجاد حل لها .

وغالب طبعه المتكبر وتمادى فى المجاملة والتواضع ، فأخذت الفتاة برقته ودماثته ، وراقها منه هى الاخرى ان يجمع الى جمال الوجه سعة الذهن ولطف المعشر وسماحة الخلق ، فرأت فيه الشاب المتعلم المهذب الذى طالما حلمت به ، فقربته اليها ، واهتمت به اهتماما ظاهرا ، وقبيل انفضاض الحفل ، أثنت عليه أمام والديها ، وشاركت أمها فى دعوته لزيارة بيتها

ودخل عاصم بيت نعيمة ، واتصل عن كثب بها . وما ان انقضت بضعة أسابيع حتى كان قد أحبها وأحس وهو مذهول أنها قد كبلته ، وأسرته ، وأن لاغنى له عنها . وعندئذ حزم أمره وصارحها برغبته فى الزواج منها ، فلم تتمنع ولم تتدلل ، ومنحته يدها راضية وواثقة ، فتقدم الى اهلها جذلان .. وطلبها ، فرحبوا به مبتهجين ، وتم زواجه ، وفاز بنعيمه .

وعاش عاصم بضعةاشهر فىنشوة حالمة قريرة ملكته واستغرقته. كانت امرأته فى نظره كل شيء فى الدنيا . فودع العالم وانكمش بجوارها،

وأحس وهو متعجب ومأخوذ انه يتحول ويتبدل ، ويألف الأمن والدعة ، والصفاء والراحة ، والسكينة والاستقرار .

وجرفته هذه النشوة . فزايله كبره واستبداده وميله الى السيطرة والتحكم ، وانقلب الى رجل لين الطبع ، دمث الخلق ، وديع وظريف . فولعت به نعيمة ، وحسدت نفسها عليه ، وازدادت تقربا منه وتقديرا له وثقة فيه

وكان من فرط شغفه بها لايكاد يخرج الى الملاهى فى صحبتها ، حتى يتمثل نشوة النعيم التى ستغمره فى قربها . فيتبرم ويتضجر ، ويستعجل العودة الى البيت أظمأ ما يكون الى امتلاك زوجته والتمتع بها .

وأعتقدت نعيمة البريئة ، الساذجة ... برغم ذكائها ، أن هذا هو الحب . بل آمنت أن أبلغ دليل على حب عاصم لها هو رغبته الشديدة فيها ، وتلهفه الدائم عليها ، وميله العميق الى الدعة والسكينة ، وايثاره بيته على العالم كله .

غير أن المتعة الحسية هى التى كانت تسوق « عاصم » من حيث لايدرى . المتعة الجديدة الطريفة . المتعة التى تخلب معظم الرجال فى مستهل حياتهم الزوجية . المتعة المجردة لا الحب . ولما كان عاصم فى مبدأ زواجه فقد ستر نقائصه ، وعمل على اخفاء حقيقة شخصيته ، والظهور بمظهر المحب ، والزوج الوديع الكريم المخلص لامرأته وبيته .

وهكذا ظل عاصم محجب النفس ، مستور الخلق ، مزيف الشخصية ، حتى حملت امرأته ووضعت . وعندئذ تغير ، تصور ان امرأته قد اصبحت ملكا لطفلها وحده ، فارتد الى طبيعته ، وبرز فيه ذلك التصدع النفسي القديم ، ذلك التوزع الخلقى العميق ، ذلك الميل المتأصل الى التقلب فى جوين ، والفصل بين حياتين ، حياة البيت وحياة الشارع ، حياة النهار وحياة الليل ، حياة الواجب وحياة الحرية .

وأماط اللثام عن وجهه ، وتكبر واستعلى وأملى ارادته . فبهتت نعيمة ولم تصدق . ولكنها ما ان تأملت زوجها ، ولاحظته وارهفت السمع الى حديثه ، حتى جزعت وروعت ، وتيقنت أن « عاصم » قد تبدل تبدلا فجائيا غريبا ، وانه اليوم غيره بالامس .

وتوهمت ان الطفل هو السبب . فقاومت غريزتها ، وغالبت فرحة

الامومة التى خلبتها ، واهملت الطفل بالرغم منها ، واقبلت على عاصم تحاول أن تبعث فيه ميت حبه لها ، وتشعره ان الطفل هو ابنه ، وانه لن يسلبها أبدا اياه ، وانها اذا كانت تحب الطفل فذلك لانها تخلص للرجل الذى أوجده . ولكن « عاصم » لم يتأثر ، وشرع يهيىء نفسه للحياة المزدوجة التى اعتزم أن يعيشها .

فرض سلطانه الزوجى فرضا قاطعا وعنيدا ، أقــر فى بيته روح الدقة والنظام كما يريدها . رتب النفقات اللازمة للطعام والكساء وتكاليف الطفل وأجر الخادمة ، ولم يقتصد فيها .. بل جاوز الحد المعين لها ، ثم انثنى الى امرأته فأغدق عليها وضاعف لها نفقاتها . ولما اطمأن الى أن بيته قد أصبح مكفول المطالب ، وان امرأته لم يعد ينقصها من ألوان المتاع المادى أى شيء أحس انه أرضي كبرياءه ، وأبرأ ذمته وضميره ، وأن فى وسعه الآن أن يعيش ويتمتع كما يشتهى .

بيد أنه قبل أن يتحفز وينطلق ، حذر امرأته من نفسها ، وصارحها بأنه اذا كان قد بذل كل ما بذل فى سبيل اسعادها فعليها هى أن تحفظ جميله، وترعى عهده ، وتصون بيته وعرضه ، وترقب جميع تصرفاتها فى غيبته بحيث لاتتطرق اليها شبهة يمكن أن تصيبه فى سمعته ومكانته وشرفه .

وتنفس الصعداء ، واستجمع قواه ، وانطلق . انطلق الى مجتمعه الصاخب القديم . نظم ورتب أيضا ملاذه فى أمسياته ولياليه . ففى المساء كان يستعذب اللهو التافه فى صحبة أصدقائه ينفقون أوقات فراغهم فى المقاهى ، يتفرجون بالنسوة العابرات ، أو يتبادلون البذىء من النكات ، أو يتحدثون فى العلاوات والدرجات ، أو يتلهفون على نبأ سياسي سداه المبالغة ولحمته التهويل . وأما فى الليل فكان يلعب الميسر فى بيت من بيوت رفاقه ، أو يغشي الملاهى الراقصــة حيث يعاقر الخمر ، ويتصل بالغوانى ، أوفر ما يكون اعتزازا بحريته ، وأسعد ما يكون احساسا بأنه متزوج وغير متزوج ، مقيــد وطليق ، رب أسرة وجواب آفاق ، يتمتــع بالنقيضين الرائعين : مناعم الحياة الزوجية الهادئة بعد التعب والضجر ؛ ومفاتن الحياة الحرة فى أى وقت شاء .

وكان كثيرا ما يدخل بيته بعــد منتصف الليل سكران ثملا يضحك ويهذى . فاذا استنكرت نعيمة مسلكه ، سخر منها ، ثم انتهرها ، ثم أخذ يقهقه فىوجهها كمعتوه. . .وهو مبتهج بأنه استطاع فوق تمتعه بالغوانى المتبذلات أن يحتجز فى بيته سيدة نظيفة وشريفة ليس فى مقــدورها أن تتمنع عليه أو تفلت منه .

وحين كان عاصم يمكث فى البيت بضع ساعات فى النهار كان لايكلفه نفسه مئونة التحدث الى نعيمة فى اى شيء ذى بال ، بل كان لايراها ، ولا يشعر بوجودها ، وينصرف بكليته الى التمتع بلذتين محببتين اليه : لذة مطالعة الصحف فى صمت ، ولذة الاستماع الى الراديو فى صمت أيضا . فكانت نعيمة تتعذب وتشعر أن هذا الصمت يحقرها ويسلخ زوجها عنها ، ويقذف به الى دنيا من الافكار والاحلام محرم عليها دخولها .

وحينما كان عاصم يصحبها مكرها الى السينمافى حفلة مسائية مرتين فى الشهر أو ثلاثا ، كان يستغرق فى الصمت طوال العرض أيضا ، ثم يعود بامرأته الى البيت كى ينطلق هو ليسهر ، أو يظل فى البيت طلبا للراحة ، جاثما فى مقعده متلفعا بكبريائه ، مادا قدميه فى وجه امرأته ، يقرأ الصحف وهو صامت ، ويستمع الى الراديو وهو صامت ، ولا ينفك يدخن ويتململ ويزفر .

أما نعيمة فكانت تعرض عنه وتهتم بطفلها ، أو تطرق وتنكب على شغل التريكو ، أو تتأمل زوجها من طرف خفى فتلتهب حسرتها . فتدخل احدى الغرف مسرعة وتوصدها عليها ، وتظل فى وحدتها الساحقة لحظات تطلق العنان لدموعها وهى تنتفض وتختلج وتتلوى .

وهكذا استيقظت نعيمة ذات يوم وأدركت انها منبوذة ، وأن لا زوج لها .

أحست انها سجينة ، وأن بيتها الشائق الجميل قفص ، قفص من ذهب ، وأن جميع قوىقلبها وعقلها وروحها تتخبط بينجدران هذا القفص ، وتعيش فى أسر مهين ، وصمت كثيف ، وفراغ عميق ، ووحدة خانقة ممزقة .

وادركت — وهى المراة المتعلمة — أن لاشخصية لها ، وأن زوجها المتعلم مثلها يأبى أن يعترف بكيانها ، بل ويريد وهو متزوج أن يعيش حرا ، ويلهو ويمرحويتمتع علىحسابها ، أدركتأن «عاصم» لم يتزوج فتاة متعلمة ومن أسرة راقية الا سعيا وراء المظاهر فقط ، وانه وهو المتعلم لا يزال ينشد فى امرأته روح الزوجة القديمة البدائية المستسلمة ، التى كانت تعتبر نفسها سعيدة ومحظوظة مادام زوجها يوفر لها جميع مطالبها المادية باعتبار أن هذه المطالب هى هدف الزواج الاول والاخير !

اجل ... ادركت نعيمة كل هذا . وادركتأيضا أن زوجها وان كان متعلما ... يخاف المراة المتعلمة ويشعر بقوتها ، يخافها ويريد أن يتفوق بالاستبداد عليها . يخافها ويحس أن الزواج بها يتطلب جهدا عسيرا وغير

مألوف . فبدل أن يقدر قوتها ، ويغتبط برقيها ، يحاول ان يسيطر عليها ، ويخنق استقلالها ، ويقتل شخصيتها ، ويردها الى الحياة الخامدة البليدة التى كانت تحياها نساء الجيل القديم .

واستعر غضب نعيمة ، وتساءلت : لأى غرض اذن تهذبت أنا وتعلمت وتثقفت ؟ .. بل لأى غرض تزوجت ؟ .. تزوجت وانا اتصور أن زوجى سيكون زميلا لى أحبه ويحبنى ، وأفهمه ويفهمنى ، وأشاركه فى الحياة المادية والمعنوية مشاركة كاملة مستمدة من روح المساواة العادلة فى الحقوق والواجبات ..

هذا ماكنت أتصوره . هذا ماكان بالامس فى خيالى . أما واقعي اليوم فشيء آخر .. شيء كئيب .. شيء دميم .. شيء شائن .

ان واقع حياتى هو أن زوجى قد جعل منى خادمة لبيته ومتاعا من أمتعته ، وبؤرة لنفاياته ، وحيوانا يستولده أطفالا ثم يهملهم فى عبث مروع كأنهم والسائمة سواء ! .

واستهولت نعيمة مصيرها ، ولكنها صبرت ، صبرت وتجلدت وأبت أن تيأس . حاولت أن تسترد زوجها ، فاستجمعت مدخر قواها وأيقظت فى نفسها جميع خصائص عقلها وأنوثتها واتجهت بها صوب عاصم ، أخذته تارة بالعطف الزاخر ، والحنان الغامر ، والعتاب المتوسل ، والنصح النزيه . وأخرى بالحب الصادق ، والاندماج الحسي العميق . ولكن « عاصم » تقبل كل هذا كما يتقبل السيد من مسوده واجبا مفروضا . وبدل أن يقدر اخلاص نعيمة وعمق عذابها ورجاحة عقلها وكرم سجاياها ، ازداد غطرسة وكبرا ، وسآمة وضجرا ، ورغبة فى الفرار من امرأة ترهقه بشكاياتها ، وتنشر حوله جوا من الكآبة والجهامة ، يعترض روحه الطلقة ، وينغص عيشه ، ويفسد عليه ملاذه .

وشاء القدر أن يقع الحادث الذى فصل فى مصير نعيمة . فقد أصيب الطفل بنزلة شعبية حادة ، وأمضي أياما طويلة بين الموت والحياة . فروعت نعيمة لمرض ابنها ، وتضرعت الى الله أن يشفيه ، وهى ترجو فى الوقت ذاته أن يقرب مرض الطفل بينها وبين زوجها فيحن قلبه ، ويوقظ ضميره ، ويلزمه بيته ، ويدفعه الى العناية المخلصة بابنه الوحيد . والحق أن « عاصم » جزع لمرض الطفل أول الامر ، وأسرع فجاءه بطبيب ومكث بجوار سريره ليلتين كاملتين .. ولكنه تضجر فى الليلة الثالثة . فاستقدم طبيبا ثانيا مشهورا ، وذهب بنفسه فجلب لابنه جميع العقاقير اللازمة . ولما اطمأن الى أنه قد أبرأ ذمته وأدى واجبه ، تهرب وتسلل ،

وانطلق الى مجتمع رفاقه ، يفرج عن نفسه فى صحبة غانية تألق نجمها بغتة ، فأصبحت راقصة مرموقة فى احد ملاهى الليل .

وأبى القدر الا ان يعصف المرض بالطفل فى تلك الليلة نفسها ، وان يصاب بنوبة شديدة طارئة ، فجن جنون نعيمة وخشيت أن يموت ابنها بين ذراعيها . فاستغاثت بالخادمة واتصلت بالطبيبين وبأهلها ، ولم تعرف أين زوجها لتستدعيه . ولما انقضت ســاعات وهدأت النوبة واستراح الطفل وأوشكت الام أن تخر صريعة من فرط الذعر والسهر ، فتح الباب ودخل عاصم .

دخل متسللا كما خرج . دخل هادئا ثملا غير مكترث ، فرمقته نعيمة بنظرة فاحصة ، وارتعدت فرائصها .

رأته فى جلاء على حقيقته ، عرفت من زوجها ، لمســت قســوته الغاشمة ، وغلظته الفاتكة ، وأنانيته الجانية المستهترة العابثة بأعمــق العواطف البشرية وأقدس واجبات الانسان . فاقشعر بدنها واحست أن هوة سحيقة قد احتفرت الى الابد بينها وبين قرينها .

فقدت كل ثقة فيه ، وكل نزعة لاسترداده ، وكل أمل فى اصلاحه ، وكل رغبة فى الحياة معه ، لم تبغضه .. لان البغض أيضــــا نوع من الحب ومن ترخص الكبرياء ، احتقرته .. احتقرته واشمأزت منه ، وأهابت بشخصيتها القوية التى كانت قد طوتها فى أعماق نفسها عامدة لتساير حياتها وتنقذ بيتها ، وقابلت « عاصم » عزة بعزة ، وانفة بأنفة ، واستعلاء باستعلاء .

تباعدت عنه ولفظته .. أبت أن تكون له وهجرته . لاذت بمخدع طفلها ونبذته . فكبر على عاصم أن تصده ، وكبر عليه أن تحتقره ، وكبر عليه ان تحاسبه وتدينه وتقف منه موقف الند والقرين . فحنق وثار . فلم تحفل . بل تشجعت واجترأت واشترطت عليه أن يهجر اولا اصحابه ، ويكف عن السهر خارج بيته ثم يثبت استقامته بالفعل وعلى مر الزمن اذا شاء ان تعود امراته اليه .

هذا التمرد غير المنتظر أفقده صوابه . أحس عاصم أن هيبته تتبدد ، وشخصيته تتقوض ، وسلطانه الزوجى يوشك ان ينتزع منه . فجاش سخطه ، وغلى دمه . ولأول مرة منذ زواجه ، لاول مرة منذ ثلاثة اعوام ، رفع كفه وصفع نعيمة .

وعندئذ فاض الذل بالمراة وانفجرت .

أطلقت كل ماكان محتجزا فى صدرها من مرارة الكمد ولوعة الخيبة وحرقة الخزى والصبر والاحتمال ، وغامرت بحياتها ومستقبلها ومستقبل ابنها ، وصرخت فى وجه زوجها وطلبت الطلاق .

وفى ثورة كبريائها المنتهكة ، وكرامتها المطعونة ، وتضحياتها العقيمة الباطلة ، اندفعت فى لوثة كلوثة المجانين ، وجمعت بعض أمتعتهـــا ، وحملت طفلها ، وأصرت على مغادرة البيت والذهاب الى منزل والدها .

واستشاط غضب عاصم ، وأراد أن يمنعها ولكنها أقسمت بابنها الوحيد ، أن تقضي على نفسها لفورها بأية وسيلة لو اعترض أحـــد ارادتها وحال بينها وبين الرحيل . فألقى عليها عاصم نظرة ملؤها التوعد، ثم هز كتفيه ساخرا وتركها ترحل .

وغادرت نعيمة البيت .. ولكنها ما ان اختفت حتى حزم عاصم أمره وأسرع فارتدى ثيابه ولحق بها .. لحق بها الى منزل والدها . وهناك أمام أمها وأبيها واخوتها ، اتهمها بالعصيان والتمرد ثم دافع عن نفسه فى حرارة متقدة وحماسة مشبوبة وصـــدق متهدج عجيب ، وطفق يصرخ صراخ الرجل البرىء النبيل الكريم الذى قوبل احسانه باللؤم والجحود ، ويقول ان امرأته تعيش فى بيته كملكة ، وأنه لم يقصر لحظة فى رعايتها وتدليلها والانفاق عليها وتأدية كل واجباته نحوها وانها هى التى لاتعرف لزوجها فضلا ، ولا تقدر له صنيعا .

وبعد أن هدأت ثورته ، تحول الى امرأته ثابتا منذرا ، وأردف انه لن يطلقها ، ولن يتخلى أبدا عن ولده الوحيد من أجل نزواتها ، وانها لو أمعنت فى غيها وظلت فى منزل أبيها ، فسيأخذ هو بحقه الشرعى ضدها ويوقع عليها حكم الطاعة ويقتادها الى بيتها ذليلة مهينة صاغرة !.

ولم يزد كلمة على ماقاله وانصرف ! فاختبلت نعيمة واشتد هياجها.. لم تستطع أن تتصور كيف يكون زوجها هو الجانى ثم تصبح هى المجرمة ويصبح الجانى نفسه هو قاضيها وجلادها .. فطفقت تصور لاهلها حياتها الزوجية المروعة وهى تبكى وتصرخ وتلتمس منهم أن يصدقوها ، ويقفوا فى صفها ويمدوا لها يد العون كى تتخلص وتتحرر من زوجها .

واعتقدت نعيمة أن أباها سيشفق عليها ويفهمها وكذلك أمها واخوتها ولكن والدها الطبيب الذائع الصيت ، والدها الذى كانت تحبه وتحترمه

وترى فيه مثال الفكر الراجح والعقل العادل والهمة العالية والخلق المتين تنكر لها ، وعبس فى وجهها وصمت .. صمت لحظة ثم تكلم .. تكلم لاليفهم ويرحم بل ليستنكر .. أجل استنكر من ابنته أن تتسرع وتتهور وتترك بيتها ، استنكر منها أن تصيبه فى سمعته وسمعة بيته بطلاقها . استنكر منها أن تعرض نفسها بالطلاق لأقاويل الناس ، فتلوث سمعتها هى ، وتلوث فوق ذلك سمعة أختها وتعطل زواجها . فذهلت نعيمة وارتعشت واتجهت الى أمها . ولكن أمها حملت عليها بأشد مما حمل أبوها ، بل راحت تسخر منها ، وتستهزىء بها وتتهمها فى سلامة عقلها وتشدو بكرم عاصم ، وتستغرب من ابنتها أن تتمرد على زوجها فى حين أن جميع مطالبها مكفولة ، وأن لا شيء ينقصها ، فأطرقت نعيمة شبه تائهة ، وتحولت الى اخواتها . فالفتهم جميعا واجمين ، وأكبرهم — وكان محاميا معروفا — يدمدم بين أسنانه ويقول لها :

انها لو لجأت الى القضاء فلن ينصرها اذ ليس فى مسلك زوجها حيالها اى سبب أو مبرر شرعى يستوجب الحكم بطلاقها .

وتحالف الكل عليها ونصحوها بالعودة الى زوجها . فأجالت نعيمة النظر فيهم واسودت فى وجهها الدنيا . أحست أنها منبوذة فى بيت أبيها كما كانت منبوذة فى بيت زوجها . أحست ان اهلها انفسهم يلفظونها ، وانها أصبحت غريبة عنهم ، ومثار احراج لحياتهم وتقاليدهم ومصالحهم . فتحاملت على نفسها ودخلت الحجرة التى أفردوها لها ، واستمهلتهم بضعة أيام لتفكر ، وانطوت على ذاتها وفكرت ، فكرت طويلا ، ولكن ماجدوى التفكير والتأمل والانتظار . اى عون يمكن أن تنتظره نعيمة ، واى مخرج فى وسعها أن تخالسه وتعتمد عليه ؟ . العقبات تراكمت امامها ، والطرق جميعا قد سدت فى وجهها ، والسجن وحده هو الذى يلوح فى مسرح خيالها ، وهاهى ذى قضبان السجن تتراءى لها . وتحوم حولها ، وتجذبها وتناديها ، كأنها القدر المرصود لها فى لوح حياتها .

وانسحقت نعيمة وآثرت أن تمضي . آثرت أن تذل لرجل واحد وأن تعيش فى بيتها ، على ان تذل لاسرة كاملة تضيق بها ، وأن تعيش فى بيت عابس نافر لم يعد يعرفها .

ورفضت اى تدخل من ابيها او اخويها بينها وبين زوجها ، ثم عقدت العزم ذات صباح وحملت طفلها وعادت الى منزل عاصم .

بيد انها وهى فى الطريق ، فى الطريق الى سجنها ، تقلها سيارة

والدها الفخمة ، واجهت بعين خيالها صورة عاصم وماج الدم فى عروقها .. كيف ؟ .. أتجبر هكذا اجبارا على العودة اليه ؟ أيسومها كل هذا الذل ثم تجبن وتستخذى ولا تعرف كيف تنقذ نفسها بنفسها وتثأر منه ؟

وانزوت فى ركن من السيارة واطرقت لحظة وتاه عقلها .. فكرت فى شيء جديد فكرت فى شيء لم يخطر لها قط فهتفت فى أعماق ذاتها وهى تنتفض : ولماذا .. لماذا لا أضلله وأخدعه ؟! لماذا لا أماثله واحتال عليه واتصل بالدنيا وأحاول أن أتخذ لى صديقا يحبنى واثق أنه يتمنى أن يتزوجنى ثم أكيد لعاصم فى كل دقيقة وأنغص حياته فى كل لحظة حتى يضيق آخر الامر ذرعا بى فيطلقنى من تلقاء نفسه فأقترن بصديقى ! صديقى ! ومن ذا الذى يضمن لى بعد أن أكون قد تبذلت وتهتكت ومنحت نفسي رجلا غريبا أن يقدر هذا الرجل الغريب تضحيتى ، ويرضي بأن يتزوجنى ويتحمل فوق ذلك وجود ولدى معى ؟.. ان ولدى سيشقى حتى لو تزوجت رجلا كان صديقى،وكنت متيقنة أنه سيحب ولدى كما يحبنى.. لا .. لا قدرة لى على التضحية بولدى ولا قدرة لى حتى على اتخاذ صديق أنفس به عن صدرى .. أنا لا أعرف كيف أحاور وأداور ، وأكذب وأنافق ، وأتبذل وأتهتك كغيرى .. لم أر شيئا من هذا فى أسرتى وليس هذا فى طبعى وخلقى ودمى. ان غاية ماكنت أنشده هو أن أكون لرجل واحد فقط .. وان أحب رجلا واحدا فقط ، وان أعيش وأموت من أجل رجل واحد فقط .. ولكن أين ، أين هو ذلك الرجل ؟ . لاأريد رجالا أن ما تحملته منخسة عاصم أشاع فى نفسي الاشمئزاز من الرجال جميعا . ومع ذلك فيجب .. يجب أن أقاوم .. يجب أن أقاوم اشمئزازى هذا ، وأرضي بقرب عاصم . فهل سيمكننى .. هل أقدر .. هل أستطيع ؟

ودخلت بيتها وهى ترتجف . وما ان أبصرها زوجها حتى أشرق وجهه وابتسم ساخرا ولم يتكلم . فحز فى صدر نعيمة شعور الضعة والهوان . ولكنها كبحت هذا الشعور وقهرته . وانصرفت الى شئون بيتها وطفلها .. ولما اقبل الليل ، واقترب منها عاصم وأراد أن يلاطفها ويصالحها ، تصلبت وتخشبت واستسلمت للرجل وهى مسلوبة الفكر والحواس اشبه بجثة هامدة .

غير أن هذا التصلب المفروض الذى راضت نفسها عليه ، والذى كبتت به فى صدرها عوامل الكمد والتقزز والنفور ، والذى خنق روحها وجسدها أياما وأسابيع طويلة ومرهقة ، انفجر فى بدنها فجأة فساءت صحتها ، وتجهمت أخلاقها ، وأوشكت أن تكره طفلها وبيتها وتصاب بانهيار عصبى مدمر ، فيه القضاء المبرم على البقية الباقية من حياتها .

واذ ذاك ، اذ ذاك فقط ، تأملت نعيمة نفسها واستيقظت .

اشفقت على ذاتها ، واشفقت على صحتها وشبابها ، واشفقت على طفلها . رات حولها النور ساطعا ، والهواء ناضرا ، والكون زاخرا بالقوة والحركة والنشاط والجمال . فعز عليها النور والهواء والجمال ، وعزت عليها الدنيا . فابتسمت بغتة وهزت كتفيها .. ابتسمت وسخرت. سخرت من نفسها ، وسخرت من جمودها ، وسخرت من ضعفها وسذاجتها واشمئزازها ، وتشجعت واقبلت على الحياة .

لم تحفل بمسلك زوجها . لم تكترث لوجوده . لم تكلف نفسها عناء النفور من ملمسه . تركته حرا طليقا فى غدوه ورواحه ، ومضت هى لشأنها .. مضت تدفن همها فى تدليل طفلها . وتجميل بيتها ، واستقبال صديقاتها ، والتهافت على سماع الراديو طيلة نهارها ، وامتاع نفسها وحواسها بشتى الوان الطعام الدسم ، والفطائر الشائقة اللذيذة ، والحلوى النادرة المغرية ، تصنعها بنفسها وتتفنن فيها وتفرح كل الفرح بابداعها واتقانها .

والفت الشراهة ، واعتادت البلادة ، واستمرأت الكسل والخمول. فجف عقلها ، وغاض ذكاؤها ، واندثرت ثقافتها ، وتكسر جناحاها . ثم وضعت طفلا ثانيا ، وطفلا ثالثا . فاسترخت وتربربت وترهلت ، وأمست بترة ولودا حلوبا ، وماتت ، ماتت نعيمة موتا أدبيا بطيئا وهى بعد فى شرخ الصبا لم تبلغ الثلاثين .

أحلامهن...



من زينب الى صديقتها علية

« لا أستطيع أن أصف لك يا علية مبلغ العذاب الذى أعانيه الآن . ولكى أساعدك على تصور حقيقة حالتى ، يجب أن أعود بك الى الوراء وأقص عليك قصتى منذ ذلك اليوم المشئوم الذى عرفت فيه اسماعيل بك .

كنت فتاة جميلة ، بل كنت أوفر أخواتى الثلاث حسنا ، وأرقهن طبعا ، وأذكاهن فكرا ، وأغزرهن عاطفة واحساسا . وكنت قد نشأت كما تعلمين فى وسط فقير ، ولم يكن فى مقدور والدى المدرس المتواضع أن يحيا حياة البذخ والاسراف التى كان يحياها شقيقه الاكبر التاجر الثرى ممدوح بك .

وكنت لفرط اعتدادى بنفسي ، واحساسي بمكانتى ، وبالفارق العظيم بين الحياة فى بيتنا والحياة فى بيت عمى ، أشعر شعورا غامرا قويا أنى لا أعيش فى الجو الخليق بى ، ولا أتقلب فى الأطار الجدير بجمالى وذكائى .

كنت أرى ابنة عمى «الهام» غنيةودميمة ، وأرى نفسيفقيرة وجميلة ، فيحز فى صدرى هذا الظلم ، واستغرب من الزمن كيف يعطى الحلق من لا أذن له .

على أنى برغم النفور الطبيعى الذى كنت أحس به نحو الهام ، وبرغم كبريائى وزهوى واحتقارى مظاهر الجاه والسلطان ، كنت مولعة أشد الولع بزيارة بيت عمى .

فهناك كنت أمرح فى الأبهاء الواسعة ، واتطرح على السرر الناعمة ، وآكل اللحم والدجاج ، وأقضي النهار بطوله أتفرج بالتحف ، أو اتأمل الرياش ، أو أستمع الى الراديو ، أو أراقص الهام على نغمات الفوتوغراف .

وكان عمى يحبنى . وكانت زوجته الفلاحة الصعيدية معجبة

بجمالى ، مأخوذة برشاقتى ، مفتونة بسحر حديثى ، تود أن ازورها كل يوم ، عسي أن « أدردح » ابنتها الثقيلة الدميمة ، واخلع عليها شيئا من روائى .

بيد أن الهام كانت تخشانى ، كنت احسدها على غناها ، وكانت تحسدنى على جمالى . وما يكاد يدخل البيت شاب غريب ، حتى تلوى فجأة عنى ، وتشمخ بأنفها على ، وتحاول أن تصرفنى ، وهى تضحك ضحكة خبيثة ، وتعرض ساخرة بفقرى ! وكنت أتألم ولكنى كنت أغيظها وأبقى ! ورغبة منى فى تأديبها كنت أسرف فى تحية الزائر الغريب ، وأفرط فى مجاملته ، وأفتن فى التودد اليه ، ولا أنفك أحادثه وألاطفه ، حتى ينصرف بجمعه الى ، وينسي عقله ، وينسي نفسه ، وينسي الهام .

وهكذا لمست فى ضوء التناقض الصارخ ، بينى وبين ابنة عمى ، تأثيرى العظيم على قلوب الشبان .

شعرت أنى ساحرة وفاتنة وان كنت فقيرة وخاملة .

شعرت أن أرجح الرجال عقلا ، وأجملهم خلقا ، وأعلاهم مكانة ، وأوسعهم ثراء ، يتقربون فى شغف الى ، ويتهافتون فى لهفة على ، ويتبارون فى أيهم يحظى ولو بنظرة عارضة من عينى السوداوين البديعتين ... فساءلت نفسي : أليس من الحماقة أن أظل حيث أنا ، ذليلة مهينة خاملة ، فى حين أن فى مقدورى أن أثأر من حظى ، وأثأر من فقرى ، وأثأر من الهام ، وأظفر بالحياة الرائعة الخليقة بشبابى وجمالى ؟ .

ولعبت برأسي نشوة المال ، وأخذتنى عاطفة الطمع ، وملكتنى أخيلة الجاه والسلطان ، فبدأت أفكر فى استخدام ذكائى ، ونصب شراك الغواية للرجال الحائمين حولى ، لعلى أعثر من بينهم على ثرى وجيه يتزوجنى ، ويرفعنى بين يوم وليلة الى مصاف السيدات المترفات العظيمات .

فكرت فى المال وأغفلت الحب !

فكرت فى المستقبل وأغفلت الحاضر !

سحرتنى الحياة فى بيت عمى ، وامضنى من الهام أن تكون أسعد منى ، فأردت أن أكيدها ، أن أذلها ، أن أتفوق عليها ، فمضيت اطلب المال ، وتناسيت الحب !

وكنت فى تلك الفترة محبوبة ، وكنت ، انا أيضا ، احب !

كنت أحب فتى من طبقتى ، من بيئتى ، فقيرا فى اعتزاز ، جميلا فى اباء ، رقيقا فى شموخ ، وفيا فى صراحة وبراءة ونبل . أحببته بكل قوى نفسي ، بكل أحلام فكرى ، بكل خفقات دمى وقلبى . اجل أحببت عصاما واحبنى ، وكان موظفا صغيرا فى احدى الدوائر ، وكان جارى ، وكنا قد تعاهدنا على الزواج بعلم من والدى . فلما أسرفت فى زيارة بيت عمى واذهلتنى الحياة هناك ، وأسخطنى حظ الهام الدميمة واثارنى ، تحول قلبى بالرغم منى ، وشعرت تحت وطأة آمالى ومطامعى أن لابد أن أغفل عصاما وأتناساه .

وأعرضت عنه بالفعل فشقى وتعذب ، فانخلع قلبى وكدت أضعف وأرتد اليه ، ولكن الهام خطبت بغتة ، ثم كتب كتابها ثم اقترنت بشاب ملحوظ المكانة جميل ، أغضي عن دمامتها وطمع فى مالها ، فجن جنونى ، وجفت عواطفى ، وآليت على نفسي أن أضحى بعصام وان كنت أعلم أنه الرجل الوحيد الذى أحبه حقا ويحبنى !

وانطلقت فى سبيلى ، وأمعنت فى غيى ، وانتهزت فرصة العرس العظيم الذى أقاموه لالهام ، فأيقظت كل محاسنى ، وأثرت كل مفاتنى ، وتعرفت بالاسر الكبيرة واتصلت برجالها ، وما زلت بالاثرياء منهم ، أقربهم وأجاملهم ، أعابثهم وألاطفهم ، أداهنهم وأتملقهم ، حتى عثرت من بينهم آخر الأمر على ضالتى المنشودة ممثلة فى شخص اسماعيل بك !.

أدركت أن اسماعيل بك قد أحبنى . وكنت أعلم أنه كهـــــل فى السادسة والاربعين ، وأنه يكبرنى بأكثر من عشرين سنة ، وأنه كان قد تزوج امرأة جميلة عذبها بغيرته عشرة أعوام ، ثم طلقها ، وحرمها رؤية ولدها الوحيد . ومع ذلك فقد رضيت أن أتزوجه ، رضيت أن أعيش مع ابنه ، رضيت بتضحية عصام من أجله ، لانه كان وجيها ، وكان سخيا وكان يملك أرضا واسعة يقدرها العارفون بأكثر من مائتى فدان .

ولم أكد أتزوجه حتى بهرنى سخاؤه الفياض . أجابنى الى كـــل ما أشتهى . أغدق على المال بلا حساب . غمرنى بالهدايا . أحاطنى بمختلف ألوان النعيم . فتهت عجبا على الهام ، وتهت عجبا على أترابى ، وذهلت وانتشيت ولم تعد تسعنى الدنيا .

على انى ــ ويا للسخرية المروعة ــ كنت فى صميم نفسي لا أكاد أشعر بأن كل شيء أصبح لى ، حتى أشعر فى اللحظة نفسها أن هذا

الكل مايزال ناقصا ، مايزال جزءا . ، جزءا من الكل العظيم الذى اطمح اليه ! كنت أطلب المال ، فلما أصبته أحسست أنه باطل بدون الحب ! بل لقد عذبنى أن يكون لى المال ثم لا أستطيع أن أشترى به الحب !

وكنت كلما تمتعت بالمال ، اتسع فراغ قلبى ، وازددت احساسا بنقصي ، وهفت روحى الى الحب .

وشيئا فشيئا ، وعلى مر الزمن ، شعرت أن المال عبء على كتفى ، وقيد فى عنقى ، وعقبة فى سبيلى ، فحرت واضطربت ، وتاه فكرى وتاقت نفسي الى عصام ! .

وكنت لم أره منذ زواجى ، فاتفق أن زار يوما والدى ، وكنت هناك ، فحيانى ولم يعاتبنى ، واكتفى بأن نظر الى نظرة ممزقة وأعرض عنى .

هذه النظرة الحاقدة ، هذه النظرة الوالهة ، هذه النظرة المخبولة الضارعة ، ايقظت حبى ، وأضرمت نارى ، والهبت فى عزما طاغيا جارفا جديدا .

وحزمت أمرى ، وعولت أن أتخلص من اسماعيل !

أردت أن أدفن الحاضر وأبعث الماضي ، أردت أن أنبذ المال وأظفر بالحب ، فتنكرت لزوجى ، وأثرته فى خبث على ، وغافلته ذات يوم وهجرت قصره العامر وذهبت غاضبة الى منزل والدى .

وأقبل اسماعيل ملهوفا ، وحاول أن يترضانى ، وعرض أن يكتب عددا كبيرا من فدادينه باسمى ، ولكنى احتقرت ماله ، وأبيت العيش فى كنفه ، وثبت فى موقفى ، وطلبت الطلاق .

وكنت آخر حب فى حياته ، فتشبث كالمعتوه بى ، وهدد باستخدام حقه ضدى . ثم التمس وتضرع ، وابتهل وتوسل ، ولما هاله عزمى ، كبر عليه أن يذل أمامى ، فطلقنى وملء صدره الحقد الفظيع على !

وبعد بضعة أسابيع تزوجت عصاما !

ويالها من فرحة عظيمة تلك التى شعرت بها يوم تزوجت عصاما ! خيل الى انى استعدت فجأة كرامتى ، وتطهرت فجأة من ادرانى ، وانطلقت فجأة من عقالى ، وخرجت من سجنى هائمة على وجهى ، اتنسم الهواء الطلق لاول مرة فى حياتى ! ... احسست انى امراة . امراة حرة أبية شريفة ، وهبت ذاتها بمحض ارادتها ، فاحترمت شخصها ، ولم تبذل

نفسها لقاء أى غرض مادي وضيع ... واسعدنى واسكرنى أن أمنح الحب من أجل الحب ، والولاء من أجل الولاء ، والثقة من أجل الثقة ، والحياة من أجل الحياة ! ... ولم أشعر بوطأة الفقر لحظة ولم أتألم!... كان عصام يحبنى ، وكان لايذكرنى ابدا بالماضي . وكنت أعيش فى صحبة امه وأبيه ، قانعة بحظى ، راضية بقسمتى ، منكبة على العمل طول نهارى ، أطهى الطعام بنفسي ، وآكل العدس والفول ، ولا يخطر على بالى أنى كنت بالامس أتحرق واتلهب ، وأتطلع واترقـــــب ، وأتمنى ، وأشتهى ! ...

وانقضي العام الاول وأنا فى شبه حلم ، وتلاه العام الثانى ، وبدأت اليقظة ، وبدأ القلق ، وبدأ العناء ... لا أدرى ماذا أصابنى فجأة وماذا حل بى ؟ ... أفقت من نومى ذات صباح واذا بى أنظر الى حجـــرتى وأرتعد ! ...

شعرت بالرغم عنى أنى متضجرة ... أحسست على دهش منى أنى عدت فقيرة وخاملة ... هلع قلبى ، وشرد لبى ، وخالس عقلى نعيم الماضي وفكرت ... فكرت فى الرياش الفاخرة ، والتحف النادرة ، والمرايا اللامعة ، والقـــــصر الجميل ! ... فكرت فى نفسي ... فى سيارتى ... فى أثوابى ... فى أدوات زينتى ... فى خدمى ... فى البلاط الملكى الذى كنت أمرح فيه ! ... فكرت وقارنت واستولت على حسرة مقرونة بذهول ! ... ولم أتكلم ، ولم أتبرم ، ولكن أحساس النقص والفراغ عاودنى ، ثم أرهقنى ، ثم استبد بى ، فلم أستطع حياله شيئا برغم حبى ! ...

وكما كان ينقصنى الحب وأنا زوجة اسماعيل ، كذلك أصبح ينقصنى المال وأنا زوجة عصام ! ...

وملكتنى من جديد فكرة المال ، وصاحبها فعل الزمن ، فأخمد كلاهما حرارة حبى ، وأضرما فى صدرى شعلة التمرد والانتقاض ... وكان اسماعيل ، طوال مدة زواجى ، لاينفك يحوم حولى ، ويستفسر عنى من أصدقائى وأهلى ، ويتربص بى ، وينتظر فرصة سانحة تمكنه من اذلالى والثأر منى .

وكنت لا أقدر مبلغ يأسه ، ولا أفهم عمق ذله ، ولا أتصور مدى حقده وبغضه ، فلما أفقت من غفلتى ؛ ورأيته يهتم كل هذا الاهتمام بى ، خيل الى أنه قد نسي وغفر ، ففرحت وابتهجت ، وعقدت النية على العودة اليه وترك زوجى ...

وكما فعلت به فعلت بعصام ! ... غضبت عامدة ، وهجرت بيتى وطلبت الطلاق ! ... ولكن عصاما كان أوفر رجولة من اسماعيل ، فوقع على حكم الطاعة ، فأكبرت حبه ، وابغضت مسلكه . وما زلت به اغالبه واجاهده ، اكايده واعذبه ، حتى عافتنى آخر الامر نفسه ، فضاق ذرعا بى وطلقنى !

وعدت صاغرة الى اسماعيل ... سعيت اليه بنفسي .. اذللت كبريائى ، وامتهنت كرامتى ، ورجوت الهام ، الهام غريمتى وعدوتى ، أن تدعوه لزيارتها ، وتتوسط بينه وبينى ...

واقبل اسماعيل مشرق الطلعة ، ظافر النظرة ، ضاحك السن ، فخدعنى مظهره ، فاندفعت اليه ، وتأبطت فى جراة ذراعـه ، ورميته بطرفى الشاكر الناعس ، والتمست اليه أن يصفح عنى ... وكانت الهام تنظر اليه من خلال أهدابها وتنتظر ... وكان هو يحدق الى وجهى ... الى عينى ... الى شفتى ... الى الكلمات التى كانت تنطلق متدافعة من فمى ... وفجأة ، وفى مثل لمح البرق ، تملص منى ، ودفعنى عنه فى عنف ، وتلفت كمن ينقض ، ثم عدا صوب التليفون ... وأمام الهام الرابضة الشامتة ، أمام دهشتى الحائرة المتوجسة ، أمام دعوتى المطمئنة الواثقة ، تناول السماعة وخاطب امرأته ... امرأته الاولى ... والدة ابنه الوحيد ، وردها ... ردها الى عصمته انتقاما منى ، وهو يرمقنى بنظرة ثابتة هائلة ويقهقه ! ...

ولم يكد يلقى السماعة من يده ، حتى أرسلت الهام ضحكة ساخرة مدوية ، فصرخت انا ... صرخت ولطمت وجهى ، ثم عزت على نفسي ، فأجهشت بالبكاء ، واندفعت صوب الباب ، وخـرجت لا الوى على شيء ! ...

هذه قصتى يا علية . لم اقنع بالمال وحده أو بالحب وحده . ففقدت المال وفقدت الحب . ومع ذلك فقد بات من المستحيل على وقد عرفت لذة الحب ومتعة المال ان اعيش بدونهما ... فأنا الآن برغم خيبتى ، برغم يأسى ... احاول أن ابحث ... ابحث ايضا ... ابحث عن الرجل المنشود الذى فى وسعه ان يقدم لى الحب ، والمال معا ! ... وهـذا الحلم يا علية سيظل الى الابد علة شقائى ! ... »

على شواطئ الاسكندرية



لم يكن الدكتور محمود ، بالرغم من أنه تلقى علومه فى انجلترا - شابا متطرفا فى نزعاته العصرية ، بل كان على النقيض يكره التطرف ، ويميل الى الاعتدال ، ويحرص على جوهر روحه الشرقية ، ويهوى الحياة الاوربية فى الوقت نفسه ويشعر أن سلطانها قوى على عقله وقلبه .

كان يغشي الملاهى العامة ، ويرتاد المراقص والمسارح ودور السينما ، ويتعشق الادب الغربى الرفيع ، ويؤثر سماع الموسيقى الاوربية ، وينادى بحرية الفكر ، وحرية المرأة . وكان فى الوقت نفسه يؤدى فروضه الدينية على أتم وجه ، ويصوم رمضان ، وينشد حج البيت الحرام ، ويعالج الفقراء من مرضاه بالمجان ، ولا يكف فى أوقات فراغه عن مطالعة السيرة النبوية يلتمس فيها متعة لذهنه وحافزا لارادته .

وكان شابا مديد القامة ، مفتول العضل ، موفور الصحة ، تقترن فى أخلاقه الدماثة بالصراحة ، والحزم باللين ، ومرح الشباب الناضر القوى بفتنة العقل الراجح الحكيم .

ولقد أحبته ابنة عمه سعاد ، لا لشبابه ، ولا لقوته ، ولا للنجاح الرائع الذى أصابه فى مهنته ، ولا للسحر المنبعث من لونه الخمرى الجذاب ، ومن عينيه السوداوين المتقدتين اللتين تأسر النظرة منهما لب كل فتاة .

لا شك أن سعاد قد أعجبت كغيرها بهذا الحسن الفياض بالرجولة ، ولكن ما هز فؤادها ، وملك عليها مشاعرها ، وأخضعها لحب محمود ، هو شذوذ أخلاقه ، وغرابة أطواره ، وتفرده بالجمع بين حب الحياة وحب التأمل ، بين النزعة الحديثة والنزعة القديمة ، بين الاقبال على اللهو البرىء والاقبال على الصوم والصلاة .

وكانت سعاد نفسها فتاة تقية ورعة ، نشأت فى بيت محافظ من أب كان موظفا كبيرا فى وزارة الاوقاف ، وأم كانت شديدة الحرص على العقائد والتقاليد .

على أن هذه البيئة جعلت من سعاد شخصية تختلف كل الاختلاف

عن شخصية محمود . والحق أن سعاد كانت تشبه أمها شبها عجيبا . كانت تخشي الرجال ، وتكره السفور ، وتنفر من المجتمعات ، وتؤثر حياة البيت ، وترتبك وتتولاها رعدة فى حضرة الشبان ويحمر وجهها وسرعان ما تلوذ بالفرار .

وليس شك فى أن محمودا قد أحبها لبراءتها ولهذا الخفر الشرقى الساحر الماثل فى كل حركة من حركاتها . ومع ذلك فقد كان يضجر منها فى بعض الاحيان . كان يود لو تكون أقل خوفا وأكثر شجاعة وأقدر على التبسط فى الحديث والظهور أمام الناس ، ولكنها كانت تعيش منطوية على نفسها ، فرحة بحبها ، سعيدة باخلاصها ، تحلم بالزواج ، والبيت المستقل ، والامومة الهانئة المباركة .

ولطالما اجتهد محمود فى انعاش أعصابها ، واطلاقها من جو خمولها ، ورياضتها على الحرية والحياة . ولكنها كانت تضطرب وتتملص وتؤثر الوحدة ولا ترافقه بعد جهد الا الى السينما ، ولا تعود من السينما الى البيت الا وهى مذهولة مما رأت ، ساخطة على ما شاهدت ، تستنكر الافلام وحوادثها ، وترى فى مظاهرات الحب والغرام دليل تبذل وتهتك وقحة وفجور .

وهكذا كانت سعاد تكتفى بنفسها ، وتكتفى بحبها ، وتعيش فى الجو الضيق الخانق الذى عاش فيه أهلها . أما محمود فكان يميل الى هذا الجو بقلبه وينفر منه بعقله . كان يتمنى لو استطاع فى سبيل سعاد أن يتخلص من مؤثرات ثقافته ، ويندمج عقلا واحساسا فى الحياة الفاترة التى تحياها خطيبته . غير أن ملذات الحرية ومفاتن الثقافة ، ومباهج الحضارة ، كانت مستحوذة عليه كما كانت الميول الدينية الروحية متمكنة من نفسه .

وظل محمود يروض سعاد على الشجاعة والجرأة وخلطة الناس والظهور فى المجتمعات والاتصال بالرجال ، وهى ترضي ثم تتمنع ، تقبل ثم تعرض ، تتقدم ثم تتراجع ، حتى أعياه أمرها وأحس عجزه عن صقلها وتهذيبها ، وأدرك أنها لن تفهم أن فى وسعها أن تكون جريئة ومحتشمة ، حرة وفاضلة ، فكف عن لومها ، وعدل عن مراجعتها ، وقنع بأن يحبها كما هى ، وفى نفسه منها حسرة عميقة يمازجها بعض الغيظ والحنق .

واقبل فصل الصيف ، وارتأت أسرة سعاد أن تبرح القاهرة الى راس البر . ولكن محمودا فضل الاسكندرية . فأعربت سعاد عن رغبتها

فى مرافقة خطيبها ، فأذن لها والدها بعد ان استوثق من ان أسرة محمود ستنتقل الى الثغر أيضا ، وان ابنته ستكون فى كنف شقيقه وفى رعاية زوجة أخيه .

وكانت الشواطىء فى ذلك الصيف غاصة بالمصطافين من مصريين وأجانب ، ينبسط أمامها البحر ويجيش ويهلل كأنه فى انتظار أحبابه ، فترد عليه الشواطىء صاخبة هادرة كأنما هى تحييه ، شاكرة له ما أيقظه فيها من حمى الحركة وجنون الفرح بالحياة .

وكانت الملاهى المتراصة على الشواطىء زاخرة بالناس ، بعضهم بملابس الاستحمام يقطر منها الماء ، والبعض يتسامرون ويترشفون القهوة أو المرطبات أو يأكلون . والشاطىء على مرمى النظر منهم يعج بالمستحمين والمستحمات من شبان وفتيات وأولاد أنصاف عرايا ، ينطلقون واثبين الى البحر ، أو يكرون منه لاهثين ، حيث يتفيأون ظلال شمسياتهم الملونة ، أو ينبطحون على الارض وقد أنهكهم التعب ولوحت أبدانهم حرارة الشمس أو يتجاذبون أطراف الحديث وهم يتخطرون على الرمال فى هدأة الحلم وفى بطء النشوة الكبرى ، نشوة الاحساس باللانهاية تتصاعد الى نفوسهم من أعماق البحر .

ولم يكن فى مقدور الناظر الى البحر الا أن يتمثله بستانا . بستانا متألق الخضرة ، فسيح الارجاء ، تتلألأ عليه الحسان المستحمات أشبه بزهرات كبيرة عصفت بها الريح فتماوجت فى رقص مشوش مدهش بديع .

وكانت سعاد جالسة بين عمها وزوجته وبعض الاقارب فى زاوية أحد المقاهى المشرفة على البحر .

وكانت شاحبة الوجه ، مكفهرة التقاطيع ، صامتة ، جامدة ، ترتدى فستانا أزرق اللون ، صارم المظهر ، متجهم الرواء ، يخنق جمالها ويحجب تقاطيع بدنها عن الابصار .

وجعلت تحدق الى البحر وهى تتنهد وتعض شفتيها .

ولاول مرة خامرها احساس عجيب .

شعرت حيال هذه البهجة الشاملة ، حيال هذا الفرح العظيم ، حيال الفتيات أترابها يمرحن فى أثواب الاستحمام ويتساقطن الى البحر ضاحكات مغتبطات ، أنها مخلوق منكمش مخذول جبان ، وانها فتاة منبوذة تنتسب

الى عالم قديم ، وانها لم تتعلم كيف تعيش ، وانها لا تستحق أن تكون هنا ، وانها لو فقدت فى غضون هذه الرحلة خطيبها فلن يكون الذنب ذنبه بل ذنبها هى !

لقد دعاها الى الحياة فرفضت . أغراها بنزول البحر فى صحبته فاستنكرت . حاول أن يجعل منها فتاة عصرية نشطة جسورا ، فارتاعت وتمنعت . توسل اليها أن تطاوعه وتجرب فأبت . ولما ألح عليها غضبت وتبرمت وتشبثت بالبقاء مع زوجة عمها .

ولم يكن محمود قد قصد الشواطىء الا ليحـــــاول أن ينعم بلذة الاستحمام واللهو فى رفقة خطيبته ، فلمـــا أبصرها مصرة على عنادها ، جامدة نافرة متحفظة ، تضرب حول نفسهـــا ومن معهـــا رواقا من الكآبة والجهامة يفسد الرحلة ويكرب النفس ويستفز الضجر ، انصرف عنها ، وانخرط فى زمرة جمعت نفرا من أصدقائه اتفق أن كان بينهم شاب أجنبى له شقيقة حسناء ، شقراء الشعر ، ناصعة البياض ، غلامية القد ، هوجاء ، تنساب على الرمال كأفعى وتقتحم البحر غير هيابة وتسبح فيه كشيطان .

افتتن محمود بها ، راعته منها خفتها وجرأتها . وجد فيها كل ما ينقص سعاد ، وكل ما تمنى لو استطاع أن يخلعه على سعاد . فتعرف اليها ؛ واتصل بها ، وجعل يفرج عن نفسه باللهو معهـــا كأنما كان يأبى الا أن يربح ما استطاع من رحلته ، ويستمتع بلذة الاصطياف ولو كرهت سعاد.

ولقد عرفت الأجنبية كيف تجتذبه ... عرفت كيف تغويه . عرفت كيف تستأثر بفكره ووقته ... أيكون قد بدأ حقا يحبها ؟ أيمكن أن يحب محمود مثل هذه المخلوقة المتهتكة الغادرة ؟ انه لا يفارقها ... انه يتبعها كظلها ... انهما يستحمان معا ... يستلقيان على الرمال معـــا ... يتباريان فى السباحة ... يتقاذفان حفنات الماء ... يتبادلان نفس الضحكة المعنوية البغيضة الماكرة. وها هما ... ها هما الآن يتقلبان فى حضن البحر ... يثيران الموج حولهمـــا ليصرعاه ... يشقان طريقهمـــا الى الشاطىء جنبا لجنب ... لقد وثبت الفتاة من جوف الماء كالدرة الساطعة تنبهها العيون . وها هو ذا محمود ينطلق فى اثرها كالســـهم ، مشعث الشعر يقطر منه الماء ، وهى تخالسه النظر وتنفض اعضاءها وتضحك .

لم يلتفت ... لم ينظر الى هنا ... تبع الفتاة وتغلغل بها فى وسط الجماهير . فأحست سعاد موجة من الدم تتدفق الى وجههـــا وكأن نارا تنهش صدرها ، فحولت أبصارها نحو عمها وزوجته فألفتهما يتحدثان فى

هدوء غير مكترثين لشيء ، فثارت اعصابها ، واشتد سخطهـــا ، وضاقت ذرعا بنفسها ، ولم تطق المكوث لحظة أخرى ، فنهضت ، ثم ظلت برهة واقفة لاتدرى لماذا نهضت . ملكتها الحيرة ، واحنقها اليأس ، وأذلها العجز والفشل ، فلبثت واقفة تتأمل الأرض وتفكر ...

وفجأة فغرت فاها كبلهاء ، ثم أومض محياها واتقد بصرها ورنت على شفتيها ابتسامة غريبة ، فانحنت على عمهـــا وقالت وهى تصطنع الضجر وتجتهد فى اخفاء عواطفها :

ــ لقد تضايقت . أريد أن أذهب الى شاطىء كليوبترة .

فربت عمها بيده على ذراعها وقال :

ــ اذهبى يا بنيتى وعودى بسرعة .

واردفت زوجة عمها وهى تقشر اللب وتأكل :

ــ وسلمى لى على نجية هانم وقبلى أولادها .

فهزت سعاد رأسها واستدارت ، ثم تولتها رعدة ، فجعلت تعدو وقد بدأت تحس على دهش منها أن الأرض اصبحت وطيدة تحت قدميها .

وانقضت بضعة أيام لاحظ فيها محمود أن شيئا من التبدل قد طرأ على تصرفات سعاد ، وأنها لم تعد تطيل الجلوس فى صحبة والديه على المقهى ، وأنها أصبحت تكثر من التغيب ، وتميــل الى الحركة والنشاط والانطلاق .

وكان كلما استفسر عنها أجابوه أنها فى شاطىء كليوبترة عنـــــد صديقتهم نجية هانم حرم درويش بك . فقام بذهن محمود أن سعاد تسلك حياله مسلك النساء جميعا ، وأنها لا تصد عنه الا لتهتاجه وتستفز كرامته فيسعى اليها مكرها صاغرا .

ولكنه كان رجلا شديد الكبرياء ، شرقى الاحساس بقيمة رجولته . فلم يسع اليها ، ولم يسألها مرة أين كانت ، بل كان يبتسم كلما رآها بعد غيبة طويلة ، مقبلة على الشاطىء فى رفقة روحية كريمة درويش بك .

ومع ذلك فالهواجس كانت تراود فى بعض الاحيـــان نفســـه ، والشكوك والريب تطوف بذهنه وتقلقه . غير أنه كان يطردها ساخرا ثم يمضي في رفقة من أصدقائه ، مبالغا في التقرب الى الاجنبية الشقراء ،

يتعمد أن يغازلها ، وأن يهبط البحر معهـــا ، بمسمع من سعاد وعلى مشهد منها ...

وأنقضت بضعة أيام أخرى وسعاد معرضة عن محمود ، ومحمــود يكايدها ، والجو بينهما كثيف ملبد لا يلطفه ابتســـام ، ولا يبدد غيومه حديث .

وكبر على محمود أن تتحداه سعاد على هذه الصورة وتثبت فى مقاومته ولا تكون البادئة بالاقبال عليه ، فتجهم لها وشاعت هذه الجهامة فى أخلاقه ، وزادها حدة عدم اكتراث الفتاة له .

وظلت تلك حالهما حتى دنت الساعة ووقع ما لم يكن فى الحسبان .

وكان ذلك فى صباح يوم وضاء السماء ، ندى الهواء ، حلو المجتلى ، وكان محمود يستحم فى البحر مع أصدقائه غير حافل بتغيب سعاد . وانه ليسبح على ظهر الماء ، ويفرق العباب بذراعيه القويتين ، محاولا اللحاق بالاجنبية الشقراء التى كانت تسابقه فى العدو وتروغ منــه كالسمكة فى اطواء اليم ، واذا به يرفع رأسه اتفاقا ، ويرمق الشاطىء بنظرة ، ويتئد بالرغم منه ، وتفتر عضلاته ، ويعتريه شبه دوار ...

أبصر منظرا لم يكن ليتوقعه أبدا .

أبصر سعاد .. سعاد .. بعينها .. سعاد الخاملة الهامدة ، فى رهط غريب من المستحمين شبانا وفتيات ، تضحك وتقهقه ، وتتقدم بهم الى البحر ، وهى فى قميص أحمر صارخ ، مكشوفة الصدر والساقين ، نصف عارية ، تتثنى قامتها لدنة كالغصن ، وتبرز تقاطيع جسمها بضة كالموح ، وتبرق بشرتها السمراء كما يبرق طمى النيل تحت أشعة الشمس .

وهللت ، ثم صفقت ، ثم رفعت ذراعيها ، ثم القت نفسها فى البحر . وجعلت تسبح فى رفق وحذر ، وأصدقاؤها من خلفها يقتحمون الماء ، وهى تتلفت اليهم ، وتنادى من بينهم شابا جميلا لا يعرفه محمود ، وتتمهل ما استطاعت لتجاوره وتسبح معه ...

وأحس محمود شيئا يطغى عليه ويشل عضـــلاته ويكاد يخنقه ، فلم يعد يفكر فى مطاردة غادته الشقراء ، واستجمع قواه ، وكر راجعا فى اتجاه الشاطىء .

ولما اشرف على البحر ، وأجال فيه بصره ، أخذت عيناه سعاد وهى

تغطس وتطفو ، والماء يصطفق حولها ، وذراعاها تضربانه ، والشاب الجميل يتبعها ، وهيكله الوثاب يكاد يحضنها ، فامتقع وجهه ، وأظلم البحر فى عينيه ، ولم يستطع اعجابه الخفى بسعاد ان يخفف عنه احساس الضيق والسخط والالم ...

وتراجع مطرق الرأس مهموما وقد تنزت كبرياؤه وعضت الغيرة قلبه ، ثم صعد الى المقهى ، واتجه صوب والديه ، وارتمى على مقعد كاسف البال ، مشرد الذهن ، كمدا حانقا .

وجلس حيث كانت سعاد بالامس تجلس ، وشرع ينظر عن بعد اليها كما كانت تنظر عن بعد اليه ... وفجأة افتقد نفسه فلم يجدها . نسي كل شيء . لم يعد يخطر على باله ذكر الاجنبية الشقراء . لم يعد يفكر فى اصدقائه ، لم يعد يشعر أن الشاطىء من حوله مأهول بالناس .

أحس أنه وحيد ، أحس أنه منبوذ ، أحس الآن فقط ، فىهذه الدقيقة فقط ، انه يحب سعاد حبا يفوق حد الوصف ، وانه لم يحسن معاملتها ، ولم يضن بها ، بل استهتر وفرط فيها ، وكان أحمق طائشا غبيا .

واستفاقت فيه على دهش منه نزعاته الشرقية الراقدة .

تبرم بهؤلاء النسوة اللواتى يعرضن أبدانهم العارية فى قحةوتحد . استنكر منهن هذا الاغراء الشائن . استنكف النظر اليهن . استغرب من نفسه كيف كان يعجب بهن . حقد عليهن جميعا لان من يحب أصبحت مثلهن فريسة لابصار الغريب ومحطا لشهواته .

واستحال مرحهن فى نظره الى تبذل ، وخفتهن الى تهتك . وعريهن الى انحطاط وفجور .

وذكر كيف كانت سعاد بالامس ، وكيف كان مظهرها ، وكيف كانت رصينة مهيبة محتشمة ، تحرص على ستر محاسنها ، وتغريه بالتحفظ مثلها ، وتحبه لما كانت تعتقد فيه من نخوة شرقية متأصلة . فازداد ألمه ، وازداد شعوره بمسئوليته ، ومجت نفسه لهو الشاطىء ، وارتدت الى سجن تقاليدها ، فخطر له أنه لو عاد الآن كما أرادت سعاد منه فى الماضي أن يكون ، فلا بد أن تنصرف عن أصحابها ، وتعرض عن الشاب الجميل وتعود توا اليه .

واستولى عليه هذا الخاطر فلم يتردد ونهض لساعته ، وأسرع الى الكابين ، وارتدى ثوبه العادى ، ثم عاد الى المقهى فجلس حيث كانت

سعاد بالأمس تجلس ، وجعل ينظر عن بعد اليها كما كانت تنظر عن بعد اليه ...

وكان فى عزلته كئيبا حزينا ، يترشف فى بطء قدحا من القهوة ، ولا يكاد يتطلع الى البحر حتى تأكل الغيرة قلبه ، فيرتد طرفه زائغا وجلا كليلا ..

وظل هكذا لحظات ... وملء نفسه الامل أن تلمحه سعاد فتفهم . ولكنها كانت منصرفة بجمعها الى هويتها الشائقة الجديدة ، لاتسمع نداء عمها ، ولا تحفل بصيحات زوجته ، بل تضرب المياه ضربا عنيفا ، وتشقها فى حمية ولهفة ، مشرفة على منطقة الخطر ، يطاردها الشاب الجميل وتطارده ، وقد انتشت وغابت عن صوابها ، واتخذت من البحر الشاسع مسرحا لميولها الفتية التى طال كبتها واحتجازها .

وحز فى صدر محمود هذا الاستهتار الدال على فرط الشعور بالسعادة ، وتضاعف خفقان قلبه ، ولم يستطع الثبات فى موضعه فتململ وتحرك ونهض متأهبا لمغادرة الشاطىء .وفى تلك اللحظة أبصرها... تندلع أمامه من جوف البحر كالشعلة ، يتبعها رفاقها الاغراب الذين جاءت بهم من شاطىء كليوبترة . فحدق اليها ، فابتسمت ، ثم لوت وجهها ، ثم وثبت الى صخرة ناتئة ، ثم وقفت منصوبة القامة ، بارزة الصدر ، مزهوة بجمالها وشبابها ، وجعلت تعصر جدائل شعرها الأسود ، وجسمها الغض يتثنى ، وحبات الماء تترقرق منه وتتخلف عليه لتقبله .

ولبث محمود يحدق اليها ، عاجزا مأخوذا ، لا يكاد يصدق أنها هى سعاد ، ولا يكاد يتصور أن هذه الفاتنة من عذارى الماء التى هى اليوم خطيبته يمكن أن تكون فى الغد لسواه .

وقهقهت ، وأسرعت بالقفز من الصخرة ، وبدلا من أن تتجه اليه وتحييه ، استدارت وتحولت ومرقت من بين أترابها ، ولحقت بالشاب الغريب الجميل.

عندئذ أفاق محمود من سباته ، وغلى الدم فى عروقه ، وأحس كبرياءه تنفجر فى صدره وتدفعه الى الامام ، فلم يتمهل ولم يحجم وانطلق فى اثر سعاد .

ولما اقترب منها ناداها باسمها ، فالتفت اليه الشاب الجميل عابسا مستكبرا ، أما هى فلم تعبأ ولم تتوقف ولم تجب . فكرر النداء ، فتأدت

فى سيرها قليــلا ، وحولت اليه بصرها لحظة ، ثم استأذنت الشاب ، وتركته حانقا مذهولا ، وعادت الى محمود وهى تضحك ضحكا ساذجا مطمئنا أشبه بطفل واثق من انه لم يرتكب اى ذنب .

وغاظته منها ضحكتها الصافية فقال على الفور وهو يرعد :

ـــ من هذا الشاب ؟

فهزت كتفها غير مكترثة وقالت :

ـــ لا أدرى ... انه صديق !

فقطب محمود حاجبيه وقال وهو يلهث :

ـــ صديق ؟ ... أشكرك ... لقد تعرفت اليه هناك ولا شك ... مع بقية الاصدقاء ... فى شاطىء كليوبترة ؟ ..

فأجابت وهى تقهقه :

ـــ نعم . وكان يعلمنى السباحة كل يوم .

فامتقع وجه محمود وتمتم بين أسنانه :

ـــ حقا لقد أصبحت ماهرة !

فاستضحكت وقالت :

ـــ الفضل لك أنت !

فأهاجت هذه السخرية أعصابه وصرخ :

ـــ أمنعك من الاتصال به !

فتطلعت اليه مندهشة ، ثم رمقته بنظرة جانبية من خلال أهدابها ، ثم تطوحت وقالت وكأنها تدور حول نفسها :

ـــ وهل أنا منعتك من الاتصال بالأجنبية الشقراء ؟

فأطرق وأجاب بصوت غائر وهو يعبث بأزرار سترته :

ـــ لن أتصل بها بعد اليوم !

فانتفضت سعاد وقالت بصوت متهدج ملهوف :

ـــ ألا تحبها يا محمود ؟

فرفع رأسه والقى عليها نظرة . القى عليهـــا نظرة تائهة بائسة ممزقة تمثل فيها كل ما عانته نفسه فى هذا اليوم المشـــئوم من صنوف الحرقة والكمد والعذاب ، فارتجفت سعاد وانخلع قلبها وغمغمت :

ـــ محمود ...

وساد بينهما الصمت لحظة ، وفجـــأة التصقت به وتأبطت ذراعه وأسرت فى أذنه كأنها تقبله :

ـــ سامحنى يا محمود !

فأجفل واستضاء وجهه وصاح :

ـــ لن ترى ذلك الشاب ؟ ...

فهتفت :

ـــ أبدا ! ..

فاستوقفها وأمسك بيديها وقال وهو يهزهما ويهدر :

ـــ ولن أسمح لك بالنزول الى البحر .

وتملكته عزته فأردف بصوت غليظ أجش :

ـــ لم أعد أطيق رؤيتك فى هـــذا الثوب ؟ ... الأنظار تحـــوم حواليك ... الكل يتبعك والـــكل مأخوذ بك ! ... يجب ... يجب أن تعودى الى ما كنت عليه !... أريد أن أرى سعاد التى عرفتها بالأمس .

فصمتت سعاد لحظة ، ثم شخصت اليه ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة حزينة ، وقالت فى بطء وهى تهز رأسها :

ـــ لا ... لا يا محمود ... لو طاوعتك اليوم وعدت الى ما كنت عليه فلا بد أن تنفر غدا منى وتنبذنى ... أنت لا يمكن أن تحب الفتاة الخاملة الجاهلة البلدية التى كنتها بالامس ! ... لقد فهمت أخلاقك ... أنت تريدنى حرة وفاضلة ، جريئة ومحتشمة ، عصرية ومتحفظة ، وسأكون كما تريد ... وسأظل فى هذا الثوب ... وسأنزل البحر ... و ...

فقاطعها محمود صائحا :

ـــ لا أريد ... لا أريد ...

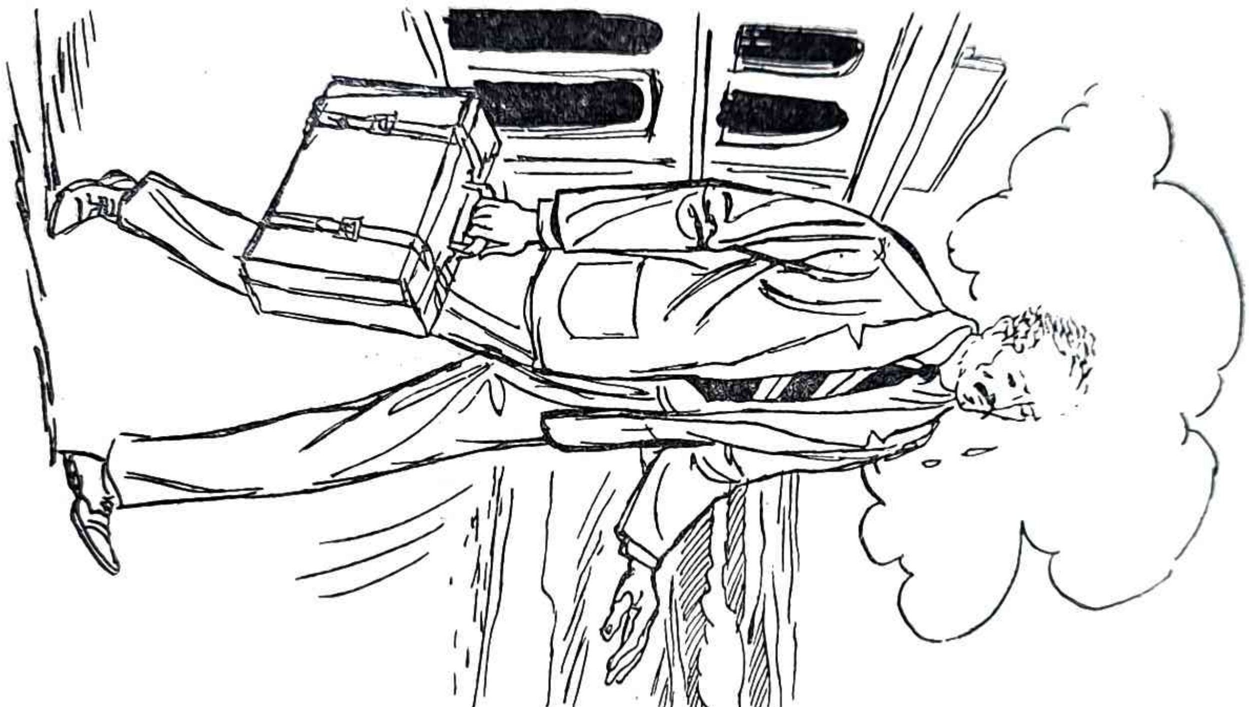
فطوقته بذراعها وقالت وهى تحتضنه :

ـــ ولكنى لن أنزل البحر الا معك ! ...

فأدرك انها قهرته ولم يستطع الا أن يرضخ ويبتسم .

واستطردا السير بخطى وئيدة غير شاعرين بأنهما قد بلغا الجانب المقفر من الشاطىء ، حيث لا تعكر أصوات الناس زرقة السماء ولا تنتهك أجسامهم حرمة البحر ...

بينَ الزوجة والحبيبة



كانت نعمت هانم قد ارتابت فى مسلك زوجها المحامى الاستاذ عبد الغفار . فظلت تراقبه حتى لمحته ذات ليلة وهو فى حجرة مكتبه يغلفها ويدس احدى رسائله بين أوراق مجلد ضخم . فلما أوى الى فراشه واستغرق فى نومه ، اشتدت هواجس نعمت . فنهضت من فراشها ، واستلت الرسالة من جوف المجلد . وكانت الرسالة بالفعل رسالة غرام كتبها الأستاذ عبد الغفار الى صديقته « أمينة هانم » واعتزم ان يبعث بها اليها صباح الغد فى الاسكندرية حيث تصطاف ... ولم تكد نعمت تقرأ الرسالة حتى تولاها من فرط الحنق شبه خبال .

وهذا ما قرأته :

حبيبتى أمينة :

لا أستطيع أن أصف لك مبلغ ما أكابد فى بيتى من عذاب . ولولا هذا العذاب الذى احتملته منذ أربع سنوات ، إى منذ أن تزوجت نعمت ، ما شعرت نحوك بالحب العميق الذى أعيش به اليوم ..

ومهما أفضت يا أمينة فى شرح حالى ، فأنا أحس أنى عاجز عن رسم صورة صادقة لنفسي ، وصورة صادقة لشخصية تلك المرأة التى ابتلانى بها القدر ، والتى جعلت من حياتى سلسلة متصلة من الآلام ..

ومع ذلك فلا بد أن أتكلم ... لا بد أن أكلمك أنت ... وأصارحك أنت .. والا فلن أستطيع أن أقدرك قدرك ، وأقنع نفسي بقيمة حبك ، واشعر بالفارق العظيم بينك وبين زوجتى ..

ان نعمت يا أمينة ليست إمراة ، وليست زوجة ، وليست أما .

انها مخلوق لا يرى غير نفسه ، ولا يهتم بغير نفسه ، ولا يحفل الا بحديث الناس عنه . ولقد تزوجت بى نعمت لا للزواج ، بل للظفر بمختلف أنواع المتع التى يمكن أن يحققها الزواج فالرجل عندها لاشيء . الرجل عندها يجب أن يعمل ، ويجب أن يخضع ، ويجب أن يدفع . أما الحياة ، الحياة الزوجية ، فهى فى نظرها المجتمع لا العائلة ، والعالم لا الأسرة .

والشارع لا البيت .. فكل ما يصدر عن البيت يسخطها ، وكل ما يصدر عن الخارج يذهلها ويطربها . فعاطفة الحب الزوجي لا تكفيها ، وعاطفة الأمومة المقدسة لا تشبعها ، واحساس الراحة والطمأنينة فى البيت لا يجد الى قلبها الموزع المضطرب سبيلا . انها مصابة بجنون الحياة ؛ بمرض التلهف على اللذة ، بداء السعى وراء كل جديد ، بحمى التقلب والتلون والحركة وعدم الاستقرار .

لقد جاهدت طويلا لاقتلع من نفسها جرثومة التشرد والفوضي . ولكنها كالمدمن على الخمر ، أو العاكف على المخدرات ، لا تشعر بالنشوة الا فى غمرة الزيارات ، وصخب الحفلات ، وضجيج السهرات ، وكل ما يمكن أن ينسيها عقلها ، وينسيها نفسها ، ويجعل منها ألعوبة مضحكة ، تحركها المظاهر ، ويعبث بها وهم الحياة .

والحق أنى احتملت منها هذا الطيش المروع صابرا . ولكن ما أثارنى فى النهاية عليها ، ونفرنى منها ، وبغضنى فيها ، هو أن هذا الضرب من الحياة أخمد روحها ، وحجر قلبها ، وجفف عواطفها ، وأحالها الى امرأة قاسية غليظة مستبدة لاهم لها الا انتهاز المصلحة ، واقتناص المنفعة ، وتحين فرص الاستغلال .

أنها تعيش معى وهى لا ترانى ، وتحوم حولى وهى لاتشعر بوجودى وتمنحنى جسمها الخامد وفى نيتها فقط أن تستغلنى ..

ولقد بت أشعر اليوم أنى اقترنت بغانية لا قلب لها ولا ضمير . غانية تعاشرنى لمالى . فكرهت نفسي ، وكرهت بيتى ، ولعنت زواجى ، وزاد فى حسرتى أنى كنت كلما فكرت فيك يا أمينة ، تمثلت أمامى شبح زوجك صديقى ، فترتعد فرائصي ولا أجسر على التقرب اليك ومكاشفتك بحبى ..

اجل أحببتك لأنك كنت المراة الوحيدة التى رأيت فيها نقيض زوجتى .. كنت الرقة والحنان ، والدماثة والعطف ، والطيبة والنبل ، والوفاء والاستقرار . فأولعت بك فى صمت ، واستعنت بعذاب حبك على احتمال عذاب حياتى .

وعندما علمت بوفاة زوجك ، أصابنى مس من جنون ..

غشينى فرح لا يوصف ، فهرعت اليك ، وتقربت منك ، وما زلت بك أوقظ نفسك وألهب قلبك حتى أحببتنى يا أمينة وأشفقت على ..

فافرحى الآن بدورك واسمعى :

لقد ماتت امرأتى أنا أيضا .. سأطلقها واتزوجك .. سأنبذ نعمت وانبذ ولدى الوحيد واتبعك .. هذا عزمى الراسخ وقرارى الأخير . فهل انت الآن واثقة فى صدق حبى ؟ .. أريد أن اسمع الجواب عند وصولى الى الاسكندرية ، قبلة منك على شفتى ! ..

وأتمت نعمت هانم مطالعة الخطاب والدم يغلى فى عروقها . ولبثت تفكر لحظة وهى مشدوهة . ثم حزمت أمرها ، ورمقت زوجها النائم بنظرة وتسللت الى البهو الكبير ، وأخذت قلما وورقا ، وكتبت الى زوجهـــا الأستاذ عبد الغفار رسالة دستها فى جيبه مع الرسالة التى كان قد كتبها الى صديقته ..

واليك ماكتبته نعمت هانم :

« حضرة الأستاذ المحترم .

لم يخطر لى أبدا أن أفتش فى أوراقك ومجلداتك . ولكن سلوكك الشاذ فى هذه الفترة الاخيرة هو الذى دفعنى الى هذا العمل الذميم . فأنا أعتذر اليك وان كنت أشعر فى صميم نفسي أن ذنبى لا يمكن أن يقاس بذنبك ..

واذن فأنت تحب صديقتنا أمينة هانم وترفعها الى مصاف الملائكة الابرار ، بينما تكرهنى أنا وتذلنى ، وتحقرنى ، وتنعتنى فى رسالتك اليها بأقبح النعوت ...

شكرا لك على هذه الاخلاق التى كشفت لى آخر الامر عن حقيقتك .

لقد دافعت عن نفسك فى خطابك دفاع الابطال ، والصقت بى كل التهم ، ورميتنى بكل النقائص . فهل تسمح لى الآن بالدفاع عن نفسي ، دفاعا أبرىء به ذمتى قبل أن يتم الطلاق الذى يعلم الله انى أتمنـــاه من اعماق قلبى ؟..

واذا لم تسمح لى فأنا سأسمح لنفسي ..

تقول انى امرأة مجنونة بالحياة ، مفتونة بالدنيا ، مأخوذة بالمسرات والمتع . هذا صحيح . ولكن من علمنى ذلك ؟ .. من المســـئول عن

ذلك ؟.. أليس هو أنت ؟ .. ألست أنت الذى كنت تكره بيتك ، وتكره طفلك ، وتأبى الا أن تعيش فى جو العزوبة وأنت رجل متزوج ؟ . ألست أنت الذى كنت تزين لى الحرية ، وتدفعنى الى التمتع ، وتغرينى بانتهاب فرص الملذات ، وتسوقنى بالرغم منى الى الحفلات والسهرات فى أوساط مزيفة كانت تمجها نفسي ؟ .. الست أنت الذى علمتنى كيف العب البوكر واشرب الخمر ، وأقامر فى السباق ، وأراقص الرجال ؟ .. ألست أنت الذى كنت تضطرنى الى السهر وأنا مرهقة ، وتجبرنى على المقامرة وأنا مريضة ، وتكرهنى على الرقص وأنا حامل ؟ .. أنت الذى كنت مجنونا بالحياة لا أنا ! .. أنا كنت عذراء ، عذراء جاهلة تائهة ، عذراء ساذجة غريرة ، عذراء لا تقل براءة وطهارة عن أمينة هانم مثلا ..

ولكن الذى حدث فيما بعد هو أنك تعبت وسئمت .. اجهدك فرط السهر والعربدة . فزهدت فى الدنيا ، وتاقت نفسك الى حياة البيت .. وبعد أن شبعت من المتع والملذات ، أردت أن تفرض هذا الشبع على امرأتك .. غير أنى أنا لم أكن قد شبعت بعد . لم أكن قد ارتويت بعد . لم أكن قد شعرت بأنى أصبحت كهلة وقعيدة بيت ..

وفى تلك الفترة فقـــط بدأت تكلمنى عن الأسرة ، وعن الواجب ، وعن الرباط الزوجى المقدس ، وعن الحب الذى يجب أن تشعر به كل امرأة نحو زوجها .. الحب ؟ .. دعنى أضحك . لقد علمتنى كيف أحب الحياة ، ولكنك لم تعلمنى كيف أحبك أنت ! . وكيف كنت تريد أن أحبك وقد أقمت من الدنيا الواسعة حاجزا بينى وبينـــك ؟ كيف كنت تريد أن أحبك وانت لم تقربنى أبدا الى نفسك . ولم تفتح لى أبدا مغاليق قلبك ، ولم تطلب الى أكثر من مشــــاركتك فى ملذاتك ، ولم تحدثنى قط الا عن المذكرات والحيثيات والمستندات وما أشبه ؟! .. لا .. أنا لم أحببك لأنى لم أعرفك ، وأنت لم تحببنى لأنك لم تشأ أن تخاطب قلبى وتوقظ عواطفى لتعرفنى ! .. وحيث أنى ــ كما يقول المحامون ــ لم أحس نحوك بأية عاطفة ، فقد فعلت ما تفعله جميع النســــاء . طمعت فى مالك فقط ، واتخذت منك وساطة للمنفعة وأداة للاستغلال ..

وهكذا أبغضتنى . أبغضت أخلاقى التى لم يفســــدها غيرك ، وأبغضت نفسي التى لم يلوثها سواك . ولمـــا اشتد بك البغض والحقد تحولت عنى وانصرفت الى أمينة هانم .. أمينة هانم ! .. نعم . المرأة الكاملة ! .. الملك الطاهر ! .. المثل الاعلى ! .. المخلوق النادر الذى اجتمع فيه كل ما ينقص زوجتك وكل ما ينقص المرأة اطلاقا !.. يالك من

مسكين !.. أتظنها حقا كاملة أم انك تريد ان تعتقد فيها الكمال ؟ .. عفوا .. ليست النميمة من طبعى ، ولا احب لنفسي أن أنحط فاستمرىء الوشاية بالآخرين .. ومع ذلك فلا بد ان اتكلم .. لا بد أن أتكلم انا ايضا حرصا على راحتك فى المستقبل واشفاقا عليك من مرارة الخيبة وذل الحسرات .. ولكن اياك أن تظن ان ما يدفعنى الى الكلام هو الغيرة من امينة هانم أو بقية من الأمل فيك . فأنا لا اتوقع منك شيئا. لا أحبك . لا اريدك . وأما أمينة هانم فأنت نفسك تعلم أنى أصغر منها ، وأجمل منها ، وأشد بياضا منها ، وأسمن منها ، وشبشبى القديم ينورعليها وعلى مثيلاتها .. واذن فلا تغضب . بل أرهف أذنيك واسمع :

ان أمينة هانم لا تحبك ! .. أتفهم ؟ .. لاتحب اى رجل ! .. لا أنت ولا سواك . وأنا أعرفها أكثر منك لأنى امرأة ، ولأنى لا أحبها ولا أكرهها أمينة هانم ولا شك سيدة بيت رقيقة وديعة ظريفة ، ولكنها فى الوقت نفسه ممثلة ! .. ممثلة من الطراز الأول ! .. وستظل تمثل دور المرأة الكاملة حتى تعثر على زوج ، على الزوج المنشود .. الزوج الثرى الوجيه الذى ينقذها من حياة الفاقة والحرمان التى عاشتها خمس سنوات طويلة مع الموظف المتواضع زوجها المتوفى ! .. فالمال قبلتها ، واغراء الرجال بتمثيل الفضائل بغية اقتناص المال ، هو سر مهنتها .. فالخبث فى طبعها ، واللؤم فى قلبها ، والخديعة فى دمها . وهى لاتخدعك اليوم أنت وحدك ، بل تخدع غيرك أيضا فى الوقت نفسه .. افتح عينيك وانظر اليها .. تأملها جيدا .. راقب مسلكها وفكر ، فكر فى صديقها العزيز ، فى صديقها الحميم ، فى المهندس المشهور على بك .. ثم قل لى من فضلك ما سر زيارته المتعددة لها ؟ .. لماذا غافل أهله وتبعها الى الاسكندرية ؟ .. لماذا تقربه اليها وهى تحبك ؟ .. لماذا لا تنهره وتطرده اذا كانت حقا تحبك ؟ .. انها لا تحبك يا مسكين ، بل تستبقيك .. تستبقيك لساعة الشدة .. تضعك على الرف .. حتى اذا ما خاب أملها فى الزواج من صديقها على بك الذى تؤثره عليك لأنه أغنى منك ، وجدتك أمامها ، فارتدت اليك حالا ، وأنشبت فيك مخالبها ! . هذه هى أمينة هانم التى تقدسها وتعبدها . هذه هى أمينة هانم سارقة الازواج ومدمرة البيوت . وقد تجسر فتقول انى لا أفضلها مادمت أطمع مثلها فى مالك . ولكنى لم أطلب المال الا لأنى لم أجد الحب ، أما هى فتستخدم الفضيلة والحب لتعرف كيف تحصل على المال ! ..

فاذهب اليها .. اذهب اليها ولا تتردد ! .. أما أنا فسأفسح لكما

الطريق . سأرحل . سأرحل فى صحبة طفلى . ولن يصبح الصباح حتى أكون قد غادرت بيتك الى منزل والدى . فطلقنى وخذها . خذ فضلة الغير فأنت جدير بها . وشكرا لك على كل حال ومبروك عليك !.. »

((نعمت))

فلما أصبح الصباح واستيقظ الأستاذ عبد الغفار ولم يجد فى البيت لا زوجته ولا طفله ، وعثر على الرسالة وقرأها .. هاله أن تتجسس امرأته عليه ، وان تطعنه فى كبريائه ، وتمزق حلمه ، وتشوه الصورة الرائعة التى يحملها من حبيبته . فجن جنونه ، وتفاقم بغضه ، وعصفت به شهوة الانتقام . فارتدى على عجل ثيابه ، واسرع وجاء بشاهدين ، وطلق نعمت ثلاثا ، وبعث اليها بورقة الطلاق .

وفى اليوم نفسه استقل القطار الى الاسكندرية ، واتجه من فوره الى حيث تقيم أمينة هانم يحمل اليها البشرى . ولكنه لم يكد يدخل ويستفسر عنها ، حتى انبأته صاحبة البنسيون انها تزوجت منذ يومين فقط .. تزوجت المهندس على بك ، وسافرت معه لقضاء شهر العسل فى مرسي مطروح ... فبهت الاستاذ عبد الغفار ، وجمد الدم فى عروقه وغادر البنسيون وهو شارد ومخبول . حطمه الذل ، وسحقته الخديعة ، ولم يستطع الا أن يفكر فى امرأته . ولكنه ذكر انه طلقها ثلاثا ، وانها أصبحت محرمة عليه ، وان ليس فى مقدوره أن يستردها الا اذا اقترنت بغيره ثم طلقت منه . فجاشت حسرته ، واسودت فى وجهه الدنيا ، وايقن انه فقد الزوجة والحبيبة والولد . وعندئذ أحس لأول مرة فى حياته انه تائه ومنبوذ . فعض على شفتيه حنقا وكمدا ، وانفجر الدمع من عينيه ...

مأساة امرأة



نظرت الى مرآتها ، وتأملت فترة بريق عينيها السوداوين العميقتين ، وتألق وجنتيها الحمراوين الناضرتين ، وبياض بشرتها الناصـــع ، وثورة شعرها المموج الغزير المتهدل على كتفيها الغضتين ، فجاشت الثورة فى نفسها ، فأطرقت وتراجعت وطفرت من عينيها الدموع .

لم تفهم ، لم تستطع أن تفهم كيف تسبغ عليها الطبيعة كل هذا الجمال ثم تتنكر لها ، وتغدر بها ، وتبتليها بحرقة الحظ العاثر ، وتجعل من هذه الحرقة الكاوية قسمتها ونصيبها ! ..

لقد تزوجت وهى فى العشرين موظفا حكوميا متواضـــعا ، طيب القلب دمثا وكريما ، أعقبت منه طفلة ، وعاشت فى صحبته كأسعد ما يمكن أن تعيش امرأة . ولكنها لم تكد تنعم بفرحة زواجها وأمومتها ، حتى غافلها حظها الغاشم وأنشب مخالبه فى زوجها . فأصيب الشاب بعلة قلبية داهمة أودت به ولما يمض على زواجه أكثر من ثلاثة أعوام .

واستفاقت « نجوى » واذا بها أرملة .. أرملة تحمل طفلة ، وتعتمد فى حياتها على معاش ضـــئيل خلفه زوجها . فارتدت الى بيت والدها المدرس الفقير ، وبدأت مأساة حياتها .

خشيت ان هى تزوجت بعد فقيدها وأوقعها حظها بين براثن رجل شرير ، أن تشقى ابنتها ، وتشقى نفسها ، وتفقد معاشها الخاص ، وكرامتها وحريتها وأمنها .. ومع ذلك فقد كانت امرأة وصـــبية ، وفى حاجة الى رفيق . فانزوت فى بيت أبيها أشهرا ثم خرجت الى الدنيا وملء نفســـها الامل فى أن تعثر على رجل يشبه فى أخلاقه زوجها المتوفى .

وخيل اليها أن جمالها لابد أن يميزها ، ولابد أن ينقذها ، ولا بد أن يمنحها آخر الامر ذلك الزوج الطيب الكريم المنشود ولكن الرجال أعجبوا بجمالها وأحجموا عن التفكير فى الزواج بها .

كان أفضلهم وأطيبهم يتبرم بفقرها ، ويتبرم بابنتها ، ويوجس فى أعماق نفسه خيفة من جمالها وحريتها ، ولا يكاد يتصل بها حتى يغرق فى اطراء

محاسنها ، ثم يغازلها ، ثم يتهافت عليها ، ويحاول ان ينتهك حرمتها ويتخذ منها عشيقة لا زوجة ..

واحست نجوى أن ليس من الميسور عليها أن تعثر على زوج ، وأن حياتها ، بوصفها أرملة وأما وصبية وجميلة وفقيرة هى طريق وعر محفوف بالاشواك ، فارتعدت فرائصها خشية أن تضجر ، فتزل بها القدم ، فتنقلب الى أرملة مستباحة ، تغامر بحياتها كلها وتلوث فوق ذلك سمعة ابنتها الوحيدة وتهدد مستقبلها ..

وروعها هذا المصير المتربص بها ، فانطوت على نفسها ، وتجنبت مجالسة الرجال ، وازدادت يقظة وحذرا وتحفظا ، وراحت تبحث عن ملاذ لنفسها ، ومنصرف لهمها فى الاتصال بطائفة مختارة من صديقاتها المتزوجات ..

ولكن الصديقات أيضا برمن بها .. كانت كل زوجة تغار منها على زوجها ، وكل أم تغار منها على ابنها ، وكل فتاة تغار منها على خطيبها ، وكل أرملة تغار منها على زوج قد يعرض لها ، وكل امرأة لا تستطيع أن تتصور لحظة واحدة أن نجوى الأرملة الحرة البديعة الحسن يمكن أن تكون حقا شريفة وعفيفة وفاضلة ..

وأوصدت معظم الابواب فى وجهها ، ولم يعد فى مقدورها الا أن تغشي بيوت العجائز من المتزوجات ، والعجائز من العانسات ، والعجائز من الارامل البائسات التاعسات ، فاسودت الدنيا فى عينيها ، وتقلصت ظلال الامل من خيالها ، وأحست أنها وحيدة وشريدة ومنبوذة . فعادت وانزوت فى بيت أبيها ، مغرقة همها فى دموعها ، لائذة من حسرتها بعزة نفسها ، عاكفة على تربية ابنتها الوحيدة ، خانقة فى صدرها سورة الشباب ووقدة الحواس ودعوة الدنيا ..

والحق ان هذه الدعوة كانت تهيب بنجوى من أعماق شبابها وتصليها مر العذاب . كانت تحس فى بعض الاحيان أن جسدها يشبه مرجلا يغلى ، وأن عروقها تنبض وتهتاج وتوشك أن تجمح بها . فكانت تسرع من فورها الى الحمام ، وترسل على بدنها الظامىء سيلا من الماء الفاتر ، تخمد فى غمرته سورة حواسها ..

ولبثت تقاوم اكثر من عشر سنوات . فلما توفى أيضا والدها ، ضاقت بها الدنيا ولازمها اليأس والكمد ، وغشت وجهها كآبة ذليلة

مستعصية . ومع ذلك فقد ظلت جميلة ، بل لقد أينع جمالها وهى امرأة ناضجة وازدهر برغم همها . فكانت اشبه بزهرة بيضاء من ازهار الخريف الباكر ، لا يفتأ ينمو حسنها الخلاب ، ولكن تحت شمس فاترة ، وسماء حزينة ملبدة الغيوم . على أن مقدم الخريف هذا كان يضاعف قلقها وعذابها .

لم تستطع أن تتصور كيف يمكنها أن تحتمل الهزيمة لو قدرت الى الابد عليها . لم تستطع أن تتصور كيف يمكنها أن تعيش بعد أن تكون قد فقدت شبابها الذى يحملها ، وجمالها الذى ينعشها ..

واحتوتها هذه الفكرة المفزعة ، فردت اليها من جديد عزمها وارادتها وثقتها فى نفسها . فعادت تخرج الى الدنيا ، وتتصل بالناس ، وتغشى مجالس الرجال ، تصونها عزة نفسها المتأصلة ، ويدفعها الامل المبعوث ويلقى فى روعها بما يشبه الايمان ، ان مسلكها الواضح الصريح الشريف لابد أن يجد فى النهاية من يفهمه ويقدره .

وكان ما تمنته نجوى بعد طول الصبر والعذاب .. عرفها موظف حكومى كبير ، لم يعجب بها فقط بل عشقها عشقا فجائيا مبرحا ، وأحب ابنتها أيضا من أجلها ..

وكان « مختار » رجلا عزبا فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ، مديد القامة ، مفتول العضل ، حلو البسمة ، ساحر النظرة ، رخيم الصوت . فيه ذلك المزيج من القوة والرقة الذى يستهوى النساء . وكان لفرط ما ألف فى شبابه معاشرة الغوانى ، يعتقد أن كل امرأة مغرضة ، وكل أنثى منافقة ومخاتلة وغادرة . فلما أبصر نجوى وراعه جمالها ، استشعر فى الوقت ذاته براعتها الاصيلة ، فهفت نفسه الى ما لم يجده فى قرب الغانيات ، فانجذب الى نجوى ، وأسرع بعد أسبوعين من تعارفهما وطلب يدها .

وأذهل نجوى هذا الحظ السعيد الخارق الذى لم تكن تتوقعه فلم تتردد ، وضحت بمعاشها الخاص ، وقبلت مختار زوجا لها .

وتم الزواج ، وعاشت نجوى وابنتها فى منزل شائق فخم . فطربت وانتشت ولكنها لم تبطر ، وبقدر ما عانت من صنوف النبذ والتحقير والحرمان اكثر من عشر سنوات وهى أرملة ، أرادت أن تكون طيبة ومخلصة وعارفة بالجميل وهى زوجة فأغدقت على قرينها من آيات حبها وحنانها ما ضاعف افتتانه بها .

غير ان هذا العشق الذى الهبه عرفان الجميل كان هو بالذات سبب شقائها ..

اذهلت مختار روعة المتع الحسية والمعنوية التى جناها من نجوى . فبدل أن يمضي فى رعايتها ، ويبادلها كعادته معروفا بمعروف ، تطور فجأة وتحول ، واستيقظ فيه على دهش منه كل ما تخلف فى نفسه من معاشرة الغوانى . استيقظت فيه شخصية الرجل الفظ الغليظ المستهتر العربيد ، الكافر بصدق النساء والموجس من تلونهن وغدرهن . فشرع يغار على نجوى غيرة ظالمة جائرة مستبدة لم تكن فى حسبانها أبدا ..

أراد أن يحوزها ، أن يمتلكها بالجسد والفكر والروح ويخنقها .. فكان لا يفتأ يتحرى عن سلوكها ، ويتعقب خطواتها ، ويحصي عليها حركاتها وسكناتها ، بل كانت تنتابه الوساوس اذا اتفق أن غادرت البيت بدون اذنه ، وتحيط بعقله الظنون اذا التقت مصـــــادفة بصديق أو قريب ، ويضطرب ذهنه الى حد الهوس اذا أبصرها تتحدث الى رجل لا يعرفه ، فتستولى عليه فكرة الخيانة ، فيشرع فى تعذيب امرأته وتعذيب نفسه دون رحمة ..

وطفق يحقق معها ، ويتوسل اليها أن تذكر له أسماء عشـــــاقها السابقين ، ثم يردف واثبا بها صارخا فيها انها جميلة ، وان جمالها لابد أن يكون قد ساقها بالامس الى التبذل والتهتك ، وانها كما خدعت الناس عشر سنوات وهى أرملة ، فمن المحتمل جدا بل من المؤكد أن تواصـــل اليوم خداعه هو وهى زوجة !

وكانت نجوى التى هالها تبدل زوجها ، وهـــــالها أن تذهب كل تضحياتها هدرا ضياعا ، تحتمل شكوك مختار وظنونه ، مســـــتنكرة ومسترحمة وصابرة ، ولكن هذه الاهانة الجديدة ، هذه الاهانة المروعة غير المنتظرة ، مزقت قلبها تمزيقا .. كانت قد تخلصت من كلمة ارملة . فاذا بهذه الكلمة المشئومة .. هذه الوصمة المنكرة ، هذه اللعنة المسلطة الغاشمة ، تعود فتكر عليها ، وتحتويها ، وتأخذ بخناقها ، وتجعل منها منار شك دائم ، وتدمغ ماضيها وحاضرها ومستقبلها بطابع من نار فثار ثائرها بل جن جنونها ، وانبرت تدافع عن نفسها .

فاضت بها الحسرة ، فجعلت تقسم اغلظ الايمان انها كانت ولا تزال شريفة وطاهرة ، بل اشرف واطهر واعف ممن تزوجن وهن عذارى ، ثم حرقتها لوعة الاتهام الباطل ، فمضت تبكى بكاء يفتت الاكباد ..

وبهت مختار لثورتها ، وهاله فرط عذابها ، فهجس فى روعه أنها ربما تكون صادقة ، وربما يكون هو قد ضل السبيل وظلمها فأخذته شفقة طارئة عليها ، وشفقة عميقة على نفسه وعلى حبه لها ، فضمها الى صدره ملهوفا ولاطفها ، ثم استغفرها نادما وقبلها ، ثم ثار على ظلمه وقسوته وبكى . ولكنه بعد بضعة أيام عاد ونبش فى ماضـــيها ، وعاد ولوث حاضرها ، وعاد واستبد بها واضطهدها ، أوفر مايكون عشقا لها ، وابلغ ما يكون فى الوقت ذاته غيرة عليها وامعانا فى حجبها واحتجازها وخنق حريتها ..

واشمأزت نجوى من هذا الحب الحيوانى المجرد المقرون بنزعــة الافناء والاذلال والتعذيب . فكرهت زوجها وعافت ملمسه . بل كرهت نفسها ، وكرهت أنوثتها ، وكرهت جسدها ..

وأظلمت الحياة فى عين نجوى ، وأحست فوق ذلها الجثمانى الشائن العميق ، أنها باتت تعيش فى بيت خانق كالسجن هامد كالقبر .

وانسحقت تحت وطأة هذه المنازعات وحاولت جهدها أن تكتمها ، وأن تخفى عن ابنتها البريئة مظاهرها المخزية . ولكن الفتاة كانت تسمع وتبصر وتفكر . كان يهولها عذاب أمها فتهرع اليها لتواسيها . فتبتسم لها نجوى دهشة ومستغربة . فيعز على الفتاة ألا تشركها أمها فى أحزانها فتصمت وتنكمش وتظل فى عزلتها تبكى بكاء مغيظ محنق .

وبرح الضيق والالم بنجوى ، فاعتلت صحتها ، وتزعزعت أعصابها ، وبدت كطيف شارد أو روح حائر أو هيكل معتصر وعندئذ تنبهت وتحركت وأفاقت .. خشيت أن تصاب بمرض يقضي عليها . خشـــيت أن تموت فتنكب ابنتها الوحيدة وتشردها . فاضطرمت فيها بغتة شعلة الارادة وغريزة البقاء فلم تفكر ولم تتردد ، واستجمعت ذات يوم قواها ، وأهابت بكرامتها وكبريائها ، وتحدت زوجها الظالم الوضيع ، وغامرت بكل شيء وطلبت الطلاق .

وأجفل مختار واضطرب . كان يحبها وكان يعيش ويفرح ويتألم ويتغذى من حبه لها وغيرته عليها . فعز عليه أن يفقـــد مادة حياته . فتشبث بنجوى وأبى أن يطلقها . فاشتد عزم المرأة ، وضاعف الرفض سخطها . فانقلبت الى مخلوقة شريرة متمردة قاسية ، وشرعت تناصب زوجها العداء فى قوة دائبة عنيدة لم يكن ليتصورها أو يظن لحظة واحدة أن نجوى قادرة عليها . وأمام هذه القوة الثابتة المتحفزة ، تراجـــع

مختار . تراجع وارتجف ، واصبح هو الذى يتوسل ، وهو الذى يتضرع ، وهو الذى ينتحب ويستجدى . ولكن نجوى التى غلظ قلبها وتحجرت عواطفها وضاقت نفسها ذرعا بخسة زوجها وبالبيت المروع الذى كان لا يفتأ يتراءى لها كالسجن أو القبر ، أصرت على الطلاق ، وهددت بالامعان فى التمرد والثورة ، فلم يسع مختار فى النهاية الا أن يسلم . فطلق امرأته وهو يتمزق . طلقها وهو يبكى ويقسم بالله أنه يحبها وأنه لن يتزوج أبدا غيرها ، ولن يعرف فى حياته امرأة سواها

وانطلقت نجوى من اسارها اشوق ما تكون الى الدنيا التى حرمت من اجتلاء طلعتها ثلاث سنوات . أما مختار الذى أضنته القطيعة وزادته شغفا بنجوى ، فقد سعى اليها بعد أيام ، وطاردها ، وحاول جهده أن يستميلها ويستغفرها ، ولكنها وقد امتلأت نفسها بغضا له وحقدا عليه وذعرا منه صدته فى صلابة حازمة وقاطعة ، فانصرف عنها مكرها وهو يبكى كعادته بكاء الاطفال ، ويردد أن ليس فى مقدوره أن ينساها .

وتنفست نجوى الصعداء ، وشرعت تفكر فى حياتها .

وكان عليها أن تكافح لتعيش . فلم تتحرج ، ونفضت عنها عبء التقاليد التى كبلتها ، ومضت لاول مرة تبحث عن عمل .. وبحثت طويلا ، وأراقت ماء وجهها فى صبر واحتمال فوفقت آخر الامر الى مؤسسة تجارية طلبت اليها أن تزودها ببعض فساتين للاطفال وقمصان نوم للسيدات . فأكبت على العمل فى بيتها ، وتعاونها ابنتها فهيمة التى كانت قد شبت وترعرعت وبلغت الخامسة عشرة من عمرها .

وخلب شعور الحرية والكرامة والاستقرار لب نجوى ورد اليها صحتها .

وبقدر ما قاست وتعذبت وحرمت ، أرادت أن تعيش وتفرح وتتمتع . فخرجت الى الحياة فى صحبة ابنتها ، زهرة مجلوة ، وثمرة شهية ، وامرأة ناضجة ساحرة ، تكسف شمسها فى غروبها الرائع جمال ابنتها الحائر القلق الساذج الغرير ..

على أن مرح نجوى كان بريئا ، ولهوها كان نزيها ، وفرحتها بالدنيا كانت فرحة قلب وروح . فغشيت الملاهى وبعض المجتمعات للتسلية والتفريج ولم تترخص ولم تتبذل ولم تخطر على بالها لحظة واحدة أن تغازل رجلا أو تقرب معجبا أو تفكر فى زواج .

كانت قد كرهت الرجال جميعا لفرط ما كرهت مختار .

وكان كرهها الشديد لهم يتجلى فى استغراقها الذاهل المفتون فى التمتع بكل ماهو شائع ومباح وبرىء .. ولكن هذا الاستغراق نفسه عاد فلفت الانظار اليها ، وعاد فأثار الشبهات حولها ، وعاد فمزج بين ماضيها وحاضرها وجعل منها فى هذه المرة ايضا ضحية وفريسة ..

طمع الرجال فى جمالها وحريتها كما طمعوا بالامس ، فعادوا الى التهافت عليها متكالبين . أما النساء ولا سيما الدميمات البائرات المتحرقات اللاتى عرفنها فى الماضي وكن يغرن منها ويحسدنها على جمالها وحظها فى زواجها ، فقد تصدين فجأة لها ، وتألبن عليها ، واشعن فى البيوت أنها لم تطلق من زوجها الا لسوء سلوكها .

وحلت على نجوى لعنة المطلقات بعد لعنة الارامل . فعــــادت الزوجات والفتيات ونفرن منها ، وعادت الارامل والعوانس وتباعــدن عنها . وحتى المطلقات المتبذلات المستهترات انتهزن الفرصة وشهرن بها ليؤكدن استقامتهن على حسابها . فأوصدت فى وجهها معظم البيوت مرة أخرى . فالتهب سخطها ، واتقد حقدها وأمعنت فى اللهو والمرح متحدية أترابها تكيدهن بحسنها وأناقتها وحريتها ، غير حافلة بألسنتهن الخبيثة التى كانت تمج السم فى سمعتها وعرضها .

واذ ذاك وقع الحادث الذى فصل فى مصير نجوى

ناهزت ابنتها سن الزواج . وتفتحت عواطفها وحواسها على دعوة الدنيا . فأبصرت الوجوه مكفهرة أمامها ، والبيوت مغلقة دونها ، وأمهــا نفسها مستكبرة وشامخة لاتكترث لجفوة المجتمع ولا تقيم وزنا لاقــوال الناس. فدب الحنق فى نفس فهيمة . فحاولت أن تلطف من غلواء لهيبها ، وتصل ما انقطع بينها وبين صديقاتها ، وتقنعها بأن سطوة المجتمع أقوى من كبريائها . ولكن نجوى التى سامها المجتمع شر ضروب الهوان ، أبت أن تحنى رأسها وتعود فتتصل بمن حقرها وأذلها . فالتهب شعور الحنق فى صدر الفتاة وعزمت أن تنقذ نفسها بنفسها .

وخرجت فهيمة الى الحياة بمفردها تبحث عن زوج . وكانت ذكية فاتصلت بأوساط بعيدة عن الوسط الذى عاشت فيه هى وأمها . وكانت متواضعة ودمثة ورقيقة . فبالغت فى التواضع والرقة . فاجتذبت قلوب بعض الفتيات من رفيقاتها فانفتحت بيوتهن أمامها . فارتد اعتبارها الى نفسها ، وبدات تتعرف الى الشبان ، وتخالس الامل ، وتبتسم للدنيا ..

وكان خوف نجوى من المجتمع أيا كان يحول بينها وبين الظهور فيه بصحبة ابنتها . فطفقت تبصرها وتوجهها ، وتحذرها من عاطفة قد تطغى عليها ، ومن شاب قد يغرر بها ويحطم مستقبلها . ولكن الفتاة كانت متنبهة ويقظة . وكانت برغم رقتها وتواضعها عزيزة النفس ابية ، فحرصت كل الحرص على ذاتها ، واستطاعت فى الوقت نفسه أن تظفر بصداقة مهندس شاب يدعى صلاح ، احست انه قد أحبها وشرع يفكر جادا فى الزواج بها .

وطربت الفتاة والتهب فى نفسها الحب والامل معا . بيد أن السعادة التى كانت تنشدها ، السعادة المتواضعة ، السعادة الشائعة ، السعادة المشروعة التى هى من حق الجميع تنكرت لها فجأة وغدرت بها ، لم يكد اهل الشاب يستفسرون عنها ، وتترامى اليهم الشائعات عن مسلك أمها ، ويعزز أثر تلك الشائعات فى نفوسهم أن نجوى امرأة فقيرة وصبية وجميلة وأنها لبثت عشر سنوات أرملة ، وأنها فوق ذلك قد طلقت من رجل جليل وميسور وملحوظ المكانة فى المجتمع ، حتى أوجسوا من مسلكها ، فاعترضوا مشيئة ابنهم ، وحاولوا أن يفرقوا بينه وبين فهيمة ..

وأوشكت الفتاة أن تموت غما وكمدا . ولكن صلاح الذى كان قد احبها وأعجب بها ووثق فيها ، أصر على رأيه ، وثبت فى وجه أهله ، وأبى الا أن يزور حبيبته ويرى أمها بنفسه ويتعرف اليها .

وتخطف فهيمة الامل والخوف ، والرجاء واليأس ، فتمزق قلب نجوى شفقة على ابنتها . ثم احتدم فى نفسها السخط على المجتمع والناس . فأهابت بالفتاة الا يأس مع الحب ، وأن الشاب يحبها ، وانه مادام يحبها ويستمسك بها ، فستعرف هى ، أمها ، كيف تبذل المستحيل لتقنعه وتطمئنه وتودع الثقة المطلقة فى نفسه ، بل ستعرف عند الاقتضاء كيف تصارحه بكل ما وقع لها فى حياتها ، فتحرك ضميره ، وتلهب حبه ، وتحنن قلبه ، وتشعره بأنه يظلمها ويظلم ابنتها ظلما جائرا فظيعا لو خضع لارادة أهله وعدل عن هذا الزواج .

وتجدد أمل الفتاة وهدأت . أما نجوى فمضت تتأهب للذود عن مستقبل ابنتها ، وتتهيأ لاستقبال صلاح فى الموعد الذى عينه .

لم تتزين ولم تتجمل ولم تنعش وجهها بأى طلاء ، وارتدت ثوبا أسود بسيطا جللها من الصدر الى القدم ، ومكثت تنتظره .

وحانت الساعة ودخلت فهيمة مصحوبة بصلاح . وما ان تقدم الشاب

وحيا الأم حتى اجفل وتراجع وبهت .. راى مالم يكن يتوقعه أبدا . راى امراة بسيطة ، امراة متحفظة ومحتشمة ، امراة شبيهة بابنتها فى الرقة والتواضع والانكسار . ولكنه راى فى الوقت نفسه جمالا رائعا ، جمالا خارقا ، جمالا لا يقاس به جمال فهيمة ، جمالا طبيعيا خالصا متفجرا من وجه غض نضير ، وصدر ناهد ملىء ، وبدن لين ممشوق .

واشتد اضطراب الشاب وظل يتفرس فى نجوى .. لم يستطع ان يخفى دهشته . لم يستطع ان يكبح شعور القلق الذى احتواه . أحس انه أمام قوة قاهرة ، قوة مرهوبة ، قوة مستغلقة الجوهر ، مجهولة السر .. فارتبك فى حديثه ، وتلعثم فى كلامه ، ولم يطرق موضوع الزواج ، بل راغ منه وطفق يجامل ويتملص ويأبى أن يتورط ، وقد بدا فى صوته وحديثه وعينيه أنه يتوجس ويحذر ويخاف .. واشرأبت اليه نجوى وحدقت فيه . وسرعان ما أحست بكل ما يعتمل فى عمق ضميره ، وارتعدت فرائصها .. أدركت أن جمالها يتهمها . أدركت أن جمالها يطعنها . أدركت أن لعنة الجمال قد حالفت لعنة الترمل والطلاق عليها ، وأن الشاب الذى روعه حسنها وصباها أصبح هو أيضا يشك فيها ، ويذكر كلام أهله عنها ، ويرميها بما رماها به الناس وزوجها ، ويوشك أن يحزم أمره ويتخلى عن ابنتها ويذهب كى لا يعود .. واذ ذاك غلى الدم فى عروقها ، وجاشت فى نفسها عوامل الاستنكار والسخط . فلم تتردد ، واقبلت على الشاب ، وأجلسته بجوارها وكاشفته لفورها بكل شيء .. قصت عليه جميع فصول مأساتها . تكلمت فى صدق وصراحة . تكلمت بعقلها وقلبها وأعصابها . تكلمت كما يتكلم البرىء المظلوم فى صوت متدمس مستنكر ثائر

وصمتت نجوى وهى تزفر ، وتطلعت فهيمة الى صلاح ضارعة . ولكن صلاح برغم تأثره لم يتحرك . لم ينفعل ، وظل فترة ساهما ومنكمشا . وبدل أن يعرب عن فكره ويتقيد برأى واضح وصريح ، تملص أيضا ، ووعد بأن يبذل جهده لاقناع أهله ثم حيا المرأة والفتاة متأدبا وهم بالانصراف فجحظت عينا نجوى وهبط قلبها فى صدرها . أما فهيمة فقد كبر عليها أن تمتهن أمها نفسها وأن تبذل الى هذا الحد من كرامتها وكبريائها ثم لا يصدقها الشاب ويظل مترددا متشككا . فاستبد بها الحنق ، فانفجرت وصرخت فى وجه صلاح :

— أنت لا تثق فينا .. انت تعتقد أن أمى تكذب وتلفق وتنصب لك شركا .. انت حر .. حر فيما تعتقد .. ونحن لن نحاول بعد الآن اقناعك

أو التأثير فيك ، اذ كل كلمة ننطق بها سترتد علينا كأنها اقرار بذنب او اعتراف بجريمه .. فانظر الينا كيف شئت ، وتصرف تجاهنا كما يحلو لك . أما أنا فقد خاب ظنى فيك ، بل انهارت كل احلامى ولم يعد لى امل فى شيء .. أنا لا أريد أن اتزوج ياصلاح .. أتســمع ؟ لا اريد ان اتزوج ..

وهوت على مقعد وأجهشت بالبكاء . فدنا الشاب منها ، ولاطفها ، وطيب خاطرها ، ولكنه ظل مع ذلك مستريبا بأمها بل لقد أوجس ايضا من ثورتها هى ودموعها . فلم يشأ أن يقطع برأى ، واعتذر بعــد فترة وانصرف .

وعندئذ طاش صواب نجوى وانخلع قلبها . لم تكد تبصر الشاب يختفى ، وتبصر فهيمة متقوضة وشبه صريعة ، حتى واجهت الحقيقــة القاسية واقشعر بدنها . هالها أن تكون هى التى تحطم حياة ابنتها . هالها أن تكون هى العقبة فى سبيل مستقبلها . هالها أن تجعل من فلذتها الوحيدة ضحية ثانية . فأجالت بصرها فى فضاء الغرفة الزافر وشخصت. وفى مثل خطف البرق انبعثت أمامها ودوت فى كيانها مختلف الصــور والصرخات التى كانت لا تزال ترتعد لمجرد ذكرها . صور السجن الخانق والكهف الغائر والقبر السحيق ، وصرخات الغيرة الآكلة ، والشـــهوة الغاشمة ، والاغتصاب المنكر . فأغمضت عينيها لحظة وتصلبت ، ثم فتحتهما ثابتتين ، وارتمت على ابنتها وصاحت :

— لا .. لن أكون أنا العقبة التى تعترضك ! . لن أكون أنا السبب فى هدم حياتك ! . سأنقذك منى يا فهيمة ولو هلكت !

فتطلعت اليها الفتاة ذاهلة . ولكن نجوى لم تحفل وانطلقت من فورها وشرعت فى ارتداء ثيابها . فتشبثت بها فهيمة مذعورة وقالت :

— ماذا فى نيتك أن تفعلى ؟ .

فأجابت الأم كمعتوهة :

— سأعود الى زوجى .. الى مختار ! ان صــــلاح يخاف منى يا فهيمة .. يخاف من جمالى وشبابى وحريتى . لذلك عزمت أن اضع القيد من جديد فى عنقى ! . سأعود الى زوجى .. انه يسعى الى ويطلبنى . سأعود اليه الآن ، بل الساعة كى يفهم صلاح حقيقتى ، ويثق

فى أخلاقى ، ويطمئن الى مسلكى وانا فى عصمة رجل ، فيراجع نفسه ويندم ويعود اليك ..

فصرخت الفتاة :

ـ لا أريده .. وليس فى سبيله ولا فى سبيل أى رجل اقبل انا مثل هذه التضحية منك يا اماه !

فقالت نجوى :

ـ فى هذا وحده خلاصك يا ابنتى وعودة صلاح .

فهتفت فهيمة :

ـ واذا ظل صلاح مرتابا ولم يعد ؟ .

فقالت الأم :

ـ أكون قد أبرأت ذمتى ، وأيقنت أن غيره من الشباب سيقبل عليك ، ويطلب يدك ، واثقا فى أمك ورافعا رأسه بك ! .

فصاحت الفتاة :

ـ أبدا .. لن تقتلى نفسك يا أماه من أجلى ! .

فقالت نجوى فى هدوء :

ـ وأنت لن تتزوجى أبدا يا ابنتى ما دمت أنا مطلقة ! .

يجب أن أذهب . وسأذهب الآن . لانى لو ترددت .. لو انتظرت .. الى غد فقط .. فقد أضعف .. قد يهولنى ما سوف أحتمله ، فأتراجع بالرغم منى وأعدل ، وأضحى بك أنت بدل أن أنقذك ! يجب أن أذهب .

وأسرعت بارتداء ثيابها . فروعت الفتاة وقاومتها . ولكنها انهارت أمام اصرارها وثباتها . فلم يسعها الا أن تقول لها وهى تبكى وتتشبث أيضا بها :

ـ اذن فلا تترخصي .. لا تذهبى اليه بنفسك يا أماه .

ولكن نجوى التى كانت قد اتجهت صوب الباب ، نحت الفتاة عنها فى عزم وغمغمت :

— وهل بقى لى شيء من الكرامة احرص عليه . ان كرامتى فى ان أصونكَ انت وانقذك !

والقت عليها معطفها ، ومضت لمصالحة مختار .

*

ولما ارتدت نجوى الى زوجها ، وانقضت عدة أشهر لزمت فيها سجنها ، وانطوت وتهدمت وماتت عن الدنيا ، آمن صلاح بصدقها وشرفها . وعندئذ فقط حزم أمره وتزوج ابنتها .

عندما تغربُ الشمس



بعد أن قامت الست روحية بواجبها المقدس اليومى ، وأدت فى خشوع صلاة الفجر ، تحولت صوب فراشها وتفرست فى زوجهـــا الذى كان يغط فى نومه ، وارتسمت على شفتيهـــا الدقيقتين ابتسامة ملؤها الشفقة والاسي .. كانت صلاتها الحارة قد أخمدت سورة عذابهـــا ، واشاعت فى قلبها المضطرب نعمة الطمأنينة والسلام . وكانت هى نفسها امرأة وديعة وطيبة ، صافية النية ، خالصة السريرة ، لا تستطيع أن تكره ولا تستطيع أن تحقد ، ولا تستطيع أن تلحق اى اذى بأى مخلوق . فلما وقع بصرها على زوجها الممدد فى الفراش ، وتعلقت به عينهـــا الثابتة المحدقة ، هالها من نفسها أنها قد تكره لاول مرة ، وقد تحقد لاول مرة ، وقد تتمنى الشر والعذاب والهلاك لهذا المخلوق الذى هو رب بيتها وشريك حياتها .. بيد أنها أسرعت واستغفرت ربها عمـــا ساورها من نزعات السوء بالرغم منها ، ثم أنعمت النظر فى زوجها وهو يغط فى نومه غطيطا غائرا متعاقبا ، وارتعدت فرائصها .. كيف وقع هذا ، ومن ذا الذى كان فى وسعه أن يتصور حدوث شيء مثل هذا ؟! .. أن زوجها ، زوجها الذى أحبها وهى فى عصمة غيره ثلاثة أعوام كاملة ، والذى كتم حبه فى صدره طوال هذه الحقبة وقاسي مر العذاب من أجلها ، والذى أسرع بعد وفاة زوجها واقترن بها ملهوفا وأخلص لها ، هذا الزوج العاشق الوفى ينصرف اليوم عنها ويتبرم بها ، وينبض قلبه وبدنه وعقله بعاطفة جديدة شائنة ومروعة لم تكن قط فى حسبانها ! .. أجل . ان زوجهـــا الذى جاوز الستين ، والذى توشك أن تعصف به ريح الكهولة والشيخوخة وتخمد فيه وقدة الصحة والقوة والشباب ، أصبح ينزع الآن الى الحياة ، ويتوق الى الدنيا ، ويخالس الحب المنكر الاثيم ، ممثلا فى شخص سعاد .. ابنتها .. ابنتها من زوجها الاول .. ابنتها الصبية الجميلة البريئة التى لم تناهز بعد ربيعها العشرين ! ..

والعجيب أن محمود الذى لم يعقب خلفا ، هو الذى ربى تلك الفتاة اليتيمة وهو الذى تعهدها بعنايته اكثر من سبع سنوات ، وهو الذى كان يحبها حب والد لولده . ولكن الفتاة لم تكد تشب وتترعرع ، وتنبثق المرأة فيها ، ويزدهر سحر الأنوثة فى كيانها الغض النضير ، حتى اختلفت نظرة

الرجل اليها . فأمسي يحادثها وهو خائف ، ويلاطفها وهو مذعور ، ويتفرس فيها وهو ذاهل كأنه حيال قوة ملكت عليه مشاعره واستقرت من جسده وروحه فى الصميم .. لم يعد يفكر الا فى شيء واحد فقط .. هو أن يقصي عن الفتاة كل شاب . ان يفسد عليها كل زواج . ان يحتجزها فى بيته ما استطاع ، كى يحيا ولو بضعة أعوام ايضا بقربها ، ويتقلب هائنا فى جوها ، ويملأ بصره وقلبه من محاسنها ويحس شعلة المرح والقوة والصبا تندلع منها وتضطرم فى بدنه الخائر واعصابه الواهنة .. والاعجب من هذا أنه لا يفهم ولا يدرك ولا يرى . لا يفهم سر نفسه ، ولا يدرك خطر عاطفته ، ولا يرى من حوله أو يشعر بعذابهم أو يحفل بنظراتهم الواعية الثاقبة المسددة أبدا اليه .. أجل . انه مستغرق فى حلمه ، سابح فى نشوته ، يتخبط كأعمى ولا يفكر لحظة فيما يمكن ان تكون عليه حياته وما يمكن أن ينتهى اليه مصيره ومصير امرأته ، لو فاجأه القدر بالضربة القاصمة يوما ، واختطف منه معبودته وأسلمها الى رجل غريب ..

وهتفت الست روحية : رجل غريب ! .. ان غريمه ليس بالرجل الغريب .. انه شقيقه .. انه مختار .. شقيق زوجى .. هو أيضا يحب ابنتى ، وهى تحبه ، وكلاهما لا ينشد فى الحياة اكثر من أن يصبح زوجا لصاحبه ! .. فالاخ الاكبر يحب الفتاة ، والاخ الاصغر ينازعه فيها . ولسوف تدنو الساعة المرهوبة ويصطدم الشقيقان . وعندئذ تهرع الى ابنتى الوحيدة ، وتلتمس منى أن انقذها ! .. فماذا يجب على أن افعل ! .. انى لو شجعتها على الزواج بمختار ، فسيبغضنى قرينى ، وسأبقى ابنتى فى اسرتنا ، فأمكن زوجى من رؤيتها ، واضاعف بالغيرة حبه لها وسعيه اليها وحقده على شقيقه ، فأسمم حياتها ، وقد اغامر انا ايضا بمستقبلى وحياتى .. لا . لا يجب أن تتزوج سعاد بشقيق زوجى . لا يجب أن تتزوج «مختار» وان كانت تحبه . يجب أن تبتعد عنا .. أن ترحل عن القاهرة . ان تتزوج المهندس مصطفى وأن تتبعه الى الكويت حيث يعمل .. أما انا فينبغى أن اسرع. ينبغى ان اتصل اليوم بمصطفى ، وأن احثه على الثبات فى وجه زوجى ، وان اعده وعدا قاطعا بأنى لن اقبل غيره زوجا لابنتى . وهكذا أقصي الفتاة المسكينة وانقذها وانقذ ايضا زوجى ونفسي .. هذا هو واجبى ، وهو وحده طريق الراحة والخلاص !..

وصعدت الست روحية نفسا مستطيلا وانسلت الى الفراش بجوار زوجها. ولكنها لم تستطع أن تنام . فظلت تتمتم ببعض الادعية والأوراد، وبدنها يرتجف ، والحسرة على شبابها الضائع تمزق قلبها وتوشك ان تفجر من عينيها الدموع ..

ولم يكن على الزوج أن ينهض مبكرا الى عمله فى الوزارة . فاليوم كان يوم جمعة . فلبث فى الفراش بمفـــرده ، يتقلب ويتمطى حتى ساعة متأخرة من الصباح . وفجأة نهض شبه ملهوف وصفق فأسرعت اليه الست روحية . ولكنه لم يكترث لها ، وصفق ايضا ونادى سعاد .. فأقبلت الفتاة حاملة صينية كبيرة عليهـــا اقداح الشاى ، وأطباق مليئة بالفول المدمس والمربى والقشدة . فنظر محمود الى الفتاة وتألق وجهه المغضن ، وانفرجت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة كبيرة مهللة ومرحبة .. وطوق الفتاة بذراعه فى رفق وأجلسهـــا على الفراش بقربه فى حنان ، وطفق يشرب ويأكل ويدعوها الى مشاركته ، وهو يشـــخص فى بهجة وطرب الى عينيها السوداوين الساحرتين ، وجدائل شعرها المشـــوش الغزير ، وجبينها الساطع ، وخدها اللامع ، وبدنهـــا اللين الغض الذى كانت تهزه ضحكاتهـــا البريئة فيتماوج ويتثنى أشبه بغصن ناضر تداعبه لفحات النسيم . وكان يتأملها فى نشوة مزدوجة غريبة . نشوة حسية وعاطفية . نشوة مرتعدة ومشفقة . نشوة فيها رغبة الرجل ، وفيها أيضا حنان وتقديس الأب . وكان هو نفسه حائرا بين رغبته وخوفه .. موزعا بين لهفته الحسية وشفقته ، متخبطا بين شوقه البدنى الى الفتـــاة وبين شعوره بأنه يتهيبها ، ويجزع منها ، ويختلج أمامها ، ولا يجـــرؤ من فرط حنانه الابوى عليها أن يطلق العنان لبدنه الثائر ، وان يضمها الى صدره فى عنف كما يهوى . وكانت الفتاة تأكل وتضحك . أما الست روحية التى كانت قد ارتدت ثوبها الاسود وتلفعت بطرحتها السوداء ، وحملت معطفها متهيئة للذهاب الى بيت مصطفى ، فقد كانت تخالس زوجها النظر وهى مطرقة ، تعض على شفتيها تارة ، وتتصعب تارة أخرى ، وتحول وجهها نحو الباب كى لا تسمع ولا ترى .

وضاق زوجها ذرعا بوجودها ، فصاح بها نافد الصبر متململا :

ــ لا تتأخرى اذا كان فى نيتـــك أن تذهبى لزيارة .. أما أنا فلن أخرج . سأبقى .. سأبقى هنا فى صحبة سعاد .

فحزت الاهانة فى صدر المرأة وجمدت .. أما محمود فعـــاد يلاطف الفتاة ويدس فى فمها قطع الخبز محشوة بالقشدة والمربى ، والفتاة تلتهم وتضحك ، وهو يضحك لضحكها ، وينعم النظر فيها ، ويعب ظمآن فى محاسنها ولا يدرى أهو حيالها شهوة أم عاطفة ، جســـد أم قلب ، حيوان أم انسان ، رجل أم والد ؟ ! ..

وتخطفته عواطفه المشوشة المتضاربة .. فتراجع وبصره مثبت فى

الفتاة . فتنهدت زوجته ثم تحفزت وارتدت معطفها وهمت بالخروج . وفى تلك اللحظة سمع طرق خفيف على الباب ، وصوت يستأذن بالدخول. فانتفضت سعاد، وقطب محمود حاجبيه، وأجفلت الست روحية . ولكنها تقدمت محنقة ومكرهة ، وفتحت الباب ..

وكان القادم هو شقيق زوجها .. هو مختار ..

ودخل الشاب فى بطء . وما أن أبصر سعاد جالسة على حافة السرير بقرب شقيقه ، حتى ارتعش وتقبضت عضلات وجهه . بيد انه تمالك نفسه ، وحيا الجميع فى ابتسامة مغتصبة . ثم رمق سعاد بنظرة معنوية عازمة ، وارتمى على مقعد ، تطرح عليه ، وقال متوجها الى أخيه وهو يشعل سيجارة :

— أظنك لن تخرج اليوم ؟ .. أليس كذلك ؟ .. لى اليك حديث . ولقد انتهزت فرصة العطلة لأخلو طويلا بك .

فالتمعت عينا سعاد ونهضت . نهضت من فرط الفرح واثبة . نهضت دون أن تلقى على زوج أمها أو على أمها نظرة ، ومرقت من الحجرة ودخلت مخدعها وأوصدته على نفسها . فانخلع قلب محمود ، وغشت الظلمة بصره ونظر الى الارض . أما الست روحية فقد عدلت عن الذهاب الى بيت مصطفى ، والقت بمعطفها على الكنبة ، ثم هزت رأسها فى نفور وامتعاض ، ثم غادرت الحجرة وهى تدمدم ، وتجرجر خلفها ذيل طرحتها المستطيلة السوداء .. ولما اغلقت الباب على زوجها واخيه واستوثقت من بقاء ابنتها فى مخدعها ، لم تتحرك ، وظلت واقفة حيث هى ، ومضت ترهف السمع ، وقلبها يخفق ، وأنفاسها تتعاقب ، وعزمها الباتر يقر فى نفسها التجلد والهدوء كى يحفزها ساعة العمل ويطلقها ..

وقال مختار وهو يحدق الى شقيقه تحديقا فاحصا ، ويشتف من سيجارته فى بطء ويرسل ذوائب دخانها فى الفضاء :

لقد فكرت .. فكرت طويلا فيما قلته انت لى اول من امس .. ولقد عدلت .. عدلت عن الزواج بسعاد ! ..

فأبرقت أسارير محمود ، ولم يصدق سمعه ، وهتف كطفل وهو يرتمى على اخيه كأنه يريد أن يعانقه :

ـــ عدلت ؟.. صحيح ؟. الم اقل لك ؟.. كيف ، كيف كان يمكنك أن تعيش مع فتاة مثل سعاد ؟ .. انها ولا شك وديعة وطيبة ومستقيمة . أنا لا أنكر . ولكنى لم اعتقد ابدا كما كنت تعتقد أنت انها ذكية لانها جميلة .. بالعكس . انها ضيقة الذهن ، تافهة الفكر ، غبية ورخوة وبليدة . بل ان غباءها ليشوه جمالهـــا ويحيله فى معظم الاحيـــان الى حسن بارد هامد ثقيل يثير فى النفس الجهامة والضجر .. امثلك يمكن أن يعيش معها ؟.. مع فتاة لم تتلق غير قشور من التعليم الاولى ، جاهلة وخاملة وقعيدة بيت ؟ .. صحيح انك اليوم محام ناشيء ، ولكنك لابد أن تشتهر غدا ، وتتصل بالناس ، وتدخل المجتمعات الكبيرة . فأنت فى حاجـــة الىامرأة مثقفة مثلك ، امرأة مستنيرة وممتازة ، تستطيع أن تفهمك وتعاونك بحيث تصبح بالفعل شريكة لحياتك ، فلا تخجل أنت منها بل ترفع رأسك بهـــا كلما ظهرت فى المجتمع بصحبتها .. ان سعاد قد تصلح لغيرك . أما لك أنت فحرام . حرام ثم حرام . وأنا أحمد الله ، أحمد الله من صميم قلبى على انك تعقلت وعدلت ..

والتقط أنفاسه وهو جذلان وأردف :

ـــ ألك فى قدح من الشاى ؟ ..

فعاجله مختار بنظرة كاسرة ، وقال والحقد يدوى فى صوته :

ـــ فى هذه الغرفة مرآة . وغاية ما أطلب هو ان تتحول أنت قليلا وتنظر الى هذه المرآة ..

فتأمله محمود مستغربا وقال :

ـــ ماذا تعنى ؟ ..

فصاح مختار .

ـــ أنظر .. أنظر الى وجهك وعينيك وشفتيك .. لم أر السعادة مرتسمة على وجه انسان كمـــا أراها الآن مرتسمة على وجهك .. انك لتبدو فى فرحتك الزاخرة كمـــا لو كنت قد أوتيت فى لحظة ملك الدنيا ، ولكنك لن تنعم بهذه الفرحةطويلا يا محمود لن ادعك تنعم بها علىحساب مخلوق طاهر بريء ومسكين ..

واستجمع قواه واردف :

ـــ لقد ضللتك لأفهمك تماما .

كنت مرتابا ولكنى الآن تأكدت . اما ما عزمت عليه فلن اتحول عنه ابدا . انا احب سعاد وما جئت اليوم الا لاطلب يدها . اتسمع ؟.. لا منك انت بل من امها ؟ ..

فاكفهر وجه محمود ، ونهض ثابتا راسخا وقال :

— اذن فقد كنت تنافق وتخدعنى . ولكن أعلم ان الفتاة يتيمة الاب وانى انا اليوم والدها . لن أعطيك اياها . لن أزوجها بشاب ما يزال غامض المستقبل والمصير .

فأوشك مختار أن يضحك وتمتم :

— واذا كانت هى راضية ، اذا كانت هى تحبنى ؟ ..

فارتعش محمود وقال :

— انها لأطهر وأشرف من ان تحب فى الخفاء رجلا وتكتم هذا الحب عنى . اياك أن تكذب أيضا وتلوثها . كل ما يدور بخلدها وتهجس به نفسها أعلم به أنا قبل اى انسان . فأنا لن أزوجها الا اذا آمنت وأيقنت انى حقا. سأسعدها.أما اذا عصت الأم مشيئتى وزوجت ابنتها وفق هواها،

فانا ... أنا .. اتسمع ؟ .. اتفهم ؟ .. سأنفض يدى من كل شيء ... سأنفض يدى من البنت والأم على السواء ...

فجحظت عينا مختار استنكارا وسخطا وقال :

— تهددنى بطلاق امرأتك لتحرجنى .. لتقهرنى ؟ .. الى هذا الحد بلغ بك هوس الغيرة وجنون الحب ؟ ..

فانتفض محمود وهتف :

— ماذا تقول ؟ ..

فصرخ مختار فى وجهه :

— انت تحبها . نعم . تحب سعاد . ولكنك لا تحبها كوالد .. ابدا .. بل تحبها كرجل . رجل حسي شهوانى لا قلب له ولا ضمير . لماذا كنت وما تزال تبذل المستحيل كى تصرف الخطاب عنها . لماذا كنت وما تزال تستخدم كل ذكائك وخبثك لتضع العراقيل فى سبيل زواجها . لماذا كنت وما تزال تهمل امرأتك التاعسة المنكودة وتهتم بسعاد وحدها . بل لماذا انت اليوم تكرهنى انا ، انا شقيقك ، وتأبى الا ان تمنع زواجى

يها ؟ .. أنت تحبها . انت تشتهيها . انت اعمى عن كل شيء ما خلاها هي . الا ترى نفسك . الا ترى كيف تنظر اليها ، وتحوم حولها ، وتكاد من فرط رغبتك المنكرة فيها ان تلتهمهـــا بجميع بدنك الظامىء المتحرق المنهوم ؟.. لقد وثب الى عينيك فرح جنونى عندما ضللتك انا وقلت لك انى قد تخليت عنها . فماذا تريد ؟.. نعم . انت تريد أن تجدد شبابك على حساب فتاة يتيمة القى بها القدر بين يديك . تريد أن تخنـــق روحها ، وتحطم مستقبلها ، وتحتجزها فى بيتك ما استطعت ، ليمكنك أن تستدرجها فى غد وتغويها ، وتتخذ منهـــا خليلة لك ! .. هو ذاك . بنت زوجتك تصبح يوما خليلتك . هذا ماتريد . فأى رجل انت . الا تشـــعر بوخز ضميرك ؟ الا تخجل من نفســـك ؟ من شعرك الابيض الـــذى تخضبه بالاصباغ ، ومن عينيك اللتين لولا نظارتك لم تعرف بهما طريقك ، ومن غضونك المجتاحة ، وأسنانك النخرة ، وقلبك المريض ، وصدرك المقوس المتداعى الشبيه بصدر مسلول ؟ .. لن أدع سعاد فريســـة لك . سأتزوجها . وأنقذها منك !

فذهل محمود وانسحق . لم ينقض على أخيه . لم يضربه ولم يطرده . بل ظل واقفا فى مكانه أصفر اللون ، زائغ العينين ، متصلب الاعضاء ، كأنما قد غاض منه دمه . ثم نظر الى أخيه فى دهش ، ثم نظر الى نفسه فى شرود ، ثم أجال الطرف حوله مبهوتا وظل يرتعش . وفجأة تشنجت عضلاته ، واتسعت حدقتاه ، وشع من عينيه بريق وحشي ، وردد :

ــ أبدا .. أبدا ..

وتهاوى على فراشه ، وطفق يتلوى وهو يتحسس بالرغم منه وجهه وقلبه وصدره ، ثم ضاق ذرعا بنفسه ، فصرخ فى أخيه :

ــ أخرج ..

وارتمى عليه واوشك أن يدفعه صوب الباب . ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة ونفذت منه الست روحية .

دخلت المرأة مطرقة الرأس ، محنية الظهر ، وطرحتها السوداء تكاد تحجب وجهها ، وغمغمت فى هدوء :

ــ لقد سمعت كل شيء .. من اجل ابنتى أردت أن أبقى هنا واسمع كل شيء .. أنا أمها وصاحبة الحق الاول عليها . لن أزوجها بك أبدا يا مختار . ان ابنتى لمصطفى . سأزوجها مصطفى . يجب أن تتزوجه ، ويجب أن ترحل ! .

فأومضت لمعة الظفر فى عين محمود ، ولم يستطع اخفاء فرحته . لم يحفل بامراته ولا بما سمعته عنه ، وفكر فى شيء واحد فقط ، فكر فى سعاد . كان يريد ان يحرز نصرا آخر فوق النصر الـــذى احرزه على شقيقه . وكان يعلم علم اليقين أن الفتاة تكره مصطفى وانها ضعيفة . فاعتزم أن يقف الآن فى صف امراته كى يجهز على اخيه ، ثم يظهر فيما بعد بمظهر الذائد عن مستقبل سعاد . فيشجعها على اعتراض مشيئة أمها ورفض الزواج بمصطفى .

وهكذا يتخلص أيضا من غريمه الثانى ويستريح . فأسرع متخابثا متهافتا وقال :

ــ هو ذاك .. فلتتزوج مصـــطفى .. لا مانع عندى البتة .. سنتحدث الليلة فى هذا الامر الى سعاد ثم نتصل غدا بمصطفى وينتهى كل شيء ! ..

فأدرك مختار على الفور مراده وصاح :

ــ أنت هو المنافق الاصـــيل لا أنا . ولكنى لن أدعك تصـــيب عصفورين بحجر . لن أدعك تؤثر على سعاد فى غيبتى كى تحول بينها وبين الزواج منى أو من سواى . لا بد أن أراها الآن واســـمع الكلمة الفاصلة منها هى ، لامنك انت ولا من أمها !

ودنا من الباب وصرخ :

ــ سعاد .. سعاد ..

فقالت الست روحية :

ــ الكلمة كلمتى انا . ولا بنت لى تفصل فى مستقبلها بنفسها .

وعندئذ لاحت سعاد . لاحت فى ثوب أبيض محتشم بسيط ، واقبلت مهرولة ومذعورة ، ووقفت بعتبة الباب ، وغضت من بصرها ولم تجسر على الدخول . فجذبتها أمها من ذراعها ، وهمت بأن تتكلم . ولكن مختار لم يمهلها وقال :

ــ امك تريد ان تجبرك على الزواج بمصطفى . فهل انت راضـــية ياسعاد ؟ اجيبى ..

فهتف محمود :

ــ لا .. نحن لا نجبرها على شيء .. انها حرة .. حرة ..

فضحك مختار ضحكة مريرة وقال :

ــ أمك تفرض عليك الزواج بمصطفى ، وعمك لا يريد أن يزوجك بأحد على الاطلاق .

فصاحت الست روحية :

ــ بل لقد وافق على ما أردت انا . ان مصطفى هو أفضل شاب تقدم لابنتى ، وهو أرسخ منك فى الحياة قدما ، وأثبت مكانة ، وأقــدر كسبا . فأنا أعلم من سعاد بمصلحتها ومن واجبها أن تطيعنى والا لعنتها الى الابد وتبرأت منها . أما أنت فواجبك هو ألا تحرض بنتا على أمها . واجبك هو ان تحترم نفسك وتصون كرامتك وتذهب .

فحنى مختار رأسه وقال :

ــ وانى لذاهب كيلا أعود .

واندفع ليخرج . فصرخت سعاد :

ــ مختار ..

فتوقف الشاب ونظر اليها . فرفعت اليه الفتاة عينين عــاجزتين زائغتين تائهتين ، وارتج بدنها كله ، وانفجرت من عينيها الدموع . بكت فى لوعة وحرقة . بكت فى حنق وضيق . بكت فى حسرة مكبوتة ، وذل محتجز ، وأسي غــــامر عميق . وكانت فى ثوبها الأبيض ، وذراعيها المبسوطتين ، وشعرها الأسود المشوش الغزير ، أشبه بطائر حائر متخبط ، فاجأته العاصفة فى ظلام ليل دامس ، فأوهنت قواه ، وأدمت جناحيه ، وأيأسته من بلوغ الوكر المنقذ الأمين .

وظلت سعاد تبكى ، ومختار شاخص اليها ، وأمها ترقبها وتستمهلها فترة مستجمعة قواها كى تضغط عليها ، ومحمود يتأمل جمالها الســاحر وهو مبهوت ..

وفجأة ، دنا منها مختار ، وغمغم متوسلا :

ــ تكلمى يا سعاد ..

فقالت الأم صارمة وقاطعة :

ــ لن تتكلم ابنتى الا بما أردته انا وأمرت به .

ولكن سعاد لم تلتفت اليها ، ولم تتجه نحوها ، ولم تجب ايضا على توسلات مختار ، بل نظرت الى عمها فقط ، الى محمود ، الى محمود الذاهل الشارد . وفى حركة اقوى منها ، فى حركة عصبية طارئة وعاتية ، اسرعت وارتمت عليه ، والقت برأسها على كتفه ، وصاحت وهى تضمه الى صدرها وتجهش بالبكاء :

— بابا .. بابا .. ليس لى سواك .. انت وحدك الذى تحبنى . انت وحدك الذى تعطف على . انت وحدك الذى تريد ولا ريب ان تسعدنى .. أنا أتعذب يا بابا .. فلا تكن أنت قاسيا على أيضا كأمى . لاتحرمنى من مختار .. والا فقد أموت يا بابا .. سأموت .. لا بد أن أموت ..

وكانت تتكلم وهى تحضنه ، وصرخاتها المتعاقبة تنهب سمعه ، وشعرها الأسود الغزير يتهدل على صدره جزلا سخيا كروحها ، مشعثا ومهشما كصوتها المستصرخ المستنجد الأليم . وكان هو يرتعد . بل كان يرتعد ويتمزق . كان يشعر بوقدة البدن الناضر تضطرم بين ذراعيه فيغلى الدم فى عروقه،وكان يسمع نبرة الصوت المتحشرج تهدر فى أذنيه فتتقطع نياط قلبه . كان موزع النفس بين اغراء البطش واستنكاره ، بين متعة الأنانية وخستها ، بين فرح التعذيب وفظاعته . كان الحيوان الرابض فى جسده يدفعه الى التنكيل بسعاد وحرمانها ممن تحب ، وكان الأب الراقد فى أطواء قلبه يدفعه الى الترفق بها والشفقة عليها . ولم يكن يعرف الى اى الصوتين يتجه ، والى من منهما يهرع ويستجيب . وبغتة ، وفى غفلة منه ، ضمته سعاد الى صدرها ضما مبتهلا عنيفا ، حاثة اياه على النطق ولو بكلمة يمكن أن تشجعها وتنقذها . فأحس هو نارا حارقة، نارا مذيبة ، تندلع من بدنها الغض وتطغى عليه . فاستهول ملمس الفتاة وحاول .. حاول أن يتراجع ولكنه لم يستطع . طاب له أن يحترق بهذه النار . لم يستطع أن يتخلى عن الفتاة . لم يستطع ان يدفعها عنه . لم يستطع أن يرخى ذراعه الصلبة المتشبثة التى كانت تضمها وتعانقها واذ ذاك ، اذ ذاك فقط ، تفرس فى سعاد جزعا وملتاعا ، وادرك فى لحظة كل شيء . تنبه وعيه ، وتفتق ذهنه ، وذكر كل كلمة من الكلمات الفاضحة الدامغة التى قالها له مختار ، والتى تجمعت الآن وتركزت ، وانصبت على عقله وخياله كسيل دافق من نور . ايقن انه يشتهى الفتاة . ايقن انه فى اعماق نفسه مستمتع ومجرم . ايقن ان سعاد لو ظلت فى بيته ولم تتزوج، فلا بد ان ينتهكها ، ولا بد أن يلوثها ، ولا بد ان يقتلها فى النهاية كعذراء وامراة ، ويقتل أمها ايضا وتصورها محلولة الشعر ، مهتوكة الستر ،

مخبولة ومنسحقة ، تبكى عرضها الضائع وشرفها المسلوب . فاقشعر بدنه واحس ان ليس فى مقدرره بل من المحال عليه ، وهو يعشقها مع ذلك بقلبه ، ويحبها بروحه ، ويشفق عليها بحنان ابوته المحرومة ، أن يطعنها تلك الطعنة القاضية ، أو يسومها ولو ايسر جزء من عذاب . فعض على شفتيه متصلبا متحفزا ، واستنهض كل ما فيه من قوة وعزم ، وأراد ان يسرع قبل أن يضعف ، أن يقطع قبل أن يسقط . فأمسك بالفتاة فى غلظة ، ونحاها عنه فى عنف ، ثم دفع بها الى أخيه ، وقال وكأنه ينتزع شغاف قلبه بيده :

ــ خذها .. خذها يا مختار .. ولكن احرص عليها ! .

فذعرت الأم وصرخت :

ــ أبدا .. هذا لن يكون أبدا ! ..

فانقض عليها محمود كالوحش وقال :

ــ أسكتى ..

ثم توهجت عيناه ، وارتعشت شفتاه ، وأهاب بشقيقه وهو يضحك كمعتوه :

ــ ماذا تنتظر ؟ .. لماذا أنت هنا ؟ . أليس اليوم يوم جمعة ؟ .. اخرجمعها .. اذهب بها الى السينما .. متعها بالدنيا .. انها خطيبتك . اذهب بها ومبروك عليك ! ..

فانهارت الأم على مقعد وأطرقت . أما مختار فلم يستطع أن يتكلم ، ونظر فقط الى أخيه . نظر اليه نظرة فيها دهش واكبار ، وفيها شكر وحب ، وفيها مع ذلك خوف وقلق وحذر . ثم طوق سعاد بذراعه . فالتصقت به الفتاة . واستغرقتها فرحتها ، فخرجت فى صحبته مبهورة ومأخوذة دون أن تشعر بمن حولها ، أو تذكر عمها محمود ، أو تفكر فى ان تشكره ولو بقبلة أو بكلمة ..

*

ولم يغضب محمود بل ابتسم وأتبعها النظر قرير النفس مطمئن البال . ولكنها ما ان اختفت وغاب ضوؤها عن عينيه ، حتى هاجمه ذلك الاحساس الخانق الغاشم الذى كان يستشعره ويتوقعه ويرتعد فرقا

من مجرد تصوره . أحس كأن البيت قد اقفر من حركته ، واقفر من روحه ، واقفر من أهله ، وكأن شمعته قد انطفأت ، وبهجته قد اختنقت ، والصمت والوحشة والفراغ استقرت فى جنباته ، واحالته الى عالم مروع منبوذ ، حالك الظلمة ، مرهوب الصقيع ، لا تشرق عليه الشمس ابدا .. وتلفت حوله كالضائع فأبصر امرأته ، امرأته بثوبها الأسود ، وطرحتها السوداء ، وعينيها الصارمتين ، وغضونها التى تشبه غضونه ، والهمود المنبعث منها والمفروض عليه أن يألفه ايضا ، ويقنع به ايضا ، ويعيش فى جوه القاتم المثير ما بقى له من عمر فى هذه الدنيا ..

وانقبض صدره . فأسرع الى النافذة وفتحها ، واستنشق الهواء ملء رئتيه وتطوح . فزحفت اليه الست روحية ، وأمسكت بذراعه وطفقت تهزه فى كمد ولوعة وتقول :

— لماذا خذلتنى ؟ .. لماذا ارتضيت أن تتزوج سعاد بمختار ؟ .. ألم تفكر لحظة فى عواقب ما فعلت ؟ .. أنت قد لا تطيق الحياة فى غد هنا .. قد لا تطيق الحياة فى بيتك عندما تبرحه ابنتى . فتسرع الى بيت مختار كى تراها . فيوجس منك أخوك وان كنت أنت الذى أسعدته . فيرتد اليه كرهه لك ويحاول أن يبعدك . فتثور أنت عليه وينشب الصراع بينكما مرة ثانية .. كان أجدى عليك أن تتزوج سعاد بمصطفى فتقصيها عنك وتستريح .. أما الآن .. الآن .. فأنا خائفة .. خائفة عليك وخائفة منك . أنت منذ الآن تكره كل ما حولك . أنت منذ الآن تكره بيتك . بل أنت منذ الآن تكرهنى انا يا محمود ! ..

وانهمرت عبراتها فى صمت . فتأثر الرجل ودنا منها ، ثم رفع بيده رأسها الكليل وقال :

— أنت على حق ... أنت على حق ... كنت اعـــرف ذلك تماما ...

ثم انحنى على المراة الواجفة ، وتأمل عينيها المتقرحتين ، واردف من أعماق قلبه وهو يختلج :

— على انى اقسم ، اقسم لك يا روحية ، اقسم بالله العظيم ثلاثا ، انى انا ، انا نفسي لن أفكر لحظة فى الاتصال بسعاد بعد زواجها ، ولن أحاول ان اراها ، ولن ادخل بيتها ابدا ! ..

وردد لنفسه وهو يتجه ثانية نحو النافذة ويتطلع الى الأفق البعيد :

— لن أراها أبدا .. ابدا ..

فغمر الفرح وجه الست روحية ، وجاشت آلامها المكبوتة ، واستحالت فجأة الى فيض غامر من الحب والاخلاص والولاء . فجذبت اليها محمود فى رفق وارادت أن تعانقه وتقبله . ولكنه ما ان تحولت وواجهها وحدقت هى فيه ، حتى تراجعت مذعورة وارتعدت فرائصها . رأت أمامها انسانا تبدل فى لحظات . انسانا لم تعرفه قط . رجلا ضاويا ومعتصرا ومهدودا ، خامد العينين ، أصفر الوجنتين ، محنى الظهر ، متساقط الأعضاء . فتشبثت به وصرخت :

— ما بك ؟! ..

فضحك محمود ضحكة مكمدة وقال :

— لا شيء . أنا متعب يا روحية . أريد أن أنام ... ولو ساعة ... ساعة فقط ...

فأسندته بذراعها ، وقادته الى فراشه ، ودثرته بأغطيته ، وأبت الا أن تقبع فى زاوية الكنبة كى تظل بجواره حتى ينام . ولكن الفضاء الساكن جلجل فى تلك اللحظة وتألق ، وانبعث من الخارج صوت المؤذن منبها ومدويا يدعو الى صلاة الجمعة . فأجفلت الست روحية ، وأسرعت وجاءت بسجادتها الصغيرة ، وبسطتها على الأرض فى لهفة ، وتهيأت للصلاة ، فنظر اليها محمود وتفطر قلبه . ثم نظر اليها أيضا ، وتحول وانكمش فى فراشه ، وغمغم :

— لن يتخلى عنها الله !

وأغمض عينيه وحاول أن ينام ...

وعندما أقبل موعد الغداء ، وأسرعت الست روحية لتوقظه ، لم يشعر الرجل ولم يسمع . فارتمت عليه وطفقت تهزه ، ثم أطلقت صرخة جشاء اذ أبصرته أمامها جثة لا حراك بها .

القسم الثاني
من التاريخ



حطام...

« ان تاريخ روسيا فى عهد القياصرة حافل بمظالم الاقطاعيين . وهذه الحادثة الواقعية تمثل الشقاء البالغ الذى كان يعانيه الفلاحون الروس من اسيادهم أصحاب الأرض . وقد اشار الى الحادثة المؤرخ الفرنسي جورج مجلوار فى كتابه عن تاريخ الشعب الروسي » .

*

انسل الشريف لاديسلاس تحت جنح الظلام ، وطفق يمشي فى أرضه الواسعة ، مخترقا بيوت الفلاحين المحدودبة المتهدمة الغائر بعضها فى بطن الارض أشــــبه بكهوف الحيوانات . ثم اتجه شرقا ، وعرج على بساتينه الكبيرة ، وارتمى بين أشجارها الباســـقة ، وشرع يتلفت يمنة ويسرة ، مرهفا سمعه وبصره ، متربصا متحفزا ، وأوصــــاله ترتعد . والغضب العارم يأخذ بمخنقه ، ويشيع فى عينيه السوداوين الضيقتين بريقا حادا مروعا .

واختلج فجأة وتنفس كالوحش استروح فريسته ، ثم اندفع الى خميلة صغيرة قائمة فى وسط أحد البساتين ، واقتحمها ، ووقف ثابتا لاهثا ، ينظر فى الظلام الحالك الى ابنه الوحيد **فيدور** وهو يعانق الفلاحة النذرة **ناتاشا** ويطارحها الهوى .

ومزق القمر فى تلك اللحظة غلائل السحب السوداء ، فانصــبت أشعته على الخميلة ، فلاح وجه فيدور أبيض ناصعا مستديرا ، وبرز محيا ناتاشا أسمر فاتنا مشربا بالحمرة ، ناضر القسمات ، دقيق التقاطيع ، فى براءة صافية ساحرة تأخذ بمجامع الألباب .

واجفل فيدور اذ أبصر والده وصرخ :

أنت ؟

فانخلع قلب الفتاة ، وشحب وجهها شحوب الموتى . فتقدم الشريف لاديسلاس بضع خطوات ، وانتزع سوطه الجلدى من جيب معطفه ، ثم تراجع مستجمعا قواه ، وانهال بالسوط على بدن الفتاة وهو يهدر .

وأرسلت **ناتاشا** صيحة مدوية وسقطت على الارض . فلم يرحمها

الشريف لاديسلاس ، بل اشتدت ثورته عليها ، وانطلق يسوطها فى شبه نشوة محمومة مخبولة وهو يردد :

ـ هكذا .. هكذا يكون عقاب العبد متى تطلع الى السـيد ! .. هكذا ..

وظل يضربها فى وحشية فاتكة عمياء . فجن جنون الشـاب ، واعترض والده ، وهم بأن يختطف السوط من يده . فدفعه لاديسلاس فى عنف ثم انقض عليه هو ايضا ، والهب وجهه بالسوط ، فانفجر الدم من جبهة الشاب ، وتطوح ، وأمسك بالفتاة ، ولبث يتلقى الضربات عنها وهو ذاهل .

ولما كلت يد الوالد الجبار ، انحنى على ولده ، وأنهضـه عنوة ، وصاح وهو يرعد : أكنت تعتقد أن عينى غافلة عنك ؟ لقد راقبتك منذ أيام وفطنت الى كل شيء .. أنت ، أنت النبيل الأصيل العريق ، تنحدر الى عشق مثل هذه الفتاة ، فتمتهن نفسك ، وتحقر أسرتك ، وتلوثنى أنا ، وتجلب على شر ضروب العار ؟ .. ولكن هذه الفتاة ليست امراة .. ! لقد اشتريناها بمالنا .. انها ليست بانسان .. انها من الماشية والسوائم وكل ما هو عبد خاضع لنا ! انها مطية .. مطية فقط .. ولو انك اتخذت منها عشيقة عابرة لما أصابنى أنا مثل هـذا الخبال . ولكنك تريد أن تتزوجها ! .. أليس كذلك ؟ ألم تقل لكاتب الدائرة بالأمس انك تريد أن تتزوجها ؟ .. تكلم .. هل امتلكتها ؟ .. أهى حامل منك ؟ ..

فارتعش فيدور وأجاب فى هدوء وهو يمسح بكم ردائه نقط الدم المترقرق من جبهته : ان ناتاشا عذراء طاهرة . وأنا أحبها ، ولن أقترن بسواها ما حييت .

فغشت الظلمة عينى لاديسلاس ، وخشي أن يجمح به الغضـب فيفتك بولده ، فارتمى عليه ، وصاح به وهو يدفعه الى خارج الخميلة دفعا : أغرب عن وجهى والا قتلتك .. اذهب .. عد الى مخدعك .. أقول لك اذهب ! ..

ولكنه لحق به وهتف : بل تعال .. يجب أن تسـمع بأذنك وترى بعينيك !

وانثنى الى ناتاشا ، وجذبها من ذراعها وهى تئن وتتلوى ، وانطلق بها فى الحقول الصامتة الهامدة ، وطفق يصيح : يوسويوف .. سرجى .. ميكائيل ..

فانفتحت أبواب الأكواخ والكهوف ، واطل منها الفلاحون مذعورين ، واوقد البعض منهم مصابيحهم وخرجوا ، واندفع البعض الآخر نحو منطلق الصوت متفاطرين مستفسرين .

وعرف الكل سيدهم صاحب الأرض لاديسلاس وابصروا ولده جريحا وناتاشا محلولة الشعر ، زائغة العينين ، وعلى وجهها وبدنها آثار ضربات السوط . فدب الرعب فى قلوبهم ، وتراجعوا ، ثم ركعوا على الأرض أمام سيدهم . خاشعين مرتجفين ، متوقعين أمرا لم يكن فى الحسبان .

وتوسطهم لاديسلاس وهو يزفر وصاح : ايفان ! .. أين ايفان ؟.. أريد أن أراه .. اذهبوا وايقظوه حالا ! ..

فبرز من بين الجمع الواجم حطاب قذر ، مهلهل الثياب، ضخم الجثة، ملبد الشعر ، ممتقع الوجه ، وتقدم وهو يرتعد ، ثم حنى رأسه ، وجثا أمام السيد ، وغمغم فى صوت مرتعش خفيض : هأنذا أيها المولى ..

فانهضه لاديسلاس ثم حدق اليه وقال : بلغنى انك تحب ناتاشا . فاكشف أمام الجميع عن حقيقة عواطفك ولا تخف .. أنا سيدك أمرك بالكلام .

فأجال الشاب حوله بصرا ملؤه الدهشة والفزع ، وقال : انى أعبدها .. ولكنها تكرهنى .. تكرهنى .. وأنا من هذه الكراهية يامولاى أوشك أن أجن ! .

فقبض لاديسلاس على ذراعه ، ثم دفع بناتاشا وأدناها منه ، ثم صاح بصوت هادر جهير : اذن فستصبح ناتاشا منذ الغد زوجتك ! .. سيعقد لك عليها فى كنيسة القرية مساء الغد ! . هذا أمرى . فعودوا الى مضاجعكم وناموا . وليتهيأ كل منكم لاعمال الحصاد منذ مطلع الفجر ! ..

وتفرق الفلاحون ، وارتدوا فى مثل لمح الطرف الى أكواخهم . وتبعتهم ناتاشا مصحوبة بوالدها الشيخ الذى أدرك ببصيرته الحقيقة كلها . فطفق يذكر ابنته بمكانتها الوضيعة ، ويستهول منها أن تتطلع الى ابن سيدها ، ويتحسس آثار السوطعلى وجهها وذراعيها ، ويجهش بالبكاء ويقول : ليتك ياناتاشا كنت قد دخلت الدير أنت أيضا كأختك أولجا. اذن لجنبت نفسك بطش السيد . وجنبتنى أنا الخوف عليك فى غد من شر داهم مستطير ..

ولما اختفى الفلاحون ، وعاد الحقل ساكنا هامدا تموج فيه سنابل القمح تحت ضوء القمر وهبات النسيم ، تلفت لاديسلاس فابصر ولده فيدور تائها شاردا ، يجر قدميه جرا ، ويكاد من فرط الذهول ان يسقط مغشيا عليه . فدنا منه ، وامسك به ، وقال وهو يهزه هزا عنيفا كانما هو يقتلعه من حلمه ويوقظه : اما انت .. انت .. فسترحل ! .. افاهم انت ؟ .. سترحل حالا .. ستغادر بطرسبرج الى باريس .. وستمكث هناك بضع سنوات حتى تتم علومك .. اذهب ..

وتحامل الشاب على نفسه ومضي ، وتوقف لاديسلاس وظل يتبعه
وتحامل الشاب على نفسه ومضي ، وتوقف لاديسلاس وظل يتبعه
النظر مثلج الصدر مرتاحا ، وضوء القمر ينصب عليه ، ويبرز على حوافي شفتيه الملتويتين ابتسامة فاترة قريرة ، ملؤها الترفع والاطمئنان والثقة والتشفى ! ..

*

وسافر فيدور مكرها الى باريس ، واقترنت ناتاشا صاغرة بالحطاب ايفان .

ولم يستطع ايفان نظرا لبؤسه ان يقيم للفلاحين فى ليلة عرسه اية مادبة ، فاقاموها هم على نفقتهم ، واكلوا عصيرا وشربوا خمرا ، وطفقوا يرقصون ويغنون ، وينثرون على العريس والعروس حبات القمح ، وحفنات الزهر ، وبدرات العشب الأخضر ، وهم يرتلون التراتيل الدينية ويهتفون ويهللون .

واحس ايفان من فرط شوقه الى امراته ان نارا آكلة تسرى فى بدنه وتنهشه . فلم يكد يبصر الفلاحين ينصرفون ، ويستشعر فى ظلمة كوخه العارى هداة الظفر والمتعة والنعيم ، حتى هم بناتاشا ، واحتواها بين ذراعيه . وضم راسها الى صدره ، وحاول أن يقبلها ... بيد ان الفتاة تملصت منه ، ثم صدته عنها فى عنف ، ثم اجالت البصر حولها كمعتوهة ، واسرعت فاختطفت من احدى زوايا الكوخ فاسا ، لوحت بها فى الفضاء ، منذرة ايفان ان هو اجترا ومسها ، أن تشج راسها بالفاس ، او تطعن صدرها بسكين ، أو تعزف عن الطعام والشراب حتى تموت .. فبهت الشاب وتقهقر . فانهارت ناتاشا عند قدميه ، وعفرت راسها بالتراب ، وصاحت ودمع الكمد والحسرة يتواثب من عينيها المتضرعتين ،

ارحمنى يا ايفان فأنا احب فيدور ! .. انا ملكه وحده ومن المحال ان أحنث باليمين التى اقسمتها له ! .. فكن شهما يا ايفان وعف عنى .. لا تحقد على ! .. لا تدفعنى الى قتلك او قتل نفسي ! .. انا اقدر حبك لى ولا اريد بك سوءا يا ايفان . بل انا اخاف عليك ... اتسمع ؟ ... أخاف ان انت امتلكتنى طوعا او كرها ثم عاد فيدور يوما الى هنا وعرف انى قد أبحت جسدى لرجل ســواه ، ان يثأر منك يا ايفان ويقتلك ولو انك زوجى ! .. فاشفق على نفسك واشفق على ! ... كن لى أخا راعيا وحاميا ونصيرا ، أكن عبدتك وامتك ، الى ان يفصل الله فى مصيرى ، ويقدر لى أمرا كان مفعولا ! ..

وطفقت تقبل قدميه وتبكى . فتمزق قلب الفتى ، وأحس انها على حق . أدرك أن كليهما لا شخصية له ولا حرية . أدرك أن كليهما ليس بانســـــان . أدرك أن ناتاشــــــا قد أكرهت على الزواج به اكراها ، وانه هو نفسه مكره أيضا على التعفف عنها والا غامر بحياته واستهدف لموت محتوم . أدرك أن الزواج قد تم بارادة السيد الكبير ، وأن الزواج ـ حتى ولو رضيت ناتاشا ـ لاينبغى مع ذلك أن يتم خوفا من بطش السيد الصغير ..

وحنى الشاب رأسه وبكى .. امتثل وأطاع وخضع .. لم يقرب امرأته . لم يظفر منها بقبلة واحدة . ولكن حبه اليائس المعذب المكبوت اتقد يوما بعد يوم واستعر . لم ينحدر الى الشهوة بل تسامى الى الود الخالص والحنان الغامر والتضحية الكاملة ... كان حبا يمنح كل شيء ولا يطلب أى شيء . كان حبا صامتا صابرا متجلدا عجيبا . كان حبا تواجهه التجربة فى كل خطوة ، وتعصف به الحواس فى كل لحظة ، وتثيره أشباح الظلام فى كل ليلة ، فلا يزداد الا طهارة ونقاء ، واخلاصا وبذلا وتضحية وانكار ذات ...

وتأثرت ناتاشا بهذا الحب . فأمعنت فى خدمة ايفان ، وأمعنت فى احترامه وتقديسه ، وراحت هى أيضا تبذل المستحيل من أجله لتعوضـــه بعض مايغدق عليها من آلاء ، وتهب قلبه البائس المسكين نعمة العـــزاء والسلوى .

وفجأة وقع الحادث غير المنتظر الذى كشف النقاب عن التحـــول الشائن المنكر الذى يحدثه الزمن فى نفوس بعض الناس .

انقضت ثلاثة أعوام ثم توفى السيد الكبير لاديسلاس بغتة . فأسرع

السيد الصغير فيدور ، وغادر باريس ، وكر راجعا الى روسيا ليتسلم تركة والده ..

ولم يكد الشاب يستقر فى القصر المنيف ويصبح هو السيد الآمر المطلق ، حتى بدأ يستفسر عن ناتاشا ، ويعرب عن دهشته واستنكاره وحنقه كلما قيل له انها على وفاق مع زوجها الحطاب ..

أما ناتاشا فقد طارت نفسها شعاعا عند ما علمت بمقدم فيدور . أطلقها الفرح من اسارها . حطمت النشوة قضبان سجنها . أيقنت أن الامل الرائع المنشود قد تحقق ، وان الله فى رحمته الواسعة أبى الا أن ينقذها ، ويجمع آخر الامر بينها وبين حبيبها .

وكان ايفان يتأملها وهو شارد ... كان يتأملها وهو يشعر انه سيفقدها . فيثور ويختبل ، ويبكى بكاء يفتت الاكباد ولكن ناتاشا كانت لا تراه ولا تسمعه ولا تكترث له ، لفرط ما كانت مأخوذة بحلمها ، مفتونة بانتصارها ، مشرئبة الفكر والقلب الى اليوم العظيم الذى يطرق فيه فيدور باب الكوخ ، ويدعوها اليه ، ويحل وثاقها وينقذها ...

وانتهت مراسيم الحداد على السيد الكبير ، وحزم فيدور أمره ذات يوم ، واستقل مركبته الفخمة ، واتجه بها نحو الكوخ ...

وكانت ناتاشا ترعى الماشية فى الحقل ، وايفان فى الكوخ بمفرده . فدخل فيدور يرفل فى ثوب أسود أنيق ، منقبض الوجه ، شامخ الرأس ، مقطب الحاجبين . فما أن أبصره ايفان حتى ارتعش ، وخر أمامه ساجدا ، ولثم يده فى احترام وهتف : أهلا بك يا مولاى فى أرضك .. تفضل على الرحب والسعة ...

وهم بأن يجيئه بمقعد . ولكن فيدور لم يمهله ، وقال : أين ناتاشا ؟ ...

فأجاب ايفان : فى الحقل يا مولاى .. ستعود بعد لحظات .. تفضل واجلس ..

فتفرس السيد فى عبده لحظة ثم دنا فجأة منه ، ثم تراجع خطوة وقال وهو ما ينفك يحدق فيه : أصدقنى القول يا ايفان ، واياك أن تكذب .. ما الذى تم بينك وبين ناتاشا خلال السنوات الثلاث التى قضيتها انا فى الخارج ؟ .. لقد كنت تعلم انى احبها ، فهل اجترأت وقضيت مأربا منها ؟ ... تكلم ...

فأطرق ايفان واجاب : ماتزال ناتاشا عذراء طاهرة يا سيدى ... وما كان لمثلى ان يمس امراة وان كانت زوجته ، بينما هو يعلم علم اليقين انها من حق مولاه ! ...

فوثب به فيدور ، وامسك بكتفيه وصاح : اذن فيجب ان تطلقها!... انها لى ! ... وانا كلما تصورت انك زوجها ، وانها تعيش معك تحت سقف واحد ، وقد تصبح لى فى لحظة من اللحظات بحكم الألفة والجوار اليومى ، اختلط عقلى والهبت الغيرة دمى ! ... فيجب ان تطلقهـــا يا ايفان ! ... وما دام الزواج لم يتم ، فالكنيسة ولا ريب ســـتقر الطلاق ! ...

فانحنى ايفان حتى كاد راســـه يلمس الارض ، وقال : الامر بيد ناتاشا يامولاى ... اما انا فعبدك الخاضع ... والعبد لك وما ملكت يداه . هذه هى زوجتى !

ودخلت ناتاشا . فما ان لمحت فيدور حتى ارسـلت صرخة فرح مدوية ، وارتمت بين ذراعيه . فعانقها الشاب عناقا حارا مشوقا متلهفا ، ومضي يضمها ويقبلها ، وهو يتحسس بيد ظامئة جثمانها اللين الرخص الذى تألق فى غيبته وازدهر ، واضفى عليه وقد الشباب والصحة خارقة من جمال .

وكان ايفان يحبس دموعه ويحدق الى الارض .. فلما ســكنت عاصفة اللقـــاء ابتسم فيدور وقال : سيتم طلاقك فى غد ياناتاشـــا وتصبحين لى !..

فاندلع لهب النصر من عينى الفتاة ، وصرخت وهى تائهة .. زوجتك؟.. انا .. أصبح زوجتك .. زوجتك انت يافيدور ؟ ! كأنى احلم .. بل كأنى اموت .. ومع ذلك فقد كنت واثقة . كنت واثقة من انك ستبر يوما بوعدك وتتزوجنى .. فدعنى .. دعنى اقبل قدميك .. ما انت بشر .. ان انت الا ملك كريم ..

وهوت على قدميه تقبلهما وتبكى . فشخص اليها فيدور فترة ثم حول وجهه عنها ثم ارتبك وارتد اليها ثم انهضها وقال فى صوت جهير عميق : اية علاقة بين الحب والزواج ياناتاشا ؟ ..

فوجمت الفتاة وتطلعت اليه . فأمسك بيدها ، ولاطف اناملها ، واختلس منها قبلة واردف : سواء اكنت زوجتى ام حبيبتى ، ففى مقدورى

أن أجعل منك سيدة عظيمة وان اهبك كل ما تشـــــتهين ! . الزواج .. مامعنى الزواج ؟ .. الا بد من واجب وقيد وحفلة عرس ومراسيم اكليل ... ان مسير الزواج الى ضجر وكراهية ياناتاشا . أما الحب .. الحب المطلق من كل قيد...فهو وحده الذى يمكن ان يقهر غدر الزمن ويعيش.. فاصدعى بأمرى واتبعينى .. اتبعينى الآن ... انت وزوجـــك ... سنذهب الى الكاهن ، ونصارحه بالحقيقة .. ونطلب الطلاق ... ومتى أصبحت حرة ياناتاشا ، اقطعتك أرضا ، ووهبتك قصرا ، ومنحتك قلبى وروحى ، وأغدقت عليك أروع مفاتن النعيم ! ... اتبعينى ...

وأشار الى ايفان بأن يتقدمه . وجذب الفتاة فى رفق من ذراعها ، وهم بأن يتجه بها صوب الباب . ولكن ناتاشا التى كان هول الكلمات الصارخة الفاضحة قد أذهلها وأسقط الغشاوة الكثيفة فجأة عن عينيها والتى تخطفها الذعـــــر ، ومزقها اليأس ، واســـتبد بها الكمد والحنق والاشمئزاز ، أفلتت فى غلظة من يد فيدور ، وواجهتـــــه وصوبت اليه عينين جاحظتين ملؤهما البغض والاحتقار ، وصاحت : تريدنى عشـــيقة يافيدور ؟ ! ... أجل .. تريدنى عشيقة لأنى أحقر وأوضع من أن أكون زوجة للسيد الأصيل الشريف ! ... أهــذا هو الوعد الذى أقسمت أن تبر به قبل رحيلك .. لقد تحولت فى الخارج وتلوثت يافيدور .. لا .. لن أكون أبدا عشيقتك .. أنا لم أصن نفسي من أجلك هذه الســـنوات كلها ، لأغدو بفضلك أنت فاجرة وبغيا .. لن أقبل الطلاق ، ولن أصبح عشيقتك ولن أتخلى عن ايفان .. أتسمع ... لن اتخلى عن هذا الرجل . البائس الوفى النبيل الذى هو أمام الله وأمام الناس زوجى ...

ورددت وهى ترتعد : سأكون له .. سأكون له ... هذا هو منذ اليوم واجبى .

فانخلع قلب ايفان ، وأرسل فيدور قهقهة طويلة ، وقال : فى وسع الرجل بمفرده أن يطلق مادام الزواج لم يتم ... وزوجـــــك المزعوم سيطلق .. بل يجب ... يجب أن يطلق ... فاذعن لأمر ســــيدك يا ايفان ، واتبعنى حيث الكاهن ، ولا تحفل بها .. هيا ...

فاضطرب الشاب لحظة ثم رفع بصره الى سيده ، ثم قال فى هدوء: هذه المراة هى زوجتى ... وما جمعه الله لايفرقه انسان .

فانتفض فيدور كمن قد مسته نار . واستهول كيف يعترض ارادته حطاب حقير .. فتلوت اعضاؤه تلوى التشنج ، وافقده الكبر صوابه .

فانتزع من جيبه سوطه الجلدى ، وانهال بالسوط ضربا على ايفان ... فبهتت ناتاشا ، وتاه رشدها ، وارتمت بين الرجلين ، وامسكت بالسوط جاهدة وهى تصرخ فى وجه فيدور : أتضرب الضـــعيف لأنه يذود عن حقه .. لقد اصبحت كوالدك تماما. .سقط القناع عن وجهك وافتضحت.. انت لم تحبنى ابدا .. كنت تشتهينى .. كنت تخدع نفسك وتخدعنى . فلما ابتعدت عنا ارتددت الى طبيعتك . ولما سيطرت وامتلكت المال انقلبت الى وحش كاسر .. انت لم تكن ابدا منا .. نحن عبيدك تعتصرنا عملا وكدا ثم تلقى بنا فى محيط المرض والشيخوخة كومة من حطام ... نحن حطام بشرى يتقلب على سطح هذا البحر المتلاطم ثم يصرعه الموج ، ويأكله ، ويغيب فى جوف الظلام ... لا ... أنت لم تكن أبدا منا ... لم تكن غير المالك المستبد الظالم المتربص بنا .. لم تكن فى قلبك ذرة من رحمة واحساس .. فخــذ عرقنا ان شئت فأنت الأقوى . أما قلوبنـــا وأجسادنا فهى ملك لنا نمنحها لمن يحبنا ، أو لمن كان مثلنا ، فلاحا أو حطابا أو متسولا ! ..

وانثنت ملهوفة الى ايفان الذى كان الدم ينزف من ســــاعديه . وجعلت تواسيه وتطيب خاطره وتعصب جراحه بمنديلها . فبرح الألم بالشاب وترنح وأوشك أن يسقط . فتلقته ناتاشا بين ذراعيها ملتاعة كما تتلقى الحبيبة حبيبها . فافترست الغيرة قلب فيدور ، ودنا من المرأة، ورشقها بنظرة ناعمة لينة ، يبرق فيها الحقد المحتجز والخبث العميق ، وقال : لن آخذ منكما العرق فقط بل سآخذ العرق والدم أيضا ! ..

وضحك ضحكة صفراء ، ودس سوطه فى جيبه ، واستدار هادرا، وخرج .

وكانت تلك الليلة هى ليلة عرس ناتاشا وايفان .. جرفتهما نشوة الاندماج المعنوى والحسي الكامل ، فلم يحفلا بالخطر المحدق بهما ، وناما كزوجين فى فراش واحد ، ولم يعتقدا لحظة أن ليلة العرس هذه هى ليلة الوداع ... وفى فجر اليوم التالى ، وعندما خرجا الى الحقل معا ، وقبل ان يتعانقا ويفترقا ليمضي كل منهما الى عمله ، دوى فى الفضـــاء الساكن عيار نارى أطلقه مجهول ، فأصاب ايفان فى صدره ، وأرداه على الارض صريعا مخضبا بدمه .

وجن جنون ناتاشا ، وتمنت ان تقتل هى الأخرى وتلحق بزوجها . ولكن القاتل الذى اطلق النار اندس بين سنابل القمح واختفى . فأيقنت ناتاشا ان فيدور الذى حرض على قتل زوجها ، امر بالابقاء على حياتها هى ، كى يختطفها بعد ذلك ويغتصبها ... فاستطار لبها ، واستعرت ارادتها ، ولم تنظر الى الوراء ... لم تنظر الى الجثة .. بل نظرت الى نفسها .. الى جثمانها .. الى جسدها الطاهر الذى اقسمت الا يمسه رجل غير زوجها ، وانطلقت .. انطلقت تعـدو كمعتوهة ، ضاربة فى احشاء المزارع ، متغلغلة فى فسحات الحقول ، ميممة وجهها شـطر مشارف القرية حيث ينهض الدير .. الدير الكبير .. الدير الشامخ الصامت المأمون ، الذى ترهبت فيه أختها اولجا ..

وبلغت الدير منهوكة ومنسحقة . وطرقت بابه . فبرزت اليها رئيسته العجوز . فجثت ناتاشا عند قدميها ، وقصت عليهـا قصتها ، والتمست اليها وهى تبكى أن تضمها الى عرائس المسيح وترحمها ...

فتفرست فيها الأم الراهبة لحظة ثم قالت فى رفق وهى تنهضها : ادخلى يا بنيتى ...

فأشرق وجه ناتاشا ودخلت . واغلق عليها باب الدير الى الابد !.



السادة والعبيد

« ...وتمثل هذه القصة أيضا ، فى جو فنى ، لونا آخر من الصراع ، الذى كان ناشبا فى روسيا القيصرية بين الاشراف والشعب » .

كان ألكسندر فاسيلييف من امهر وانبغ الراقصين فى روسيا ، وكان قد اشتهر بالرقص الفنى الرفيع الـذى يعبر بمختلف أوضـاع الجسم البشرى عن شتى العواطف الكامنة فى النفس الانسانية .

ولقد نشأ فاسيلييف فقيرا .. وقضي شبابه الأول فى أوسـاط الشعب .. واتصل بالعمال والفـلاحين .. وأحس شقاءهم ، وشاهد استبداد الأشراف بهم ، فأراد أن يعبر بفنه عن الظلم الواقع عليهم ، وأن يطبع فنه بطابع الجماهير المنكوبة فى حياتها ، الساذجة فى تفكيرها ، الجريئة فى مطالبها ، الصاخبة الهادرة فى عواطفها كأمواج بحر لا ينفك يضطرب ويجيش ..

وهذه النزعة بالذات هى التى أبرزت شخصيته ، وميزته على أقرانه ، وأخضعت له قلوب الشعب ، وأثارت عليه سخط الاشراف .

فرقصاته المشهورة كانت ثورة حية .. ثورة تحوم حول الجـوع والمرض ، والكدح والألم . والذل والصبر ، والأمل فى الحياة ، والرغبة فى الفرح ، والتوق الى الحرية ، وكل ما يضطرم فى نفوس الشعب من عواطف مكتومة ، ورغبات محتجزة ، وأخيلة وأحلام لاتجد منصرفا لها الا على خشبة المسرح ..

وكان فاسيلييف يضفى على هذه الألوان القاتمة حلة يستمدها من الحب كما يفهمه ، وكما يؤمن به ، وكما يعتقد ان الفطرة البشرية ركبته فى طبائع الناس .

وكان الحب فى نظره قوة أيضا .. قوة رائعة تلهب عـواطف الانسان كلها .

والحق أنه كان يمثل هذا الحب فى فنه ويعجز عن تحقيقـه فى حياته ..

كان يتمنى ان يعيش ، ان يتالم ، ان يجار من فرط الحب ، ويتلوى من فرط الغيرة ، ليستطيع ان يكون فنانا كاملا يجمع الى روعة الخيال صدق الحقيقة .

ولكنه كان يتبرم بالنساء ، ويحتقرهن ، ولا يشعر حيال اية امراة بتلك النشوة التى تثير العقل ، وتلهب القلب ، وتهـــز النفس والبدن من الأعماق .

وهكذا ظل فاسيلييف فريسة حلمه الخـــارق حتى تنبه ذات يوم وصحا ..

صحا على رؤيا أجمل من الفن ، وابدع من الشعر ، واكمـــل من الواقع ، واغرب واعجب من كل وهم وكل خيال ..

كان يسير الهوينى فىعصر يوم منأيام الربيع فى ضاحية بعيدة من ضواحى موسكو .. واذا به يبصر فتاة نورية « غجرية » محلولة الشعر ، مكشوفة الصـــدر ، مهلهلة الثياب ، تقفز فى الحقول كالنمر ، وتتسـلق الأشجار كالفهد ، وتضحك وتغنى لكلبها الكبير .

تجاه هذه الصورة ارتعد فاسيلييف واحس كأن روحه تفلت منه ، وكأن قلبه يثب من بين ضلوعه ويستقر على هذه المراة . فدنا منها . وحاول أن يخاطبهـــا . ولكنهـــا رمقته بنظرة مستنكرة ، واعرضت عنه ومضت تداعب كلبها وتغنى .

وكان صوتهـــا الطف من النسيم ، وجسمهـــا الين من الأغصان ، وحركاتها واشاراتها أوفر انسجاما ، وابلغ اتساقا ، واعمق تأثيرا من حركاته هو ، وهو يرقص على المسرح رقصه الساحر ..

واحبها فاسيلييف بجسم رجل وعقل فنان . احب فيها وحشـــية الفطرة ، ونضرة الصبا ، وبراءة النفس ، وصفاء الجمال .. فجعل يتردد عليها ، ويتودد لها ، حتى اطمأنت اليه ، واستأنست به ، ودعته لزيارة العربة المتنقلة التى كانت تعيش فيها فى صحبة والدها العجوز وكلبها ..

وكانت تدعى « جروشكا »

وكانت تحترف الغناء فى القرى ..

وكان والدها العجوز الذى قضي هو ايضا حياته فى خدمة الأشراف وشاهد استبدادهم بالفلاحين والعمال ، قد اشربها حب الشعب الصابر

المجاهد المسكين . فنشأت الفتاة على كراهية الظلم ، ومغالبة الطغيان ، وعبادة الاستقلال والحرية .

وكانت اشد من والدها حبا للفقراء ، وتعصبا لهم ، ودفاعا عنهم .. فلما عرفت من هو فاسيلييف وادركت انه فنان انسانى نبيل يتخذ من فنه وسيلة لعرض آلام الشعب مالت اليه ، وتعلقت به ، وخيل اليها أنها لو وصلت حياتها بحياته ففى وسعهما ان يخدما معا فكرة واحدة ، ويجاهدا معا فى سبيل غرض واحد .

واولعت به جروشكا ولعا جنونيا بعد اول ليلة شاهدته فيها يرقص على خشبة المسرح ، ولكى تحاكيه وتنافسه ، وتروق فى عينه أيضا وتفتنه ، بدلت من طابع اغانيها ، وافعمتها بروح شعبية ثائرة ، وانطلقت فى المزارع والقرى تغنى أناشيد تبعث الحماسة فى النفوس ، وتستنهض ميت العزائم والهمم .

واستبد حب النورية بقلب الفنان ، فكان لا يكاد يفارقها حتى يسعى اليها . ولا يكاد يفرغ من عمله فى موسكو حتى يسرع الى الضاحية البعيدة ، متنقلا فى رفقة محبوبته من قرية الى قرية .

وظل على اخلاصه لها سنة كاملة ثم تبدل فجأة ولاحت عليه أمارات الفتور .. !

كان اذ ذاك فى مستهل مجده وفى مطلع شهرته فلما انتعش وارتوى واقبلت عليه الشهرة ، ودان له المجد ، تنكر للمرأة الفقيرة التى أخلصت له ، وتبرم بها ، وانصرف عنها ، وراح ينشد المال والجاه والحب عند الاشراف المترفين المستبدين أعداء الشعب ..

عشق سيدة عريقة فى الحسب طلقها زوجها لسوء سلوكها ، ففتحت صالونها لطائفة من الشباب الأثرياء ، كانت تمنحهم نفسها وكانوا يغدقون عليها المال أنهارا .

احبها فاسيلييف حب المحروم للنعمة ، وافتتن بها ، وانقاد لها ، وخيل اليه وهو يراها تتقلب فى غمرة الترف والنعيم انها ملك فى صورة انسان ..

واندمج فى حياتها اندماجا ساذجا عجيبا . هام بها وهو لا يراها . اتصل بها وهو لا يشعر بحقيقتها . خالط اصدقاءها وملء نفسه الفرح والزهو بأنه قد أصبح منهم ، عظيما وشريفا مثلهم ، لا يمت بصلة لا الى المتوسطين من الناس ولا الى ابناء الشعب .

واحتوته العظمة ، وركبه الغرور ، وأبى عليه كبرياؤه الا أن يعلن انسلاخه عن الشعب فى فكر جديد وفن جديد . فأنكر جهاده وانكر ماضيه ، وعكف على ابتداع رقصات ناعمة مخنثة رخوة ، تمالىء الطبقة الأرستقراطية على أهوائها ، وتتملق غرائزها وميولها ، وتظهرها على الملأ بمظهر التفوق فى الذوق ، والتفوق فى الفكرة ، والتفوق فى العاطفة والاحساس ..

وكانت جروشكا وقد برح بها القلق والشك والخوف ، تحس فتوره ، وتشعر بتحوله ، وتراقبه مراقبة دقيقة من حيث لا يدرى .

وقام فى نفسها انه لا بد أن يكون قد اتصل بامرأة اخرى . فمزقتها الغيرة ، وافترستها الحسرة ، ووطنت العزم على مجابهة الحقيقة ومعرفة كل شيء .

وكان فاسيلييف قد اهملها أسبوعين طويلين ، ثم كتب اليها يعد بزيارتها ، ثم أخلف الوعد واحتجب اسبوعا آخر ، فثار ثائرها ، وجن جنونها ، واستقر رأيها على السفر فجأة الى موسكو عساها أن تباغت حبيبها الغادر وهو متلبس بجريمته .

وفى ذات ليلة من ليالى الشتاء ، والريح تزار ، والمطر يهطل ، والبرد الشديد يجلد الدم ، ويستنفر العضلات والاعصاب ، حزمت أمرها وركبت القطار فى صحبة رهط من اصدقائها النور ، ودخلت موسكو .

ولم تكد تخترق شوارع المدينة ، حتى اخذت ابصارها اعلانات كبيرة ملصقة على الجدران ، تلفت نظر الجماهير الى أن فاسيلييف قد ابتدع فنا خارقا عظيما ، وانه يرقص الليلة لاول مرة رقصات جديدة ستحدث ثورة فى عالم الفنون .

وادهش جروشكا ما قرأت ، فلم تتردد ، واهابت بأصحابها ، واتجه الجميع صوب المسرح .

وكان فاسيلييف وقد انصبت عليه اضواء ساطعة متباينة الاتجاهات والالوان ، يرقص على نغمات الموسيقى ، رقصات غريبة .

كان لا يرقص كعـــــادته فى وحشـــية الفطرة وعنف الرجولة . كان لا يرقص رقص الجوع ، ولا رقص الالم ، ولا رقص العمـــــل والكفاح والتضحية . كان لا يمثل الشعب المعذب المجاهد المسكين ، بل كان يمثل فى خنوثة شائنة منكرة ، عواطف فارس من النبلاء يعشق سيدة مجيدة ، تصد عنه فيتبعها ، وتروغ منه فيلحق بهـــــا ، ثم تطرده ناهرة زاجرة ، فيترامى عند قدميها ، ويبكى أمامها ، وما يزال يبكى حتى تعطف عليه آخر الأمر وتمنحه صفعة رشيقة خفيفة ، يجن بها ويعتبرها قبلة ..

تجاه هذا الفن الرخيص الوضيع ، ارتعدت فرائص جروشكا ، ولم تستطع أن تكذب ظنها فنهضت . نهضت من مقعدها فى أعلى المسرح وطفقت تحدق فى المقاصر المزدانة بالشريفات المجيدات من حسان موسكو ، وهى تطل برأسها المشـــــوش الشعر ، وتعض على شفتيها الناتئتين وترتجف ...

وفى تلك اللحظة تراجع فاسيلييف بغتة ، واســـدل الستار . فتعالى الهتاف من مقاصير الاشراف فارتفع الستار ، وظهـــر الراقص ، ودوت أكف السيدات العظيمات بالتصفيق ، وشيعن معبودهن بعاصفة من التهليل والصياح . وكان الاشراف يهتفون . ولكن الشعب كان جامدا صامتا مذهولا ، لا يفهم ما يرى ولا يصدق ما يسمع .

وفجأة ، وقبل أن يسدل الستار ، نهضت احدى السيدات الشريفات واستندت الى حافة مقصورتها ، ولوحت بذراعهـــا ، ثم رمت الراقص بباقة من الزهور الحمراء ، سرعان ما التقطها ، وشرع يقبلها ، وهو يتراجع فى زهو ويحيى الجماهير ..

وغشي الدم عينى جروشكا ، واحست كأن شوك هذه الازهار يرشق فى قلبها ، فاشرأبت بعنقها أيضـــا فلمحت السيدة تخرج من مقصورتها وتمشي فى الردهة الطويلة ، وتفتح البـــــاب المؤدى الى جوف المسرح وتدخل .

عندئذ تاه فكر جروشكا ، واحتواها عزم لا يقاوم . فاستأذنت رفاقها وانسلت من بين المقاعد ، وانطلقت الى الشارع ثم استدارت ودخلت المسرح من باب الممثلين .

وكان بواب المسرح يعرفها فلم تلق اعتراضا ، فيممت وجهها شطر مقصورة فاسيلييف وهى تجاهد لتكبح جماح أعصابها .

وما أن دنت من المقصورة حتى جحظت عيناها وعقد الذعر لسانها . ابصرت من خصاص الباب ، وفى ضوء الحجرة الخافت ، حبيبها والسيدة الارستقراطية يتبادلان فى لهف وشوق قبلة طويلة محمومة ، فطاش صوابها ، ودفعت الباب ، ووقفت ذاهلة ساهمة لا تتحرك .

والتفت فاسيلييف ، ولم يكد يتبينهـــــا حتى صرخ : انت ؟ .. من أنت ؟ .. من جاء بك الى هنا ؟ ..

فرمقته بنظرة هائلة وقالت فى هدوء : تركتنا نحن العبيد وذهبت الى السادة . ولكن العبد متى ثار أصبح اشد وحشية من السيد ! ..

وصاحت : مر هذه السيدة بالخروج ! ..

فبهت فاسيلييف ، ثم اهتاج وصفعها . فلم تصرخ ، ولم تتحرك ، بل قالت بنفس الهدوء : اضربنى ! .. اقتلنى ! .. ولــــكن أطردها .. أطردها حالا ! ..

فعيل صبره وركلها ... ركلها بقدمه ، ولطمها بقبضته ، ودفعها الى الخارج دفعا وهو يصيح بعمال المسرح كمعتوه : القوا بهذه المرأة فى الشارع ! .. هذه المرأة لن تدخل هنا ! .. أبدا ! .. ابدا ..

فأحدق العمال بها ، ورمتها السيدة الارستقراطية بنظرة ساخرة شامتة . فهدرت جروشكا كالحيوان المطارد ، واتجهت صوب فاسيلييف وصاحت : لن تفلت منى ! ..

ثم شقت صفوف العمال ، واندفعت الى الخارج ، وكرت راجعة الى مقعدها فى أعلى المسرح ، وهى تخفى اضطرابها ، وتكتم عواطفها وتتحفز للثأر وتهيىء ضربتها القاضية .

وفجأة ، وبعد رفع الستار وفى هداة التمثيل ، وبينا كان فاسيلييف يتخطر ويتثنى ويترقص رقصه المخنث الوضيع ، نهضت جروشكا وأطلت على الجماهير ، وصرخت فى الراقص بأعلى صوتها : كفى ... ادخل !.. انصرف ! .. هذا الفن شائن وبغيض ! ..

فبهت فاسيلييف وارتبك وساد المسرح سكون زافر كالسكون الذى يتقدم العاصفة . وبغتة صمتت الجماهير الشعبية وارتد اليها وعيها تحت تأثير كلمات جروشكا ، فأطلقت الفنان لسخطها ، وانفجر غضبها جارفا كالسيل ، وصاحت : ليدخل ! .. ليحتجب ! .. انه يسخر بنا ! هذا وغد قد اشتراه الاشراف ! .

وانهالوا عليه سبا ولعنا ، وصفروا له ملء اشداقهم ، وقذفوه بقطع الجبن وكسرات الخبز وقشور الفاكهة . واضطرب المسرح وماج ، وارتاع الاشراف وغادروا مقصوراتهم ، واندفعت الجماهير من أعلى المسرح واقتحمت الصالة وأبت الا ان تثأر بنفسها من الفنان الذى خدعها وغرر بها . وعندئذ ، وفى مثل خطف البرق ، القى فاسيلييف معطفه على كتفيه وانسل من المسرح ، وفتح الباب المؤدى الى الصالة واتجه نحو مقصورة عشيقته الارستقراطية لائذا بها ، عازما على الفرار معها ، يرتعد فرقا من غضب الشعب وسخط الجماهير .

بيد أنه لم يكد يتقدم حتى تراجع واختلج وجمد . .أبصرجروشكا . . جروشكا نفسها ، فى رهط من أصدقائها النور ، واقفة بباب المقصورة ، والسيدة الارستقراطية أمامها ، مستندة الى ذراع شاب من الاشراف تلتمس اليه أن ينقذها ، وتحدق فى الفتاة النورية تحديقا مروعا وترتجف .

وغلى الحقد فى صدر فاسيلييف وعضت قلبه الغيرة ، فصاح بجماعة النور وهو ينقض عليهم :

— ويل لمن يمس هذه السيدة بسوء ! . .

وانثنى نحو عشيقته وأراد أن يتأبط ذراعها . ولكنها أعرضت عنه فى احتقار ، وتعالت عليه فى عزة وشموخ ، وقالت له وهى تلقى فى وجهه بوشاح من حرير كان قد أهداه اليها : اذهب ! . . اذهب معهم فأنت منهم ! . . كل شيء بيننا قد انتهى ! . .

وتأبطت ذراع الشاب الشريف ومرقت به من بين الصفوف ، فجن جنون فاسيلييف وهم بأن يتبعها . ولكن جروشكا أومأت الى رفاقها ، فأسرعوا اليه ، وأحاطوا به ، وجروه الى فناء المسرح ، ثم اقتادوه بالرغم منه الى الخارج . وفى ركن مظلم من الشارع العريض ، وفى غفلة من رجال الشرطة ، أركبوه العربة التى جاءت بهم ، ثم انطلقوا بالعربة الى القرية ، يلهبون ظهور الخيل ويتضاحكون ، وجروشكا قابعة فى المؤخرة ، تخالس فاسيلييف النظر وتهز رأسها .

ولاحت لهم القرية عند الفجر وبدا امامهم الحقل الفسيح حيث تجتمع ارهاط النور لتغنى وترقص احتفالا بمطلع النهار . فترجلوا وساقوا فاسيلييف الى الحقل ، ودفعوه الى حلبة المغنين والراقصين وجلسوا القرفصاء يتفرجون ، وينتظرون اشارة من جروشكا .

وكان النور يرقصون عاضين بأسنانهم على خناجرهم ، واثبين فى الهواء تارة ، هابطين الى الارض تارة اخرى ، فارتمت جروشكا فى غمرتهم وصاحت فجأة بهم : يارفاق ..

فكفوا عن الرقص ، والتفوا حولها ، وتطلعوا الى الرجل الدخيل مستفسرين . فرفعت جروشكا ذراعها ، واشارت الى فاسيلييف وقالت وصوتها الاجش يدوى فى الحقل الهادىء الفسيح : هذا الرجل احبنى ثم خدعنى ! . عشق بغيا أرستقراطية وانصرف عنى ! .. فما جزاؤه منكم ، وما حكمكم عليه يا رفاق ؟ .. أجيبوا ..

فوجم النور وبهتوا ، وحملقوا فى الفتاة دهشين ، فأهابت بهم : تكلموا ! ..

فنهض والدها مذعورا ، وحاول أن يدلى برأيه ، ولكنها نحته جانبا ، وطلبت الى شيخ القبيلة أن يتكلم .

وتحامل الشيخ على نفسه ، وقال فى صوت جهير وهو ينتزع سكينه من جيبه ويدفع بها الى فاسيلييف : يابنى . لقد أحببت نورية فخضعت بالرغم منك لشريعة النور ! .. فاقض على حياتك بنفسك . هذا هو حكم الخديعة فى شريعتنا ! ..

ودفع اليه بالسكين مرة ثانية ، فارتعد فاسيلييف وشحب وجهه شحوب الموتى ولم يتحرك . فأسرعت جروشكا واختطفت السكين من يد الشيخ ، وثبتت نظرها فى حبيبها ، وقالت له فى هدوء : فاسيلييف ، لى وحدى حق الاعتراض على الحكم ، ومن حقى وحدى أن أمنحك فرصة أخيرة وأمتحنك . فأصغ الى الآن وتنبه ... انك كنت فى ماضيك المجيد مثلا من أمثلة الجهاد . ولقد خدمت شعبنا التاعس المحروم بفنك الانسانى النبيل . ولهذا أحببتك ... فعد الى ماضيك أصفح عنك .. عد الى ماضيك أنقذ حياتك ! .. ودع الترف والغنى . ودع المدينة الملعونة وتعال معى . تعال معى الى حيث يعيش المساكين . تعال معى الى المزارع والقرى ، ولنعمل معا فى سبيل يقظة هذا الشعب . انا اغنى اناشيدى الوطنية ، وانت ترقص رقصك الثائر الحماسي العظيم . هذا حكمى فهل تقبله ؟ ...

فهتف فاسيلييف : وحريتى ؟ . اية قيمة لفنان يتجرد باختياره من حريته ؟ ..

فصاحت الفتاة الجاهلة : واية قيمة للحرية فى شعب من عبيد ؟ ما دام الشعب يتألم ، فالحرية الشخصية يجب ان توجه لخدمتـــــه والا انقلبت عليه ! ..

فهتف فاسيلييف مرة ثانية :

— لن أبيع حريتى ! ..

فصرخت جروشكا : هى عشيقتك التى تفكر فيها لا حريتك . ! أنت تحبها ! .. ما زلت تحبها ! .

فجاشت عاطفة الحقد فى صـــــدر فاسيلييف ، وصاح بالرغم منه متحديا مستكبرا : أحبها ! .. نعم أحبها !..بقدر ما أكرهك انتوأبغضك !.

فاندفق الدم الى وجه جروشكا ، وزأرت كوحشمطعون : اذنفاذهب اليها .. الى البغى الغادرة ! .. اذهب الى الســـادة الذين اشتروك فأنت أحقر وأوضع من أن تفوز بشرف خدمة العبيد ! .

ولم تنظر اليه . ولم يبد على وجههـــا أى أثر للحب أو التردد أو الشفقة . بل تراجعت وتحفزت ، وأغمدت فى صدره السكين ! ..



اللهب المقدس

« كانت حرب الاستقلال الايطالية دائرة الرحى فى سهول مقاطعة لومبارديا عـــام ١٨٢٠ . وكان المجاهدون الايطاليـــون يقاتلـــون جيش الاستعمار النمسوى قتالا عنيفا تحت زعامة بطل من أبطالهم يدعى أتيليو ففى خلال هذه الحرب المجيدة وقعت حوادث هـــذه القصة التى تعتبر مأثرة من مآثر الجهاد الوطنى فى ايطاليا والعالم » .

كانت الجدة العجوز « ماريا » قابعة فى ركن من أركان البهو الصغير تحدق الى الشعلة المستطيلة المنبعثة من شمعة كبيرة مثبتة فى اناء وقائمة بجوارها فوق منضدة . وكانت هذه العجوز التى أشرفت على السبعين قد غافلت أسرتها منذ بضعة أشهر ، واندست فى صفوف جيش التحرير ، وقاتلت معه ، وتمكنت من قتل أربعة ضباط نمسويين . فلما القى القبض عليها ومثلت أمام الحاكم العسكرى النمسوى ، أصابتها نوبة مروعة من التشنج ، وطفقت تضحك وتصرخ وتهذى . فاعتبرها الحاكم عجوزا مجنونة وخرفاء . فأمر بجلدها لتكون عبرة لسواها ، وألقى بها فى السجن شهرا ثم أطلق سراحها . وهاهى ذى ماريا فى بيت زوج ابنتها ، منكمشة فى مقعدها العميق ، تضحك فى بلاهة كعادتها ، وتتأمل الشمعة المضـــاءة ، وتخالس بيدها المرتعشة وهج النار ، وعينها الثاقبة تحوم حـــول ابنتها « روزين » .

وكانت روزين تنظر الى أمها فى حسرة ، وتستغرب كيف أصبحت هذه المرأة التى أشتهرت برجاحة العقل وقوة الاعصاب مجنونة ومعتوهة ومع ذلك فروزين كانت تشكر ربها ، وتقول فى نفسها أن أمها لو ظلت متنبهة وعاقلة ، فالموت كان ولا ريب مصـــــيرها المحتوم على يد الحاكم النمسوى .

على أن روزين كانت لا تفكر فى أمها فقط ، ولا تتحسر عليها فقط . بل تفكر أيضا فى ابنها هى . ابنها الوحيد « كارلو » الذى غادر البيت منذ ثلاثة أيام ولم يعد ، والذى انطلق والده يجوب سهول لومبارديا بحثا عنه على غير جدوى .

والحق ان كارلو كان قد تحول فجأة وتغير . لم يعد ذلك الشاب الذى كانت تفخـــر به امه لاستقامته ورصانته وخلقه الأبى المتين . كان داعية من دعاة الحرية كوالده ، وعلما من أعلام البطولة فى قريته . وكان قد احب وخطب الفتاة الطاهرة البريئة المجاهدة « جلوريا » . ولكنه لم يلبث أن خان عهدها ، ونبذها ، وأصبح بين عشية وضحاها فتى ماجنا مستهترا خليعا ، يسخر من أبيه الكهل الوطنى الغيور ، ويهزأ بأمه التى تنافس فى صدق الوطنية زوجها ، ويتعمد تحقير جدته المجنونة العجوز التى كانت تحتمله فى جلد وصبر ، وهى لا تفتـــأ تحدق اليه تحديقا ثابتا غريبا ، بينما أصابعها المرتعشة تتحسس الشمعة المضاءة ، وتخالس فى حذر وهج النار ...

ورفعت روزين رأسها ، وتأملت صورة ابنهـــا المثبتة فى الحائط . وسرعان ما ذكرت علاقته بالأرملة الجميلة الثرية « ايفونا » وغلى الدم فى عروقها ... هذه المرأة هى التى أفسدت خلق ابنها . هذه المرأة هى التى سلبته من خطيبته جلوريا ، وجعلت منه فتى مدللا مخنثا وضيعا ، لا ينشد فى الحياة غير أسباب الترف والوان اللذة ومفاتن العز والسؤدد والجاه العريض ...

وتقبضت تقاطيع وجه الأم ، وشاع فى عينيها الغائرتين ضباب الهم والاسى . فهتفت لنفسها من أعماق نفسها وهى تتلوى : « كيف انقذه من براثن تلك الفاجرة ؟ ... كيف استرد ولدى ، ولدى الذى لم أرزق بسواه . ولدى الذى كان غاية لحياتى ، وأملا لوطنى ، وفخرا ومجدا لنا أنا وزوجى المجاهد المكافح المسكين !! .. »

وتلفتت الى أمها عسى أن ترى فيهـــا انسانا حيا يمكن أن يستجيب لها . ولكنها أبصرت العجوز المجنونة زائغة العينين ، متقدة الوجنتين ، تتفرس فى اللهب الاحمر كعادتها ، وتضحك وتهذى كالاطفال . فاعتصر الالم قلب الام ، ولم تستطع الام أن تحنى رأسها خائرة ومنهوكة ، وتطلق لدموعها العنان ...

وفجأة ســـــمع طرق متواصل على باب البيت . فأسرعت روزين ملهوفة وفتحته ولكنها بدل أن تبصر ابنها أو زوجها ، الفت نفسها تجاه الفلاح الشيخ السكير « انطونيو » ينظر اليها بعينيه الحادتين نظرة قاسية حاقدة ، ويدفعها بيده ويدخل ...

وارتمى الفلاح على مقعد وهو يسعل ويترنح . لم يلتفت الى الجدة

المتوهة ، بل تطرح واسترخى ، وتحول صوب روزين ، وقال فى خشونة وانفعال :

— تعلمين انى فقدت ابنى الوحيد فى المعركة القائمة بيننا وبين اعداء بلادنا ، وانى أدمن الآن على شرب الخمر لا لاتعزى ، بل لاستنهض البقية الباقية من قواى واستطيع ان اصيب النمسويين فى مقتل وانتقم لولدى ! .. فهل انت افضل منى ، وهل تقيمين وزنا لحياة ولدك اكثر مما كنت أنا أقيم وزنا لحياة ولدى ؟ ... أن حياة أولادنا ملك لبلادنا يا روزين . وكل أم تؤثر حياة ابنها على مستقبل بلادها هى أم خائنة لوطنها الذى هو ابنها الحقيقى الخالد السرمدى ! ...

فذهلت المرأة وارتعشت وغمغمت :

— لا افهمك ... صرح عما فى ضميرك يا ابت ولا تعذبنى .

فدنا الشيخ منها وهو يتعثر ، وأمسك بيدها ، وقال فى صوت غائر أجش كظليم :

— ان ابنك كارلو لم يعد منا . لقد التحق بمكتب المباحث التابع للنمسويين ، وهو الآن جاسوسهم علينا ! ...

ففغرت الأم فاها كبلهاء ، وجمدت كأنما قد ضربتها صاعقة . أما العجوز المجنونة فقد تاهت عيناها ، وتوزعت نظراتها ، وارتجفت يدها الضامرة ارتجافا متعاقبا وهى تداعب النار ، ثم هزت كتفيها ، وابتسمت ، ومضت تدمدم وتضحك وتهذى . فرمقها الشيخ بنظرة مستنكرة وأردف :

— يجب أن تصارحى زوجك ياروزين . انه رجل وطنى مجاهد لا شبهة عليه ، وهو ساعد زعيمنا وسنده ، بل هو أنبغ واقدر كاتب لتلك النداءات الحماسية التى نوزعها كل يوم على جنودنا والتى تضرم فى صدورهم جذوة الوطنية وروح الامل والايمان والكفاح . فعار على الولد الا يكون صورة من أبيه ، وعار على الاسرة كلها ان لم ترده عن غيه وتلزمه محجة الصواب والهدى ! ... هذا انذار لكم يا روزين فاحذروا . ولسوف تنكشف الحقيقة للزعيم فيورد ابنك الوحيد ان عاجلا او آجلا مورد التهلكة !

فارتعدت المراة ، وافاقت بغتة من غشيتها وادركت . ولم تكد تدرك وتفهم وتتأمل حتى هالتها فظاعة الاتهام الشائن ولم تصدق . لم تستطع

لن تتصور أو تسمع أو تصدق . فاندفعت نحـــو الشيخ كوحش كاسر ، وصرخت فيه وهى تختلج وتهدر :

ـــ أنت كاذب ! .. اخرج ... اقول لك اخرج ! .. ان هذا البيت أطهر وأشرف من أن يلوثه مثلك أيها السكير المخرف النمام ! ...

فتحامل الرجل على نفسه وخرج . ولكنه قبل أن يصل الى عتبة الباب ، التفت الى المرأة وقال :

ـــ لقد ابرأت ذمتى . واذا كانت أمك العجوز مجنونة فلا تكونى انت وزوجك من العميان !

وانصرف وهو يتطوح . فاتبعته روزين النظر واستولى عليهـــا ضرب من القلق يشبه الخبال . فاندفعت تذرع الحجرة وتردد « أممكن هذا ؟ .. أفى الاحتمال تصور شيء كهذا ؟ .. ابنى ، ابنى العزيز المعبود الذى قاتل فى صفوف المجاهدين سنة بطولها ، ينقلب من فدائى الى جاسوس ويجلب العار على نفسه وعلى والده وأسرتها كلهـــا ؟ ... لا ... هذا افك وزور ! .. هذه وشاية مختلقة بلغت من الخســـة والدناءة حدا يستوجب قطع لسان كل من يروج لها ! ... ومع ذلك فانا ارتعش ... انا أوجس خيفة بالرغم منى وارتاب... أن الهوى يختم على البصر والبصيرة ، والانثى الحقيرة الفاجرة قد تخنق فى الرجل كل شرف وكل عزة وكل ضمير ! .. ولكن لا ... لا يمكن أن تكون ايفونا قد تغلبت على ما أودعته أنا فى نفس ولدى من مبادىء وفضائل وقوى . لا يمكن أن تكون قد قهرتنى . ان ابنى هو قطعة منى وبضعة من أحشائى ودمى . فهو اذن شبيهى . ومن المحال أن يتنكر للبطن الذى حمله والدم الذى صاغه واوجده !... »

وأطلقت صيحة فرح مدوية ، وقالت وهى تنظر الى النافذة :

ـــ هاهو كارلو ! ...

ودخل الشاب يختال فى ثوب ابيض أنيق ويبتسم . فارتمت أمه عليه . فعانقها وقبلها ، بينما كانت الجدة المعتوهة تشرئب اليه بعنقها وتنتظر منه ان يحييها ويقبلها هى ايضا . ولكنه لوح لها بيده عن بعـــد واهملها وشرع ينضو عنه ملابسه. وكانت أمه تتفرس فى جبهته العريضة الناصعة ، وفى عينيه الزرقاوين ، وخديه الناضرين ، وشـــعره الساحر المموج الذهبى ، وتذكر جلوريا المسكينة ، وايفونا الفاجرة التى سلب لبها

هذا الجمال ، وتذكر فى الوقت نفسه عبارات الشيخ انطونيو وترتعش ...

وجاشت عواطفها ، وضاق صدرها بما يحمل . فصاحت بابنها وهى ما تفتأ تحدق فيه :

ـ أين كنت طوال هذه الايام الثلاثة ؟ ... لقد تقطع قلبى وقلب والدك لهفة عليك . انه لا يزال يبحث عنك . ذهب الى ايفونا فلم يجدها فى بيتها ولم يجدك . فأين ، أين كنت ؟ ...

فتطلع اليها الشاب لحظة ، ثم انعم النظر فيها ، ثم قال فى صوت هادىء ثابت عميق :

ـ كنت معها ... فى منزلها القروى الصغير...وسأتزوجها... سأتزوجها يا أماه بعد أسبوع ! ...

فاستشاط غضب الام وقالت :

ـ وخطيبتك ؟ ... خطيبتك المنكودة ؟ ... أمن أجل تلك الارملة الفاجرة يطاوعك ضميرك على التخلى عن خطيبتك العذراء الطاهرة جلوريا ، الفتاة الوطنية المجاهدة التى طالما أسعفت جرحانا ، وحملت المئونة والسلاح الى جنودنا ، واستهدفت للموت تحت وابل من الرصاص ؟ ! ...

فتمتم الشاب :

ـ انى أحب ايفونا ، ولابد أن اتزوجها ! فجحظت عينا المرأة وتشبثت بابنها وهتفت :

ـ محال !... لن تقتلنى وتقتل والدك ! ... لن تبيع بالمال جمالك وشبابك وكرامتك ! ... ان تلك الارملة الثرية ذات ماض يندى له الجبين . لقد اتخذت لها عشاقا بعدد ما فى طبعها المستهتر المتلون من نزوات . ثم هى صديقة أعدائنا ، صديقة النمسويين ، تغشي محافلهم ، وتتعاون معهم ، وتخدمهم على حساب وطنها دون ما وازع من خلق أو ضمير ! ...

فتملص الشاب من أمه فى عنف ، وانفجر بغتة ، وصرخ فى توقح قاس صريح :

ـ وانا ايضا سأعاونهم ... لن احتمل هذه الحياة بعد الآن !...

ماذا جنيت من خدمة وطنى ؟ ... الفقر والبؤس والتشرد والرعب والاستهداف لموت عاجل يحرمنى متعة الحب والشباب وانا بعد لم اعرف الدنيا !... اتظنون انكم اقوى من عدوكم ؟ ... سيتغلب هذا العدو فى الغد عليكم ، ويصبح اقواكم واقدركم صديقا له ! ... فلماذا لااصادق أنا العدو القوى منذ الآن ؟ ... لماذا اخدع نفسي واغامر بشبابى وانزل مختارا عن حقى المشروع فى الحياة ؟ ... لا ... سأتزوج ايفونا ، وأعاون النمسا القوية ، واكون أول ايطالى عرف اين هو العقل والحكمة والمصلحة والصواب !

فغلى الدم فى عروق روزين وامسكت بابنها فى ذعر وصاحت :

ــ اذن فحق ما قيل لى من انك انكرت ايمانك ومعتقدك والتحقت بمكتب مباحث العدو ؟ ... تكلم ... اجبنى ...

فحنى الشاب راسه فى سكون وقال :

ــ نعم

فانخلع قلب الام وصرخت :

ــ تريد أن تعيش أنت وتقتل وطنك ؟ ... تريد أن تعيش انت وتقتل اباك وامك ؟ ...

فقال كارلو :

ــ ما على الحمقى الا ان يحتملوا المصير الذى اختاروه . ومع ذلك فأنا سأصارح والدى . سأحاول ان اقنعه . سأحاول ان ارده الى صوابه وانقذه وانقذكم قبل فوات الوقت .

فهتفت روزين :

ــ اياك .. اياك ان تفعل ... اذهب ... اخرج انت ايضا . واذا كان ضميرك قد مات ولابد لك من ارتكاب جريمة ، فاقترفها وانت صامت . اقترفها وانت بعيد عنى ، ودعنى انقذ على الاقل البقية الباقية من بيتى وشرفى وحياتى ... اذهب ... عجل بارتداء ملابسك واذهب ...

فتحركت العجوز المجنونة ، ومدت راسها ، وجعلت تنظر الى الشاب فى دقة بلهاء ، وهى تضحك ضحكا متقطعا متعاقبا ، وترمق من طرف خفى لهب الشمعة وتراقص النار .

واثار ضحكها اعصاب روزين ، فرددت ملتمسة متوسلة :

ـــ اذهب ... اذهب ولا تعد ابدا ... اذهب قبل ان يفد والدك ! ...

فهزت العجوز اصبعها ، وتمتمت فى صوت يشبه النحيب :

ـــ لا ... لا .. ولماذا يجب ان يذهب ... انى احبه .. انه عشيقى انا ... انه جميل ...

فضحك كارلو مقهقها . وعاد فارتدى ثيابه متباطئا ، وامه تستعجله وتحثه خشية أن يلتقى بوالده فيصطدم الرجلان وتهب العاصفة . بيد ان القدر ، القدر الساهر ، القدر الساخر ، القدر الذى يجهل الانسان سره ويحار فى فهم تصاريفه ، كان أسبق من روزينا . فدخل الوالد فى تلك اللحظة نفسها . دخل الوالد ولم تهب العاصفة . لم تهب العاصفة بسبب اية كلمة نطق بها كارلو . لان الشاب لم يستطع أن يندفع ويتكلم عندما أبصر والده مقبلا ، ساجى الطرف ، شارد اللب ، متجهما متقبضا متصلبا ...

ولم يلتفت الوالد الى ولده ، ولم يسأله عن سر تغيبه الطويل عن البيت بل التقط أنفاسه ، واستجمع قواه ، وقال فى صوت واضح المخارج ، باتر النبرات :

ـــ العدو يتعقبنى ... لقد عرف الحاكم العسكرى النمسوى انى انا الذى أكتب تلك النداءات الوطنية الحماسية المثيرة ، فأصدر أمره بالقبض على ! ...

فوجم الشاب ، وجمدت روزين ، وظلت العجوز مثبتة عينيها فى الأشخاص الثلاثة كأنها تستغرب دهشتهم ووجومهم وتريد أن تفهم . ولم تعد يدها المرتعشة تخالس النار . أما الوالد الكهل فلم يحفل باضطرابهم جميعا واستطرد متجها نحو زوجته وابنه :

ـــ واجبك أنت ياروزين أن تسهرى على بيتك ، وتعتنى كل العناية بأمك ، وتنفقى فى حكمة واقتصاد من المبلغ الذى ادخرته انا لك . واذا نفد المبلغ واحتجت الى مال ، فالجئى الى الزعيم فهو لابد أن يساعدك. أما انت يا كارلو فاحرص على عملك فى المصنع ما استطعت . واذا انتدبك الزعيم فى مهمة وطنية فأطعه دون اعتراض . وغاية ما أطلب منك هو ان ترتد الى مسلكك السابق القويم ، وان تعود الى جلوريا ،

وان تكون أنت رب الاسرة مكانى ، وان تنهض بهذا العبء كرجل شريف، فتقطع كل صلة لك برفاق السوء ، وكل علاقة لك بالفاجرة ايفونا ، ولا تترك بيتك وأسرتك فى الليـــل ابدا ... لا اريد ان احاسبك الآن على الايام الثلاثة التى أمضيتها خارج البيت . ولكنى سأحاسبك حســابا عسيرا لو عدت حيا الى هنا . اما اذا قدر لى ان اموت ، فأنت عندئذ وضميرك . ولا أظن ان ضميرك سيطاوعك ولو لحظة على التهــاون فى رعاية أمك التعسة المسكينة وجدتك المنكوبــة العجوز ... ان املى كله معقود عليك يا ولدى ... فتعال ... تعال الى صدرى وقبلنى ...

فاجهشت روزين بالبكاء . وفتح الوالد الكهل ذراعيه ، وضم ولده الى صدره وقبله . ولكن الشاب كان مطرقا . كان مقطبا . كان كأنه يأبى الا ان يكبح عواطفه ويقاوم . فترك والده يقبله ولم يتحــرك . فاستغرب الرجل جموده . وعزاه الى تأثره واضطرابه . فقبله مرة ثانية فى حرارة وحنان ، وهم بأن يعانق أيضا ويقبل روزين . وفى تلك اللحظة، ماج البيت ، وسمع فى الخارج وقع حــوافر جياد متبوع بصـــهيل وضجيج . فتصلب الوالد ، وارتعدت الأم ، وأجفل الشــاب ، وهبت العجوز المعتوهة واقفة ، وجعلت تحدق الى النار وتضحك ضــحكتها الخفيفة الخاوية المزعجة البلهاء .

وفتح الباب فى عنف ، ودخل منه ضابط نمسوى مصحوب بأربعة جنود .

وقال وهو يتجه من فوره نحو الوالد الكهل :

ـــ الست أنت المزارع وتاجر الحبوب انريكو ؟ ...

فتقدم الرجل وأجاب :

ـــ نعم .

فقال الضابط :

ـــ لدى أمر بالقبض عليك أنت وزوجتك ! ...

فتطلع اليه انريكو مبهوتا وغمغم :

ـــ زوجتى ؟! ...

فأردف الضابط :

ـــ نعم . الأمر واضح وهو يقضي بالقبض عليـــك أنت وزوجتك

وارسالكما الى المنفى ... الى معسكر الاعتقال فى النمسا حيث تشتغلان بقطع الاحجار وتعبيد الطرق مدى الحياة

فذهلت روزين ، وارتجف انريكو وتطوح . بيد انه تمالك نفسه وقال للضابط فى دهشة :

ــ وهذه العجوز ؟ ... وولدى ؟ ... ولدى كارلو ؟ ... الم ينص الأمر على أن يعتقل معنا ويرحل فى صحبتنا هو ايضا ؟ ...

فابتسم الضابط واجاب :

ــ العجوز المجنونة سنرسل بها الى احد المستشفيات . أما ولدك ، ولدك كارلو فقد أصبح منا . انه يجاهد الآن معنا . انه اليوم عضو عامل فى مكتب المباحث النمسوى ! ...

فتداعت الأم وانسحقت . أما الوالد الكهل فقد شهق وتراجع كأنما قد نفذت الى صدره طعنة سكين . غاض دمه ، واصفر لونه ، واتسعت حدقتاه اتساعا مروعا ، وبدا عليه كأنه يتأرجح على حافة هوة سحيقة ، يشهد فيها مصرع آماله كلها وهو حى . غير أنه تمالك نفسه ، واستنهض جاهدا ميت قواه ، وانقض على ولده وصاح :

ــ أنت ؟! ... أنت أصبحت مارقا وغادرا وخائنا ؟! .. انت أصبحت نصير المستعمر فى بلادنا ، وصنيعته فى قريتنا وجاسوسه الحقير المأجور علينا ؟! .. تكلم ... أجب ...

فأشاح الفتى بوجهه وصمت . ثم اندفع فى جراة منكرة وقال :

ــ مازال فى وسعى أن أنقذك وانقذ أمى لو اقتديت بى ! ..

فصرخ الوالد الكهل :

ــ اخسأ . فما أنت الا وغد ! ... ابتعد ... انطلق من هنا ... عليك اللعنة ... عليك اللعنة من صميم حسرتى وعذابى . عليك اللعنة من خالص حقدى وعجزى ومذلتى ! ...

واخفى وجهه بين راحتيه ثم انتفض واهاب بزوجته :

ــ اعدى متاعنا يا امراة ولنذهب ! .. الوداع يا ماريا ! ...

واندفع نحو العجوز وقبلها . ثم اتجه صوب النافذة المفتوحة .

وظل يسرح بصره فى الفضاء فترة ، ويستنشق ملء رئتيه هواء قريته العزيزة كأنه يودعها هى الاخرى . ولما اتمت روزين جمع متاعهما ، وهمت بأن تميل بالرغم منها على ابنها الوحيد لتقبله ، عاجلها الكهل بلفتة وحشية مستنكرة ، ثم جذبها فى عنف ، وتقدم الجند متبوعا بها ، وخرج منصوب القامة مرفوع الراس دون ان يلقى على ولده نظرة .

وعندئذ ، وبعد ان أوصد الباب ، وساد فى الحجرة الملتمعة بضوء الشمعة الكبيرة سكون شامل زافر ، تحركت العجوز المعتوهة ، وتطلق بغتة وجهها الداكن المصفر ، وزايله فى مثل لمح الطرف كل أثر للبلاهة والذهول والشرود . فهبت من مقعدها ، ودنت من الشاب ، وصاحت به وهى تهزه هزا متعاقبا وتردد :

— خذنى .. خذنى معك .. لن أذهب أبدا الى المستشفى .. أريد أن أعيش معك .. ان اعيش .. بجوارك . أتعتقد ان امرأة مثلى كانت بالامس القريب مثال العقل والقوة ، يمكن أن تصبح بين عشية وضحاها مجذوبة ومجنونة ؟.. انهم هم المجانين !.. أما أنا فقد تبت مثلك وندمت.. عرفت أن الوطن خدعة ، والجهاد لوثه ، والاستقلال ضرب من المحال .. عرفت قيمة الحياة وأنا على حافة القبر .. ما كدت اقتل الضباط النمسويين الاربعة حتى ثبت الى رشدى ، ولمست حماقة فعلتى ، واصطنعت الجنون كى أنجو من الموت وأعيش .. فدعنى أعش معك يا كارلو وخذنى .. انت الحياة بأسرها اليوم فى نظرى .. سأحب زوجتك كما أحبك .. سأخدمها كما أخدمك . فلا تحرمنى من هذه النعمة ياكارلو وخذنى .. خذنى اليها .. الى ايفونا .. انها تنتظرك . لماذا تتردد ؟ .. اتريد ان تجهز على ؟ .. انت ؟ .. ولدى ؟ . حبيبى ؟.. كل ما بقى لى ؟ .. لا ضع ملابسك هنا .. ضعها فى هذه الحقيبة ولنمض .. نعم . هكذا .. آه .. اشكرك .. اشكرك واقبلك ، اقبلك من صميم فؤادى ! .

وما أن انحنى الشاب على الحقيبة وطفق يدس فيها ملابسه ، حتى برقت عينا العجوز ، وتوترت عضلات وجهها ، وغافلت كارلو وهو مطمئن وانقضت عليه . وقبل أن يتنبه أو يتحرك او يحاول النهوض ، أسرعت فاختطفت غدراته من صداره ، وصوبتها الى وجهه ، وصاحت به وعيناها الجاحظتان تلمعان :

— اكنت حقا تظن انى قد تبت مثلك عن الجهاد يا كارلو ؟ .. لن اتوب ابدا عن تأدية واجبى وفى صدرى نفس يتردد ! .. انظر .. انظر الى هذه الشمعة المتقدة .. لقد كنت اضيئها كل ليلة ، وابقيها هنا .. بجوارى . لأذكر فى وهج اللهب المقدس المندلع منها ان على انا العجوز الفانية أن اجاهد أيضا ما استطعت فى سبيل بلادى ! اجل انا ما اصطنعت الجنون الا لأضلل الحاكم المستعمر الطاغية ، عساى ان اعيش ايضا ، وان اخدعه يوما ، وان اتمكن من قتل نفر آخر من رجاله مرة اخرى ! .. وانت .. انت أصبحت اليوم من رجاله . انت الذى ضحيت بأبيك وامك وخطيبتك أصبحت شرا على بلادك من المستعمر نفسه . فأنت ، انت الذى يجب أن أستكمل بك اليوم واجب حقدى وثأرى وجهادى !.. لن اطفىء الشمعة حتى تنطفىء حياتك فاذهب ، اذهب الآن جثة هامدة الى معبودتك الفاجرة ايفونا ! ..

وسددت ذراعها ، وهمت بأن تضغط على السلاح وتقتل حفيدها . واذ ذاك ارتجت الحجرة ، ودوى فى فضائها طلق نارى لم ينبعث من سلاح ماريا ، أصاب كارلو فى صدره والقى به على الارض صريعا مضرجا بدمه . فذهلت العجوز وجمدت ، ثم تلفتت مذعورة وحدقت . وما كادت تحدق حتى أبصرت تجاهها ، على حافة النافذة المفتوحة هيكلا ضامرا تعرفه ، هيكل خطيبة كارلو هيكل الفتاة البطلة المجاهدة التى خدعها الشاب وغرر بها وانصرف عنها الى الفاجرة ايفونا . فاندفعت اليها العجوز والسلاح مشهر فى يدها ، وضمت رأسها الى صدرها وهتفت :

— مرحى ! .. مرحى لك ياجلوريا ! .. لو انك تأخرت لحظة واحدة لكنت أنا التى قتلته لا انت ..

فغمغمت الفتاة وهى ترتجف :

— انا لم أقتله لانه خان عهدى ، بل لانه خان وطنى . ولقد عرف الزعيم بخيانته فأختارنى أنا للقضاء عليه :

فصاحت العجوز وهى تدفعها :

— اذن فأسرعى .. اسرعى بالفرار من هنا والا اتهمك الحاكم بالجريمة أو اعتبرك شريكة فيها فعوقبت بالموت لا محالة . انقذى نفسك

يا جلوريا . صونى حياتك عن موت رخيص بيد العدو . انت شابة وقوية وباسلة والمجاهدون فى حاجة اليك . اما انا فأى نفع من حياتى والى اين يمكن أن أذهب الآن؟ . .لقد كان فى عزمى ان اقتل الخائن وهو حفيدى واتحمل كل شيء . . ففرى انت اذن بنفسـك ودعينى اعترف بانى انا القاتلة واتحمل وحدى كل شيء ! .

فلم تعترض الفتاة . ولكنها اجهشت بالبـكاء ، ومضت تلثم فى حرارة يد العجوز . فعانقتها ماريا وقبلتها ، ثم دفعتها أيضا واستعجلتها ثم ظلت واقفة تتبعها النظر وهى تعدو مسرعة وسط الحقول .

ولما اختفت الفتـاة ، تحولت العجوز نحو مقعدها ، وتأملت لهب الشمعة الكبيرة لحظة وأطفأتها ، ثم أرسلت نفسا مستطيلا ، وارتمت على المقعد ، ولبثت هادئة ثابتة تنتظر مصيرها . . .

« تم الكتـاب »

فهرس

الموضوع	الصفحة
القسم الاول	٣
الباب الذهبى	٥
مائدة الشيطان	٢٩
بعد سبع سنوات	٣٧
سناء واعتدال	٤٧
هوى الغانيات	٥٧
ذات الزهرة الحمراء	٦٧
الطائر الصريع	٧٩
أحلامهن	٩٣
على شواطىء الاسكندرية	١٠٦
بين الزوجة والحبيبة	١١٣
مأساة امرأة	١٢١
عند ما تغرب الشمس	١٣٥
القسم الثانى من التاريخ	١٥١
حطام ٠ ٠ ٠	١٥٣
السادة والعبيد	١٦٥
اللهب المقدس	١٧٧

الدار القومية للطباعة والنشر
(فرع الساحل)

العـــدد ٨٥
الثمن ٢٠ قرشا

الدار القومية للطباعة والنشر